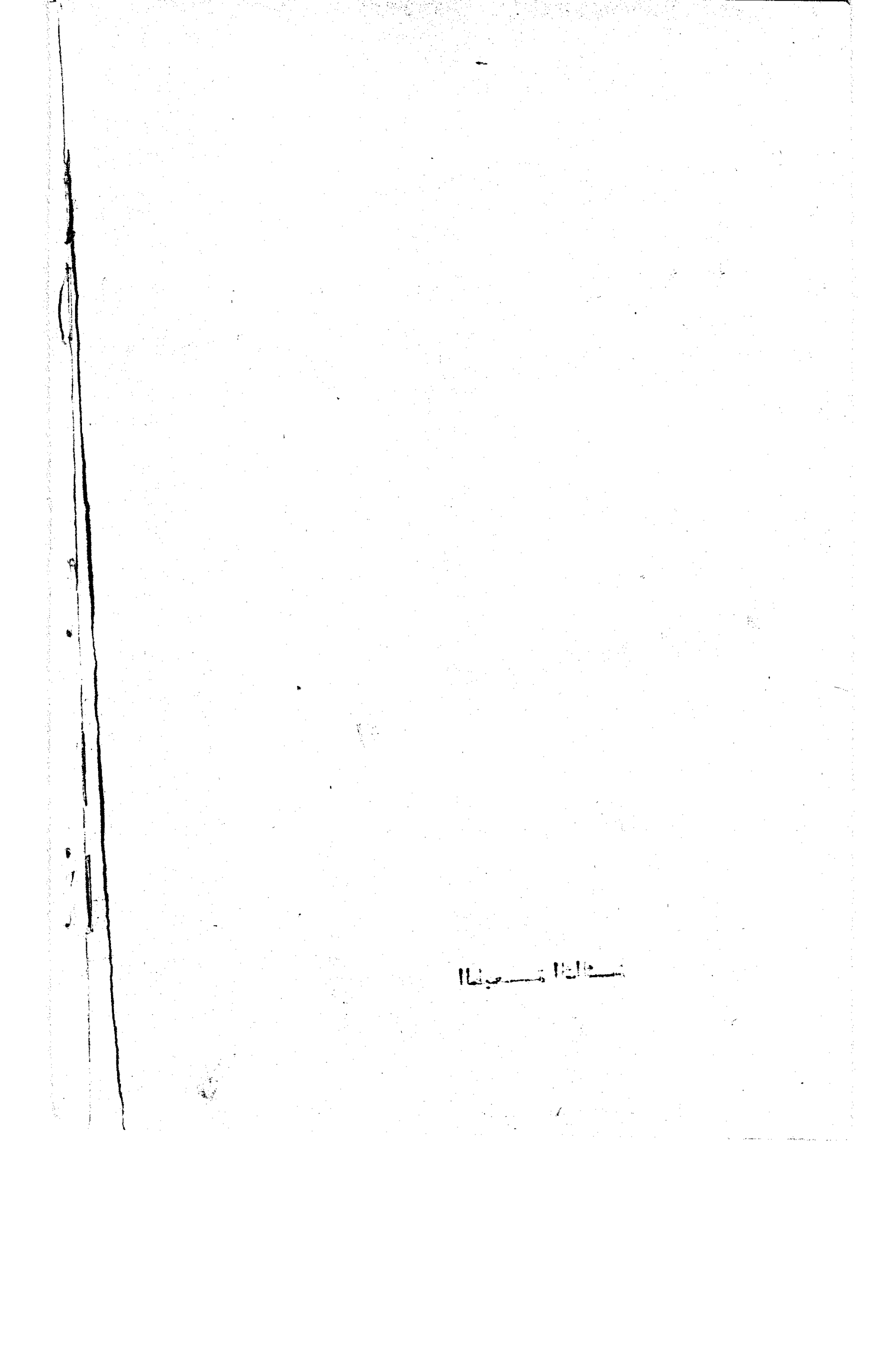
أوراق مطوية في التصوف والصوفية

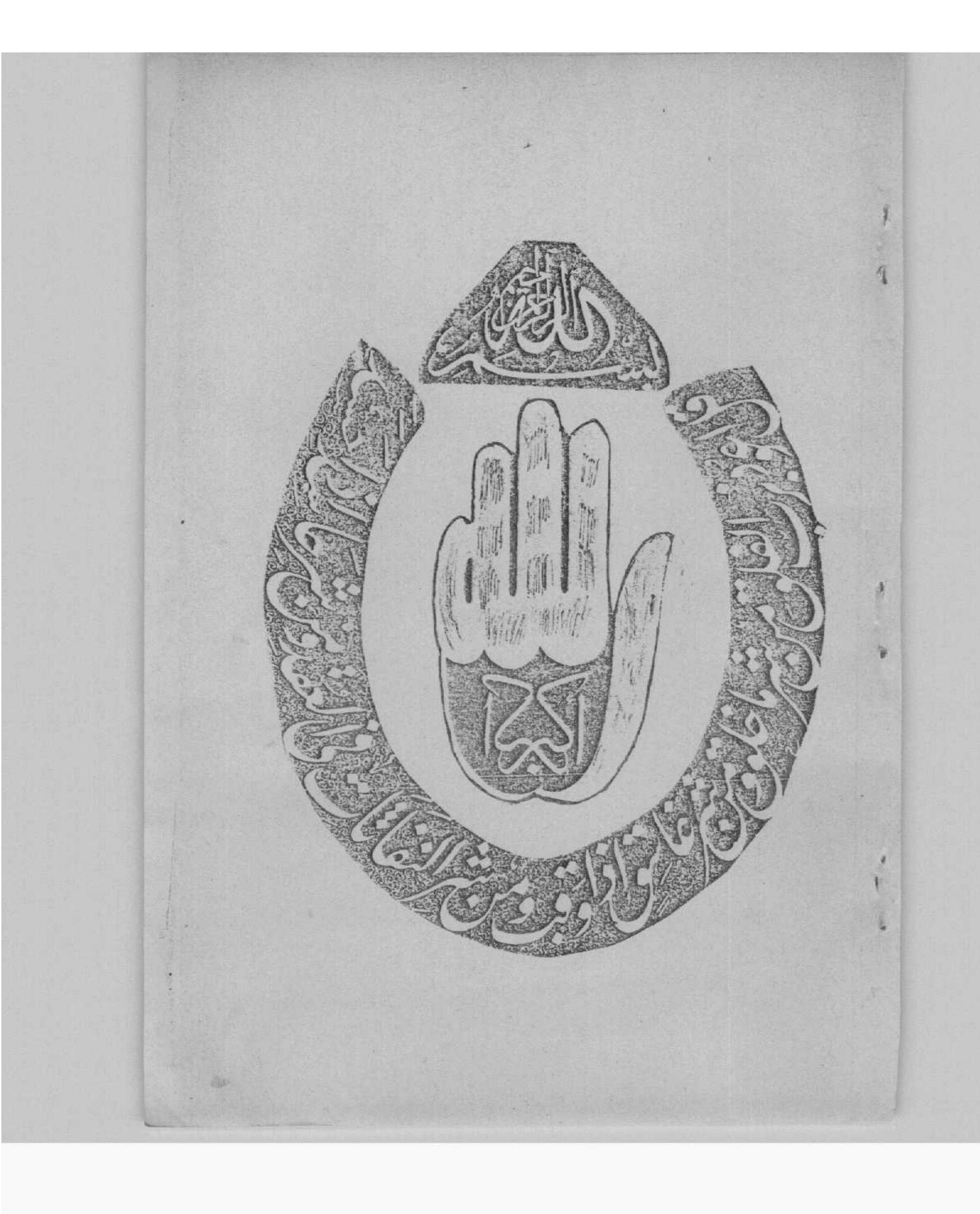
دكتور

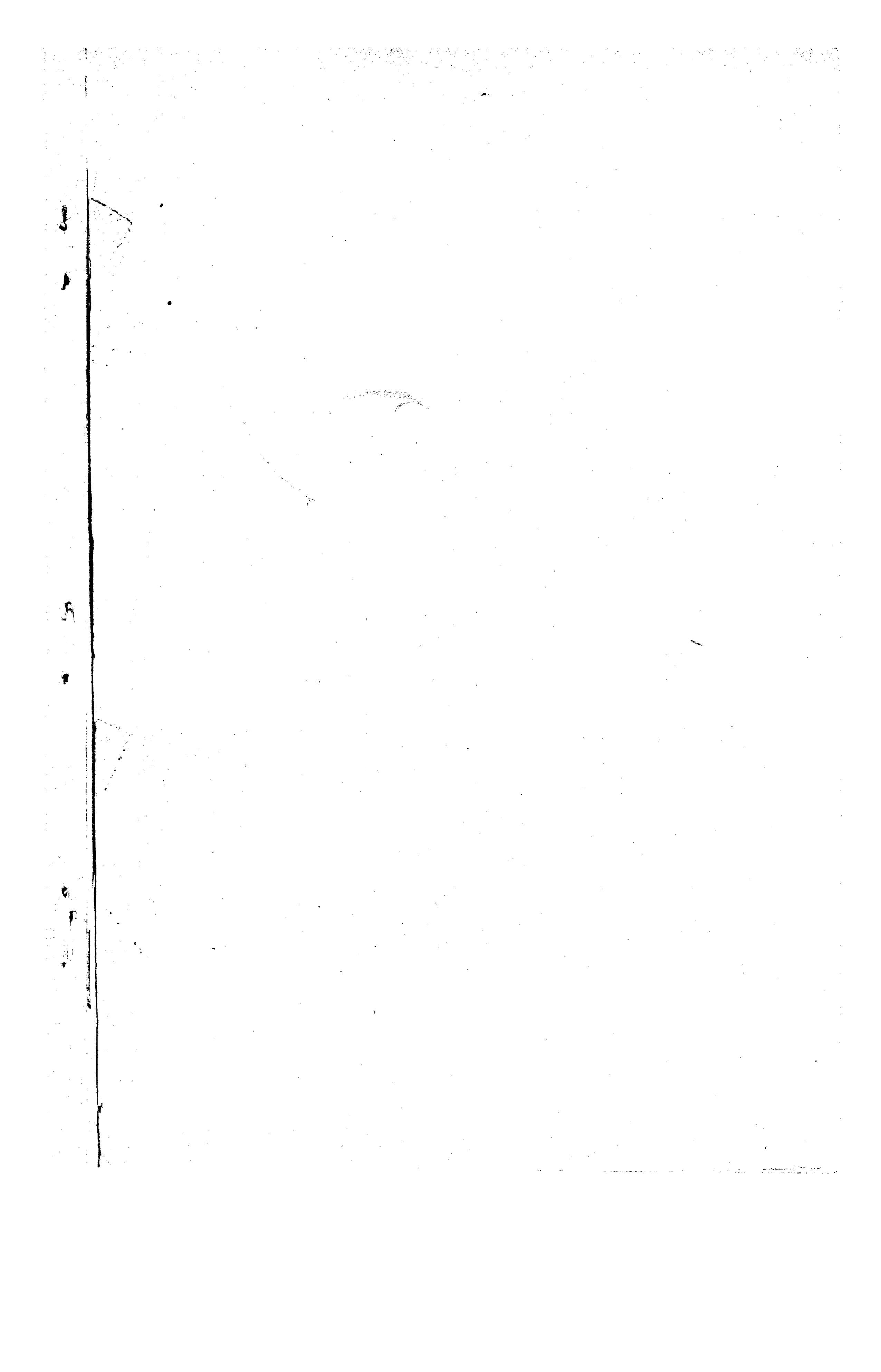
محمد حسينى موسى محمد الغزالي

جزء أول

الطبعة الثالثة




بسم الله الرحمن الرحیم



((بسم الله الرحمن الرحيم))

الأهـــداء

الـــى :

ذى الروح الشفيفة ، والنفس الأبيـة

صاحب المروءة والجوانـح النقيــة

والقلب النقى ، والصدر الصافى ، واليد الندية

مالج فى خصومة ، وما نافق مهما كانت عصيــة

جمعت له شمائل كانـت لغيـره عصيــة

روح : استاذ ، وعالم ، صوفية شــرعية

استاذى ، وشيخ شيوخى الأماجد :

الاســتاذ الدكتور

((علـى محمـد جبـر))

استاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة ـ جامعة الأزهر

رحمه الله ، وجعل الجنـة مثـواه

بارك اللهم فى أسـره الصـالح

وانفع اللهم بنيـه ، وأرضهم بما هم فيـه .

واحد من غرسك الطيب

دكتـور

(محمد حسينى موسى محمد الغزالى)



مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله النبى المجتبى .

أما بعد ..

فمن فضل الله علينا وعلى الناس ، أن جعل فى صدورهم قبولا لهذا الكتاب ، فما أن طبع الأولى حتى نفذ ، ثم أعيد طبعه فى الثانية فكان كالحال مع الأولى ، يجد لنفسه فى صدور أهل العلم مكانا ، وفى قلوبهم موضعا .

فأحمد الله العلى القدير أن جعله عنده مقبولا ، حتى وضع له بعض القبول فى الأرض ، وأرجو أن يكون له مكان فى أهل السماء ، فذلك أمر كم دعوت الله بيسره ، وأن يكون لى ذخرا عنده تعالى يوم أن يلقاه .

وأنوه الى أن الطبعة الثالثة قد أضيفت اليها زيادات ، ووقعت معها تنقيحات ، وحدثت فيها تعديلات ، رأيت الحاجة ماسة اليها ، وهذا لا يخفى على دارس الكتاب المطالع لما فيه ، كما أود الاشارة الى أن

اعتماد الكتاب على أقوال المستشرقين فى التصوف لايمكن قبولهـا ، لأن المستشرق — مهما حسنت نيته — فهو ابن بيئته .

والأولى أن نعود الى تراثنا الاسلامى ، حتى نتعرف على الفكر الصوفى والفكر المنتسب للصوفية ، فالفرق بينهما كبير جدا ، وقد خلط المستشرقون بين الصوفية والمتصوفة ، كما خلطوا بين تراث الطائفتيـن معا ، وقد نبه لهذه المسألة — وجود الفوارق — أئمة اعلام ، كالامام ابن تيمية ، والامام ابن الجوزى ، والامام ابن القيم ، وغيرهم مـن الأئمة الذين يعتد بهم فى هذا المجال .

كما لايفوتنى التنويه بأن تصديق ما يقوله المستشرقون له آثـار سلبية ، بل يجب اعادة النظر فيه مرة وأخرى ، وأبرز الأدلة أن : نيكولسون وغيره ممن حققوا بعض تراث الصوفية وقعوا فى هذه الهنات، حيث نسبوا القوم — الصوفية — ما هو من أفكار المتصوفة ، كما وهمـوا فنسبوا الى الصوفية الأعلام أفكار فلسفية كالحلول والتجسد والاتحاد ، وغيرها مما هو من التراث الفلسفى ، ولم يقل به الصوفية أبدا .

دكتـور
محمد حسينى موسى محمد الغزالى
غرة شهر شـوال ١٤١٨هـ
٢٩ ينايـر ١٩٩٨م

(مقدمة الطبعة الثانية)

الحمد لله رب العالمين ، امتدح أولياءه المتقين ، فقال تعالى " ان أولياؤه الا المتقون " (١) ، وبين سبحانه وتعالى أن أولياءه لاخوف عليهم فى الدنيا مما يخاف منه الناس ، ولا حزن يصيبهم بل لهم البشريات قال تعالى " الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم " (٢) .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، فكشف الله به الغمة ، حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها الا ضال .

اللهم صلى وسلم وبارك عليه فى الأولين والآخرين ، وفى الملأ الأعلى يوم الدين ، وارحم اللهم صحابته الأطهار ، والتابعين الأخيار ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعـــد ..

فها هى الطبعة الثانية من كتابى " أوراق مطوية فى التصوف والصوفية " أقدمه لطلاب العلم ورواد المعرفة ، أملا أن تتسع منهم

(١) سورة الأنفال آية ٣٤ (٢) سورة يونس الاية ٦٢

الصدور ، فيقع الكتاب بينهم الموقع المقبول .

ويعلم الله أنى ما ادخرت جهدا ، وما قصدت الاساءة لأحد ،
بل وما كانت نيتى تتجه الى معاقبة أحد ، انما كان همى كله ، وضع
الحق — كما أتصوره — فى نصابه ، والبحث عن الحقيقة التى هى ضالة
المؤمن ، وكم كنت أنشدها فى أى مكان أتصورها فيه .

وقد بان من مادة الكتاب أنى اعتمدت على المصادر الأصلية
والتى هى جزء مهم من مادة الكتاب ، كما أنى نوهت الى الفروق
الجوهرية بين النقاط الأربع التى هى محل دراسة الكتاب ، فان أكن
وفقت فمن فضل الله ، وان تكن الأخرى ، فما أنا الا بشر يخطئ
ويصيب ، وعلى الله قصد السبيل .

دكتور
محمد حسينى موسى محمد الغزالى
(٢٧ رجب سنة ١٤١٨هـ)

((إنذار وتنبيه))

كم تناولت أفهام التصوف فضلت بهم أقلامهم ، وكم من أقوام كانوا في معارفهم ثوابت ، فزلت بهم أقدامهم ، حتى صاروا أمثولة في أقوامهم ، وما ذلك إلا لأن بحر التصوف غريق ، وشاطئه مخيف وباطنه عميق ، فمن تعجل السباحة فيه ، حتما سيغرق فيه ، ولن ينجيه حسن نية ، أو سلامة طوية .

كما أن الصوفية جاهدوا حتى بلغوا القمم ، ولم تسقط من نفوسهم أعالي الهمم ، هم هداة بالكتاب والسنة في مدلهم الظلم ، وحداة القافلة الحائرة في بيداء مقفرة تقذف بالحمم ، وهم المرابطون على ثغور دينهم بالجهاد والعلم والقلم ، هم الفقهاء والمحدثون والعلماء العابدون ، ومن أنصفهم حقا علم .

بيد أن التصوف جهاد وسلوك ، والصوفية يمارسون أفضل سلوك أما أدعياء التصوف فطلاب دنيا ، وتجار عواطف ، وأصحاب خرافات ونقلة أساطير ، ليس لهم في العلم عن الله نصيب ، ولا في العبادة الحقة أدنى درجة ، إنهم دجاجلة ، فيهم طبيعة السحرة يحرسون قضايا الكهنة والمنجمين ، وهم من شرار خلق الله أجمعين .

ولن تبرأ ساحة المتشبهين للصوفية من البدع التي انتشرت بين المسلمين انتشار النار في الهشيم ، فهم رأس كل بدعة ، وأصحاب كل ضلالة ، لايعرفون من العلم الديني حتى الاسم ، ولايدركون من العبادة الصحيحة الا المظهر والرسم ، ولايعرفون من الجهاد الا الحناجر الخشنة ، والأصوات النشاز ، وهم في كل حال أصحاب ضمائر خربة ، ونوايا سيئة ، وأفكار سوداء وان ارتدوا ثوب التقوى ، واصطنعوا سمت الأولياء ، وتقليد الصالحين .

ان ادعياء التصوف فتنة أحاطت بتراث الأمة الاسلامية فأفسدت أغلبه ، وحاولت الوصول الى المصدر الأصلي للشرع — القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة — ففسرت القرآن الكريم على وجه غير محتمل ، وادعت وجود ظاهر وباطن ، وهدمت كل أصل يعتمد عليه في فهم القرآن الكريم ، والتعرف على مقاصده ، والمحافظة على آدابه وأحكامه .

ولم تسلم السنة المطهرة من أيديهم ، فكم وضعوا في الأحاديث ، وحاولوا ايجاد سند لها على ناحية مقبولة ، وأنى

لهم ؟! فقد انكشف زيفهم ، وتهاوت أسانيدهم ، واضطربت رواياتهم ، لأن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن الكريم ، قال تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " ، وحفظت السنة المطهرة بهذا الحفظ في قوله صلى الله عليه وسلم : " من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " .

فهذان الصوفية سلف صالح ، ملتزم القرآن الكريم ، متمسك بالسنة المطهرة ، لايعرفون العنصرية ولايميلون الى الخلافات ، ولا العصبية ، أما المنتسبون الى الصوفية ، فهم دعاة فرقة واختلاف ، أصحاب نزعات عصبية ، ونزغات قلبية ، ونزوات شيطانية وكم وقع في حبائلهم من الجهال ، وردد اقوالهم الأغرار ، ونام في ساحات مجدهم الزائل المتقبون ، وفي هذا الكتاب بيان للأمرين ، وكشف لجوانب الفريقين ، علّه يكون بمثابة المصباح الذي يحمله عابر سبيل في صحراء جرداء ، ليس بها زرع أو ماء ، ضرب بها الظلام بأجنحته ، وغشاها الليل وبها كنز ثمين ، وبئر يروي الغليل ، ويرد الغليل .

ولايذهبن أحد مذاهب السوء ، فتصور له نفسه المريضة ، أني قصدته أو فرقته وكشفت زيفه وضلال نحلته ، من خلال ما ذكرت من

أمثلة ، وماقصصت من أثر ، فان هذا الأمر لم يدر بخلدي أبدا ، فلا أحب ضياع الوقت في تصفية حسابات قديمة ، أو استحداث خصومات جديدة ، لأني اعتصم بقول الله تعالى : " وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " ، فلهذا نوهت ، وعليه نبهت والله سبحانه وتعالى من وراء القصد .

مقدمة

الحمد لله جعل أرواح الصالحين مؤتلفة ، وبين أن أرواح غيرهم مختلفة ، يقول صلى الله عليه وسلم : " الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف " (١) ، وأشهد أن لا اله الا اللـه أمر باقتداء هدى المهتدين ، قال تعالى " أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّـهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ " (٢) .

واخبر سبحانه وتعالى أن أهل الهدى ، أصحاب العقول السليمة والألباب النقية هم " الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ " (٣) فهم " يسمعون الحسن والقبيح فيتحدثون بالحسن ويكفون عن القبيح ، ويسمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ويتركون غيره ، ويسمعون القرآن الكريم وأقوال الرسول فيتبعون المحكم ويعملون به ، ويتركون المتشابه ، ويفوضون علمه للـه تعالى" (٤) ، من ثم كانوا أهل هدى ، وأصحاب عقول سليمة ، وصدور نقية .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، وصفوته من خلقه وخليله بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للأمة فكشف الله به الغمة ، وجاهد

(١) حديث شريف (٢) سورة الأنعام الآية رقم ٩٠
(٣) سورة الزمر الآيـة رقم ١٨ .
(٤) العلامة الشيخ / أحمد الصاوى ـ حاشية الصاوى على الجلالين جـ٣ ص ٢٧٠ ط دار الفكر .

في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين عليك أبا الزهراء الى يوم الدين ، ومن تبعك من صحابتك الغر الميامين ، ومن سار على دربهم ، ونسج على منوالهم ، الى يوم أن نلقى الله رب العالمين .

أما بعد ...

فقد وقفت بعض الأفهام عند حد التجني على التصوف والاتهام ، حتى زعم أن " التراث الصوفي — هو الذى حجب عن المسلمين توحيد الألوهية ، بحيث لم يعد عندهم هذا التوحيد : العلم والاقرار والاعتراف بأن الله ذو الألوهية ، والعبودية على خلقه أجمعين ، وافراده ، وحده ، بالعبادة والاخلاص له دون ما سواه " (١) .

وربما كان هذا الاتهام وذاك التجني قد بنيا على " اعتقاد الكثيرين أن أذواق الصوفية وأحوالهم لون من ألوان الهذيان " ، وأن مذاهبهم وأقوالهم ضرب من الكلام الذى لامعنى له ولاغناء فيه ، ولو قد التزم الذين يرون هذا الرأى حدود القصد والاعتدال فى أحكامهم وأمعنوا النظر فيما أثر عن الصوفية ، من أذواق وأحوال ، وما خلفوه من آثار وأقوال ودرسوا هذا كله على ضوء المنهج العلمى الصحيح ،

---

(١) الدكتور / صابر طعيمة — الصوفية معتقدا ومسلكا مجـ٧ ط أولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م مطبعة العبيطان بالرياض .

لغيروا رأيهم فى التصوف والصوفية" (١) ٠

ومن يدرى فلعلهم لو درسوا الموقف بعيدا عن روح العداء والتعصب ، أو الكراهية المسبقة لصاروا صوفية ، يقومون بالتصوف العملى ، ويعلمون التصوف النظرى ؟ أو كانت لهم أدلة فى مواجهة الموقف تحرسها نصوص قطعية على لسان الشرع ، أو ميزان العقل ، أو هما معا ، فمن يدرى ؟!

لأن التصوف الاسلامى الصحيح يطبع أصحابه بالمعرفة الحقة ، حتى يمكن القول : بأن " العارف بالتوحيد الخالص مفوض الى الله جميع أموره بلا جدال ، والعارف بوحدانية الله وعظمته فانٍ بذلك عن رؤية الأكوان ، ولايرى فى الوجود الحق سوى الواحد الديان والعارف بنفسه مخالف لها حتى تذعن لأوامر الله ، والعارف بطبعه مقوّم له حتى يرضخ للحق ، وتلك سنة التصوف ، وأهله ، ومذهبهم فى الحق" (٢) ٠

---

(١) الدكتور / محمد مصطفى حلمى ــ ابن الفارض والحب الالهى ص ١٠ ط دار المعارف بمصر ١٩٧١م ٠

(٢) السيد محمود أبو الفيض المنوفى ــ التصوف الاسلامى الخالص ص ٦ دار نهضة مصر ١٩٧٩م ٠

وبحض صنف فى بدعية التصوف وفضائح الصوفية ، ولو نظر الى أن "البدعة فى الدين هى مالم يشرعه الله ورسوله ، وهو ما لم يأمر به أمر ايجاب ولا استحباب ، فأما ما أمر به أمر ايجاب أو استحباب ، وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية ، فهو من الدين الذى شرعه الله" (١) — ربما حسب ما وقع فيه جناية تستوجب التوبة ، أو سقطة تحتاج الى اقالة من العثرة .

والبدعة المستهجنة غير مقبولة على أية ناحية لأنه من المعلوم شرعا " أن جمع الأعمال الصالحة التى يعملها أى انسان ابتغاء وجه الله تعالى موقوف قبولها عند الله على صحة العقيدة ، لأن الانحراف عن العقيدة انحراف عن الايمان ، والانحراف عن الايمان هو الكفر ، والله تعالى لايقبل من كافر عملا" (٢) والصوفية أصحاب أعمال صالحة وهم فى كل عقيدتهم يقيمونها على الكتاب الكريم ، وسنة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم .

ثم ان العلماء قسموا البدعة بحسب اخلالها بالدين من عدمه قسمين :

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى — مفصل الاعتقاد مجلد ٤ ص ١٠٨ ط دار الرحمة للنشر والتوزيع بالقاهرة .

(٢) الاستاذ / حسن أيوب — تبسيط العقائد الاسلامية ص ٢٠ طبعة دار التراث العربى للطباعة والنشر ط ٧ سنة ١٩٨٦م .

(١) بدعة مكفرة لمنتحليها :

وهى البدعة التى ينكر صاحبها " أمرا مجمعا عليه ، متواترا من الشرع ، معلوما من الدين بالضرورة ، من جحود مفروض أو فرض مالم يفرض ، أو احلال محرم ، أو تحريم حلال ، أو اعتقاد ماينزه الله ورسوله وكتابه من نفى أو اثبات ، لأن ذلك تكذيب بالكتاب ، وبما أرسل الله به رسله .

(٢) بدعة ليست مكفرة لأصحابها :

وهى " مالم يلزم منه تكذيب بالكتاب ، ولابشىء مما أرسل الله به رسله " (١) والصوفية يلتزمون الكتاب والسنة ويأتون الرخص والعزائم حتى صار من المؤكد القول بأن الصوفية الأوائل أقاموا " دعوتهم الى الله على أسس من الكتاب والسنة ، وبنو صرح علمهم عليهما ، مما يدلنا على تفهمهم العميق لروح الاسلام " (٢) والتمسك القوى بالنقل المعصوم .

والذى لاجدال فيه هو أن " بحوث التصوف وما تحتاج اليه من عناء وجهد ، ومن المام واسع بمصطلحات القوم التى يديرونها بينهم

---

(١) الشيخ / حافظ أحمد مكى - معارج القبول بشرح سلم الوصول الى علم الأصول فى التوحيد جـ ١ ص ٥٢٠ .

(٢) الدكتور / محمد شوقى حجاج - مواقف من التصوف الاسلامى ص ٨ ط دار الطباعة المحمدية أولى ١٩٨٤م .

ومن ادراك دقيق يوازن بين أذواقهم الغيبية ، وبين آراء غيرهم من أهل النظر الخالص أو النظر المشترك ، يعد فى الحقيقة أمرا خطيرا يفتقر الى اطراح الهوى ، واستعمال النصفة والعدل فى الحكم ، ويتطلب أن ينزل الباحث حيناً عن بعض نظراته المادية ليتيسر له أن يعيش آونة فى هذا الجو الروحى " (١) الذى لا يعرفه الا من ذاقه ، ولا يدرك قيمته الا من عرف حقيقته .

على أن الثابت هو تمسك أعلام الصوفية بالنقل المنزل ، فأبو اسحاق الفزارى مثلا : كان " لأهل الأثر والسنة اماما " (٢) ، وعلى بن بكار كان فقيها ، قاده فقهه الى المعرفة الحقة بالله رب العالمين ، ولم يكن فقهه الا فقه الكتاب والسنة ، وتصوفه على ناحية فقهه ، وكذلك كان الحال مع الصوفية الأعلام ، ولم يكن مع أدعياء التصوف على أن محبى التصوف والصوفية وباغضيهما ليسا على قدم واحدة ، ما لم يتم لدى كل منهما دليله الذى يصل معه الى البرهان فلا خصوم التصوف درسوا قضاياه بحيدة وموضوعية ، ولا فرقوا بين

(١) الامام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق مقدمته لكتاب ابن الفارض والحب الالهى ص ٧ .
(٢) الامام أبو نعيم — الحلية جـ ٨ ص ٢٥٣ .
(٣) الامام ابن الجوزى / صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٤١

رجاله ومدارسه ، وتاريخ التصوف والصوفية ، أو فرقوا بين الصوفية وأدعياء الصوفية ، اللهم الا أن تكون عبارات قليلة لاتكفى العطش حتى تزيل عنه ظمأه .

لهذا وغيره استخرت الله تعالى ، وانتدبت نفسى القيام بهذا العمل ، ومحاولة التفرقة بين نظرياته ورجاله ، وكم تناديت بضرورة التفرقة بين التصوف العملى والآخر النظرى ، كما التمست التعرف على الفوارق الكبيرة بين التصوف والصوفية ، وتلك التى تفرق بشكل محدد بين التصوف وعلم التصوف .

ولما كان هذا العمل يمثل أوراقا سلف أن نظرت فيها ،وقضاياكم صحت بها ، فقد اسميته "أوراقاً مطوية فى التصوف والصوفية". راجيا أن يعيننى الله على ما انتدبت نفسى اليه ، ويأجرنى - من فضله وكرمه - عليه ويفتح لى قلوبا غلفا ، ويسمع بما فيه - من صالح - آذانا صما ، وأن يكون فى ميزان حسناتى حسنة تؤاخى قريناتها وأترابها الكواعب .

بيد أن هذا الكتاب متعدد الأغراض ، كثير الصفحات ، وربما استغرق العمل فيه أعواما ، من ثم فقد ألزمت نفسى اعداد الجزء

الأول منه حتى يقع بين يدى طلاب العلم ، ومحبى المعرفة موقـــع القبول ، وعند الله تعالى الرضوان ، والله أسأل أن يوفقنى لصـــالح الأعمال .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛

دكتـــــــور

(محمد حسينى موسى الغزالى)

فى ليلة القدر ٢٧ رمضان ١٤١٧هـ

الفصل الاول

((موقف الناس من التصوف))

(موقف الناس من التصوف)

— ١ —

افترق الناس في أمر التصوف أيما أفتراق ، وربما اقترنت تلك الافتراقات بالكثير من التُّهَم والافتراءات ، بل ان هذا الاقتران بات أكيدا تقوده شبهات ، وتسوق إليه أحكام مسبقة ، وربما نوايا غير طيبة ، بل ان الموضوعية والحيدة قد تسربلتا أكفانهما ، وأقيم المأتم حولهما ، وعلت الأصوات النشاز بين جنبات المعزين ٠

على أن الملاحظ هو تنوع مهاجمي التصوف ، وتنوع الشبهات معهم ، بل وتتابع ذلك تلاحق الأحكام على التصوف وفيها من القسوة مالايطاق ، بل ان البعض طالب برجم التصوف من غير موضوعية ، وآخر رام شنق التصوف من غير حيدة ، وثالث ذهب لتقبل العزاء في الفقيد الذى لقي حتفه على أرض التعصب برصاصات ضيق الأفق ٠

— ٢ —

ولم تكن المأساة مع التصوف وحده ، بل شاركته الفلسفة تلك المعاناة ، وقاست معه أحكام الجهل والكفر والحرمان ، مع النكران بعد التعارف ، وتحاور الأصدقاء بعد الحب ، وجهالة الأعداء بعد ود الأصدقاء ، وقديما قيل : من جهل شيئا عاداه ، وتناقل

عن الصوفية القول ، من ذاق عرف ، ومن حُرِمَ انحرف ، كما نقل الينا الفلاسفة القول بأن : الفلسفة محيط عميق لايتمكن من التعرف عليه الا البحار الماهر ، لأن قشور العلم تضل ٠

وقد سلف القول : بأن الجاهل يتعصب لما في ذهنه ، ويحاول اقامة أبنية عالية حوله حتى لايتهاوى بناؤه الأول الذى تئن قوائمه من حمله ، وليس الأمر ببعيد مع المتعصب الذى يلغى دائرة الحيدة من ذاكرته ، ولايحكم إلا نداء أرعن يجوس داخل نفس ضعيفة ، ويطلق من حين لآخر صيحة منكرة ، تقوده من أزمّته حتى يسير خلفها كالبعير الذى فقد أمره ، "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ" (١) ٠

" ولهذا كله رأينا كثيرا من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين يقفون فى عنف ضد الصوفية ٠٠٠ ، وقد تميز هذا التيار بالتعسف وعدم الاطلاع الجيد على مؤلفات الصوفية أنفسهم" (٢) وعلى الطرف المقابل نجد كثرة من الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين ، بل ومن

(١) سورة يوسف الآية رقم ١٠٣

(٢) الدكتور / محمد شوقى حجاج ، د / محمد مصطفى - قضايا هامة فى التصوف الاسلامى ص ٣ مكتبة الأزهر ط أولى ١٩٧٦م٠

سائر الطبقات العلمية من يقفون بصلابة لصالح التصوف ويدافعون عنه وعن الصوفية حتى سمحوا لأنفسهم باغماض العين عن مخالفات المتصوفة التى لاتقبل شرعا ولايقف لها صحيح دليل عقلى ·

— ٣ —

بيد أن المؤيدين للتصوف ربما غالوا وكانوا المحب الوله الذى يغمض عين العقل عن كل خطأ طالما كان عن التصوف والمتصوفة ، صادر عنهم ، انه لايرى فى أفعالهم وسلوكهم الا الخير كله ، ولايفكر مرة فى اعادة النظر وتكراره فى الأمور التى تتعلق بأشخاص ومؤلفاته ، مقاماته واحواله ، الصوفية والمتصوفة ، ومن ثم أغمض العين عن كل مثلب ·

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " تنازع الناس فى طريقهم ، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة ، ونقل عن طائفة من الأئمة فى ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام ·····

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفى هذه الأمور ذميم " ثم ينتهى الى الحكم

بعد المقدمات التي ذكرها ومال اليها قال : " والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب " .

ثم فرق بين الصوفية والمنتسبين اليهم ، وبيّن أن المنتسبين يمثلون طوائف من أهل البدع ، ومنهم من وقع في ظلم نفسه أو معصية ربه ، يقول شيخ الاسلام : " ومن المنتسبين اليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه ، وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم " (١) ، اذن الخلاف قد صار محسوما .

بل الأمر أسهل من هذا وأكثر يسرا ، متى روعيت قواعد والأصول التي لابد لكل علم منها ، ثم تنحية الزوائد والاضافات التي يقوم بها من يتوسمون في أنفسهم علو الشأن ، ورفعا لهمة ، وميزة لعقل ، وهم في ذات الوقت من المنتسبين للتصوف وبطلق

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — الفتاوى — التصوف المجلد ١١ ص ١٨

عليهم المتصوفة ، الذين يهيمون حبا ، ويعيشون تيها بأفكار تعلوا فى أفهامهم ليس الا ، وربما لايقرها الصوفية أنفسهم ، والفرق بين الصوفى والمتصوف كبير جدا ، كالفرق بين الأصل والزوائد .

فاذا تناول ناظر أمر التصوف من خلال تلك الاضافات التى تلحق به والزيادات التى تنسب اليه ، وأهمل كافة الظواهر والمظاهر والأشكال الصحيحة فلاشك أنه حتما سيقع فى خلل فكرى ، وتكـــون أحكامه بمثابة زجاجات فارغة عبأها صاحبها مواد حارقة ، ثم عرضهـا للجمهور على أنها دواء ناجع ، وعلاج نافع ، وهى ليست كذلك.

— ٤ —

غير أنه لو وضع فى الحسبان حسن النية ، وصدق الرجـاء وتخليص القلب من شواغله ، وتفريغ الجوانح من العواطف الجائرة ، وطرحها مع الأحكام المسبقة فلاشك أنه ربما تغيرت الأحكـــام ، وانقلب الأمور رأسا على عقب ، أو قام كل بالإعذار لأخيه ، بـدل التطاحن بالألسنة ، والتبارز بالأحكام القاسية .

وفى تقديرى : أنه متى نظر الى التصوف باعتباره علما مـن العلوم ، ثم نظر اليه مرة أخرى باعتبار قواعده الصحيحة ومـدى

تطابقها مع الفكرة ، وكان ذلك من خلال تجرد وموضوعية ، فربما تغيرت الأحكام القاسية كلها سواء من جانب محبي التصوف أو مبغضيه وربما خفت حدة قسوتها في بعض الأحيان ، ومن يدري فلعل في الغيب أشياء يخفيها ، ومتى روعيت قواعد العلم واحكامه وسلوكياته انقلب الناس الى التصوف الحق كلهم . فمن يدري ؟ !

- ٥ -

ومما يمكن الالتفات اليه هو أن هناك خلطا مقصودا لدى متناولي التصوف وبخاصة خصومه ، الذين تدفعهم حدة الخصومة الى استعمال النية المبيتة في الادانة ، كما يخفون طوية غير مقبولة ، تحصنت بأحكام الكفر على المؤمنين ، والخيانة على المؤتمنين والضلال على المهتدين ، والقبورية على من ارتحلوا الى الله رب العالمين .

وربما استخفوا بالعقلاء فجعلوا المظاهر المحيطة بالتصوف قواعد له ، وماهي منه بشيء انها زوائد غير مقبولة ، أو اعتبروا سلوكيات بعض العوام أدلة لهم وشواهد عليه ، وماهي منه الا خيوط العنكبوت التي أحاطت بكنز ثمين ، فان قنع طالبه بالخيوط فقد غوى ، وان أجهد نفسه وطارد العناكب من حوله وصل إلى كنزه .

وآية ذلك أن خصوم التصوف عمدوا الى الأحكام الشرعية يطلقونها على التصوف قبل دراسة التصوف نفسه ، انهم أدانوه ، ونسبوا قواعده الى غير الاسلام ، وتعجلوا فى اصدار تلك الأحكام مع أنه لم تكن هناك دواع لتلك العجلة ، أو ذلك التسرع ، اللهم الا أن تكون الرغبة الكامنة فى المخالفة ، والعداء واللدد فى الخصومة .

— ٦ —

وربما تسألنى : من أين لك بهذا التصور ؟

والجواب : أن خصوم التصوف لم يدرسوا قضاياه مسبقا ، ولم تلق اليهم تلك القواعد الصوفية فى ذهن خال ، بل على العكس هذه ناحية ، وناحية ثانية هى أنهم لم يمكنوه من الدفاع عن نفسه ، بل ولم يسمحوا لأنفسهم بالاستماع الى دفاعه المشروع ، وانما سارعوا باغماد سيوفهم الصلدة فى عنقه ، وكمموا منه الفاه ، حتى اذا صرخ ضاع صوته ادراج الرياح ، وتمثل قول الحق المتعال " إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ " (١) .

---

(١) سورة النمل الآيتان ٨٠ ، ٨١

وربما نسبوه الى الجنون ، واعتبروه المريض الذى فقد عقله ، فصار يهذى ، ولم يعد له من أمره الا الانخراط فى قوائم المرضى الذين يجب عزلهم عن الحياة العامة ، حتى لا يؤثروا على باقى الخلائق ، وأحسب أن هذا المنهج غير سديد ، صاحبه رأى غير رشيد ، أما لماذا ؟ فلأن الحق جل علاه قال : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١) .

ولم يفت الخصوم اهمال الفوارق بين التصوف والمتصوفة ، انهم خلطوا عن قصد بين المفهومين ، كما اهملوا الفوارق بين التصوف باعتباره علما من العلوم المعرفية ، وبين المظاهر السلوكية التى تحيط به ، وبين المنتسبين اليه ، الواقعين بين صوفى ملتزم ، ومتصوف ركب الموجة ، واستقل القطار المسرع دون أن تكون معه رخصة لاستخدامه ، والفرق بين الصوفى والمتصوف واسع جدا .

— ٢ —

قد تسألنى لماذا كل هذا ؟ والجواب أن الكلام فى التصوف قد يكون غير مألوف عند الكثرة التى لا شأن لها بدراسته ، فيظن معظم الناس أن حقائقه أمور غريبة ، قد بات الناس عنها على غنى ،

---

(١) سورة النمل الآية رقم ٦٤ .

وليست الحاجة اليه كالحاجة الى الفقه الذى هو حى عاش فى حياتهم ، وملىء أزمانهم وأماكنهم ....

ويرفض آخرون — فى عنف وقسوة — أن يلتفتوا الى الأقوال فى التصوف ، أما لاستمساكهم بحرفية العقائد ، وظواهر الكلام ، وأما لأنهم تأثروا بأقوال الفلاسفة الذين رأوا الزهد والتنسك نظرية سلبية فى تصور الخيرية ، تحارب شهوات الجسم ، وأهواء النفس ، وتنبذ مطالب الحياة وحاجاتها ، وتنكر العلاقات الاجتماعية وتطالب بانكار الذات ورفض لذاتها " (١) .

لذلك سأحاول وضع حد لهذه الاختلافات وذلك لا يكون — فى تصورى — الا بوضع تصور لكل من المصطلحات التى تستخدم فى هذا الشأن ، ويقع الخلاف حولها ، وسأحاول جعل كل مصطلح فصلا خاصا حتى أتمكن من عرض المسألة بوضوح . والمصطلحات هى :

المصطلح الأول : التصوف .

المصطلح الثانى : علم التصوف ..

المصطلح الثالث: الصوفية .

المصطلح الرابع : المتصوفة .

---

(١) د / عبد العزيز سيد الأهل — بين الشريعة والحقيقة ص١١ ، ١٢ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٨٠م .

وربما كان شيخ الاسلام ابن تيمية ممن كشفوا الفوارق حيث تحدث عن أنواع ثلاثة من الصوفية هم :

(١) صوفية الحقائق : وهم المجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله .

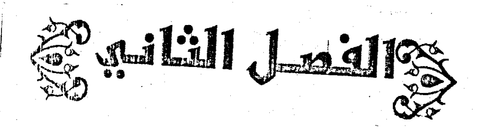
(٢) صوفية الأرزاق : وهم الذين وقفت عليهم الوقوف ، وهم أصحاب عدالة شرعية والتزام بآداب الطريق الشرعية ، ولا يتمسكون بفضول الدنيا .

(٣) صوفية الرسم : وهم المقتصرون على النسبة ، فهمهم فى اللباس ، والآداب الوضعية ، وهم بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم ، وأهل الجهاد ، ونوع من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم ، وليس منهم " (١) .

فهيا بنا الى الفصل الأول — التصوف — نقلب صفحاته بين اللغة والاصطلاح ، ونحاول التعرف عليه من هذه الناحية ، فاذا انتهى بنا الأمر الى عدم وجود مكان لهما فى لغة العرب ، حكمنا به ، واذا كان لهما فى لغة العرب أكثر من معنى حكمنا بأن التصوف الاسلامى أصيل النسبة الى الاسلام والى الأصل العربى وليس العكس فما هو التصوف فى اللغة والاصطلاح ؟

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — مجموع الفتاوى — التصوف المجلد ١١ ص٢٠



الفصل الثاني

((التصوف فى اللغة والاصطلاح))

((التصوف فى اللغة والاصطلاح))

التصوف لفظ له دلالة لغوية فى معاجم العربية ومفرداتها ، حيث أن مادة الكلمة — ص و ف — لها وجود فعلى فى لغة العرب ، مما يؤكد أن الكلمة عربية الأصل وليست وافدة على تلك اللغة ، ولذا سأعمل على ابانة معانى الكلمة فى اللغة والاصطلاح حتى يكون المضى قدما فى مسائل الكتاب مأمون العواقب ، بعيدا عن المزالق ، فما هو التصوف فى اللغة ؟

أولا : فى اللغـــة :

جاءت الكلمة على معان شتى منها :

(١) أخذ الشئ قهرا :

من ذلك قولهم : أخذته قهرا ، اذا تبعته ، وقد ظن "أن لن يدركه فلحقه وأخذ برقبته ، أو لم يأخذ " (١) وجذبه من صوفه ، أو شعره المتدلى فى قفاه ، أو بقفاه جميعا ، فالصوفى يمسك بدينه ، حيث يمسك برقبة نفسه ، ويأخذها قهرا الى الله

---

(١) القاموس المحيط جـ٣ ص ١٥٩ باب القاف فصل الصاد وما يشاكلهما — الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويلزمها ذلك حتى تمرّن ، وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مألوفة (١) .

(٢) العطاء بلا مقابل :

ومنه قولهم : اعطاه بصوف رقبته مجانا بلا ثمن .

(٣) الانقطاع للعبادة وخدمة بيت الله :

من ذلك قولهم : أبو حيّ من مضر ، هو الغوث بن مر ابن أد ا بن طابخة ، كانوايخدمون الكعبة ويجيزون الحاج في الجاهلية ، أي يفيضون بهم من عرفات " فهم قد انقطعوا للعبادة ، وخدمة بيت الله ، وتوجيه الحجاج الى أداء المناسك .

(٤) العدل عن الشيء الضار :

ومنه قولهم : صاف السهم عن الهدف عدل ، وأصاف الله عني شره ، أماله (٢) وصاف عن الشر اذا عدل عنه .

---

(١) الشيخ / عبد الرحمن حسن محمود مقدمته الفتوحات الالهية لابن عجيبة ص ٣ .
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ١٥٩ .

(٥) اسم لربيط الكعبة :

ومنه قولهم : صُوفَة أبو حى ، سمى بذلك لأن أمه جعلت في رأسه صوفة ، وجعلته ربيطا للكعبة يخدمها " (١) بحيث يعرف بعلامته المميزة فى ثوبه ، كما يعلم بأنه المنقطع للعبادة ، وخدمة الكعبة .

(٦) الميل عن الهدف :

ومنه قولهم : صاف السهم عن الهدف ، بمعنى مال عنه (٢) ولم يصل اليه .

(٧) الكثافة والكثرة :

من ذلك قولهم " صاف الكبش صوفا، كثر صوفه ، فهو أصوف ، وهى صوفاء (٣) .

مما سبق يمكن استخلاص تعريف للتصوف على ناحية اللغة بحيث يميزه عن غيره فى المنطوق اللغوى ، ويعتبر بمثابة اصطلاح عند أهل اللغة، فما هو التصوف على هذا الباب ؟

---

(١) شارح القاموس المحيط بهامش القاموس ج٣ ص١٥٩ ، ج ٢ من غير هامش ص ١٩٩ .
(٢) لسان العرب ج ١١ ص ١٠٢ ، ١٠٣
(٣) المعجم الوجيز ص ٣٧٤ مادة ص و ف .

الجواب : أن التصوف هو " قهر الرغبات ، والميل عن الشهوات ، والاخلاص لله في العقيدة والعبادة والمعاملات ، مع التزام الطاعة كافة الأوقات ، انقطاعا عن كل ماسواه ، مع الأخذ باصلاح ما أمر الله " وهذا التعريف هو الذى يمكن قبسه من المعانى اللغوية على ماسلف ذكره ٠

وهناك محاولة قام بها أحد الباحثين لتفسير المعانى اللغوية لمادة (ص و ف) بالمفاهيم الصوفية ، وهى محاولة يحسن نقلها لترى بنفسك مقدارها ٠ يقول :

" ان أصل التصوف كلمة غير مجهولة لغة ٠ فمثلا :

١ — أخذ بصوف رقبته ويصافها بجلده ، أو بشعره المتدلى فى قفاه ، أو أخذه قهرا " فالصوفى يمسك بدينه هكذا يمسك بصوف رقبة نفسه ، ويأخذها قهرا الى الله ، ويلزمها ذلك حتى تمرن وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مألوفة ٠

٢ — صُوَف: أبو حى من العرب كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج ، وكذلك الصوفى يخدم دينه ، ويجيز نفسه وغيره من عذاب الله تعالى ٠

٣ — قوم من أفناء القبائل تجمعوا وتشابكوا كتشابك الصوف ،
وكذلك الصوفية يتشابكون قلبا وقالبا كتشابك الصوف .

٤ — صاف الكبش فهو صَوِف ، اذا كثر صوفه وحماه من البرد
والحر ، وكذلك الصوفي يحميه دينه من المعاصي والذنوب
لأنه تربى على الحمية الدينية ، والعزة الالهية .

٥ — صاف السهم ، عدل . فكذلك الصوفي يعدل عن القبائح
والذنوب — حتى لاتصل اليه أو تقترب منه ، بل انه فى
ذاته يميل الى الابتعاد عن كافة النقائص التى لاتليق
بالمسلم الحق .

٦ — أصاف عنى وجهه : أمال ، والصوفى كذلك يميل عن كل
مايغضب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، انه يحاول
ارضاء الله تعالى من ثم فحبه لله أمر مفروض من داخله بينما
اغضاب الله مرفوض كلية من كافة نواحيه ، بحيث تصير حياته
كلها حبا لله ورسوله .

٧ — أصاف الله عنى شره : أَمَالَهُ عنى ، والصوفى يصرف الله
عنه كل سيء ، ويهيؤه لكل جميل ، يقره الشرع الشريف

وفى ذات الوقت لايكون منعزلا عن الحياة المحيطة بـه وأنماطها . ان الله يصرفه عن الدنيا لأنه محبوب الله تعالى ، لايريد غير الله .

وأضاف :

" فى بلاد الصعيد يستعملون كلمة صاف القمح اذا استوى استواء تاما وصلح للجنى ، فكذلك الصوفى يستوى قلبه من ذكر الله ، حتى لايوجد فيه شىء غير الله " (١) وهى محاولة ربما يقدر لها بعض القبول ، وان كان الأولى هو اقتباس تعريف على ناحية لغوية من كافة المعانى بدل انتزاع فقرات أو جمل من المفردات لاغرض لها الا اثبات أن الصوفى أصيل فى لغة العرب ، بينما التعريف منصب على التصوف وليس على الصوفى كما هى المحاولة .

ولئن كان الأمر فى المحاولة قائما على ايجاد علاقة بين المعنى اللغوى وما يدور فى أذهان الصوفية يعيش فى أحضان المتصوفة ، فان المسألة تحتاج إلى اعادة نظر حتى توجد علاقة

(١) عبد الرحمن حسن محمود - مقدمة ، الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية لابن عجيبة ص ٣ ، ومن المقدمة .

بين المعنى اللغوى والاصطلاحى مباشرة ، وأن تكون عـــــرى العلاقة قوية متماسكة ، ليس‌ما يجرى فى أعراف المتصوفة ، انما يكون الفيصل هو ما يمكن ضبطه من سلوك وأفكار مع نمط اللغة التى هى القاعدة المشتركة الناقلة للمعانى على وجه الاجمال ٠

وحيث اتفق العلماء على ضرورة وجود علاقة بين التعريـــف اللغوى والآخر الاصطلاحى ، فلا شك أن التعريفات الاصطلاحية للتصوف يجب أن تنشأ بينهما تلك العلاقة ، وان تكون جليـــة ، فاذا ما جاءت التعريفات الاصطلاحية بعيدة كل البعد عن المعانى اللغوية ، فقد تأكد أنها منتزعة ولا علاقة لها باللفظ المراد تعريفه٠ بل هى إلى التلفيق أقرب ، وإلى التجنى على العلم نفسه أكثـــر دخولا ٠

ولذلك رأينا بعض التعريفات الاصطلاحية تنحو الى اللغـــة وتقترب من معانيها العذبة ، ومن ثم نالت قبولا ، وأمثالهـــا التعـــاريف الآتيـــة :

١ ــ التصوف هو قطع العلائق ، ورفض الخلائق ، واتصـــال بالحقائق" (١) فكأنه قصد التخلى عن كافة الأســـباب

(١) المعجم الوجيز ص ٣٧٤ مادة ص و ف ٠

المخلوقة باعتبارها عاجزة عن تقديم شىء أو تأخيره ، وأعجز عن دفع ضر ، أو تحقيق خير ، ومن ثم تخلى عنها ، مع كافة الرغبات والغرائز المؤدية اليها ، ثم هو يخلى بين نفسه وخالقه فيهمل الخلائق جميعا اذا كانوا عقبة فى طريقه ، لأنه متعلق بالحقائق الثابتة ، المتعلقة بالله تعالى وصفاته ، وأوامره جل علاه ونواهيه ·

٢ - التصوف : استرسال النفس مع الله تعالى ، على مايريد" (١) وتلك مهمة كبرى لأنها أخذ النفس عن غرائزها قهرا ، وسلب نزعاتها عنوة ، وافراغ رغباتها من الشهوانية الى الروحانية ومن التمتع الجسدى الى المتعة الروحية انها تسير على مقتضى ارادة الله فى أوامره ونواهيه ·

٣ - التصوف: ترك كل حظ للنفس" (٢) بحيث لاتكون حظوظها هى القائدة لها ، أو المسيرة لأمرها ، لأنها حظوظ تشيع فيها عناصر الجسد الطينى ، ومتى غلبت أهلكت ، ومتى انهزمت تلك الحظوظ أتاحت للروح الانطلاق ، وللنفس

(١) الامام الهجويرى - كشف المحجوب ص ٢٣٣ ·
(٢) الامام الطوسى : اللمع ص ٤٥ ·

الوادعة الاطمئنان فى جانب الله ، وهو مطمع ترنوا اليه النفوس الكوامل .

ولا شك أن التخلى عن ميول النفس ورغباتها الدفينة ، وشهواتها العارمة ، غاية من غايات التصوف ، لأن المرء اذا قادته نفسه المسلحة بالنزوات ، والرغائب والنزعات ، أودت به الى معصية الله تعالى ، وصرفته عن قبول الحق والانصات له ، فضلا عن التعرف اليه ، سواء على ناحية اتباعه والنظر فيه ، أو القيام به على النحو الذى يرضيه .

من ثم كانت تعريفات التصوف متعددة ، وأرجحها ماوافق المعنى اللغوى ، ودل عليه حال التصوف والصوفى معا ، ولذلك رأينا للصوفية الحقة تعريفات تنطبق عليهم مأخوذة من المعانى اللغوية ، وبذات الدلالة ، حيث عرفوا الصوفية بأنهم " قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية ، وآفات النفوس ، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا فى الصف الأول ، والدرجة العليا مع الحق ، فلما تركوا كل ماسوى الحق صاروا لا مالكين ولا مملوكين " (١)

---

(١) نيكولسون — فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٤٠ ترجمة د / أبو العلا عفيفى — لجنة التأليف ١٩٦٩م .

لأنهم لايملكون من حطامات الدنيا التى تشغلهم عن ذات الحق ، فهم من هذه الناحية لامالكين ، ثم انهم قد تخلوا عن شهوات أنفسهم ، وماصارت تئن اليها جوانحهم ، انهم أفرغوا كؤوس التعلق نحو جهة واحدة هى الحق جل علاه ، من ثم فهم ليسوا مملوكين لشهوة البدن ، ولا لرغبات النفس ، حتى صاروا لامالكين لحطام ، ولامملوكين لنزوات . وتكررت هذه المقولة لديهم حتى صارت كالعنوان عليهم فعرفوا الصوفى بأنه " الذى لايملك ولايملك" (١) .

واذا كان الأمر كذلك فان التصوف أمر مهم باعتباره من الشرعيات التى حث عليها الشرع الشريف على النحو الذى جاءت به لغة العرب ، من كونه قهر للرغبات ، وميل عن الشهوات واخلاص العقيدة لله والعبادات ، ومكارم الأخلاق وكافة المعاملات ، وكافة الأماكن والأوقات ، مع الانشغال بالله والانقطاع عن كل ماسواه ، وفى نفس الوقت الاصلاح على نحو ما أمر الله .

والمسألة بهذا المعنى تجعل التصوف أمرا معرفيا وسلوكيا ، لكن على نحو شرعى ، واذا كانت القاعدة قاضية بأن للغة دلالتها

---

(١) الامام الهجويرى — كشف المحجوب ص ٥٥٢

على ما تهدف اليه دلالة قطعية ، وأنها تلى الدلالة الشرعية ، وتسبق العرفية لدى علماء الأصول ، فان الذى لاشك فيه هو اعتبار التصوف أمرا شرعيا دعت اليه النصوص الدينية . فما هو التصوف فى الاصطلاح ؟

ثانيا : التصوف فى الاصطلاح :

وردت للتصوف تعريفات كثيرة فيها من التباين الكثير ، وماذلك الا لأن بعضها راجع الى أمور قد تكون داخلة فى التصوف أوربما كانت بعيدة عنه ، كما أن بعضها قد صنعه الصوفية أنفسهم ، وبعضا آخر تخيله المتصوفة ، وثالث همس به فى غياهبا لكتب المستشرقون ، ورابع قام بتلفيقه خصوم التصوف حتى يقع فى الناس القدح لهم بدل المدح ، والذم المشين بدل الاستحسان المبين .

كما أن بعض التعريفات انطلق من مراقبة معينة لزاوية خاصة من زوايا السلوك الصوفى نفسه ، وانطلق بعض آخر من مراقبة الضمير والوجدان ، أو فرض تعريفات للتصوف عليها ، وربما ساهمت تعريفات أخرى مقتبسة من الفعل الأخلاقى فى جانبه

الايجابي أو السلبي ، وهذه وتلك مسائل عديدة أسبابها يطول شرحها .

والباحث الذى يتسم بالحيدة والموضوعية ، عليـــه أن يراقب كل هذه المسائل ويفتش فيها ، ثم ينقدها نقد الصيارف للدراهيم ، ويفتش فيها تفتيش الصائغ حتى يميز بين الحلـــى وأحجار الطواحين ، وتلك مسألة قلّ أن تجد بين دارسى اليوم من يجد فى نفسه الرغبة الملحة للقيام بها ، أن بعضهم استعـذب السرقات الأدبية التى لايتم الاعلان عنها ، وتلك مصيبة كبرى ، كم اضاعت من العلم وأسقطت من هيبة العلماء .

ولست أدرى لصالح من يتم شطب التصوف ، وحذف قضاياه والحكم عليها جميعا بأنها " قضايا وموضوعات — التصوف — تعتبر من القضايا الوافدة على الساحة الاسلامية ، والمنسوبة الى العقل الاسلامى أبان فترات تعرضه للانكماش ، أو انحساره أمام عمليـــات التسلل الفكرى ، التى وفدت على الحياة الاسلامية (١) ، وأنهــا جميعا بدعة وابتداع ، وهذا حكم متعجل قطعا .

---

(١) الدكتور/ صابر عبد الرحمن طعيمة — الصوفية معتقدا ومسلكا ص ١١ ط العبيكان الرياض أولى ١٩٨٥م .

مع أن المسألة أكبر من أن يصدر الحكم فيها بهذه السرعة انها ليست من القضايا التى يقبل فيها حكم الفنان أو قضاء الأديب ، لقد وقع فيها كثير من الخلط بين العديد من المصطلحات مع وجود فوارق كبيرة ، ولو فهمت هذه الفوارق فربما تغيرت الأحكام التى وزعت بين اتهام القوم بالتبديع أو التفسيق فضلا عن التكفير .

ولو عرف بوضوح الفرق بين السنة والبدعة ، والواجب والفرض إلى غير ذلك من المصطلحات الفنية التى يجب التفريق بينها لصلحت الأحكام ، ولابتعدت عن التسرع والرعونة أو اجتثاث الأصول السليمة ، ولىّ النصوص لتوافق الأهواء .

كما أنه " بسبب الفهم الخاطىء للسنة والبدعة والأحاديث النبوية الشريفة يثور كل هذا الغبار الذى يلبس ثوب التبديع والتشريك والتكفير ، لأهل القبلة ، وأهل التوحيد من مخالفى بعض المشايخ وشيوخهم " (١) كما هو الحال فى شأن أى فهم على وجه غير صحيح .

---

(١) الاستاذ / يوسف السيد هاشم الرفاعى / الرد المحكم المنيع ص ١٤١ مطبعة السعادة - طبعة ٢ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

ثم ان رمى الناس مخالفيهم بالابتداع مسألة خطيرة متى كان المقصود البدعة التى تضر بالدين ، لأن القدح فى المسلم مسألة غير مقبولة يترتب عليها أن نقدح مسلما ونذم محسنا أو العكس ، ثم ان البدعة منها " ماهو جائز وممنوع ، وقبيح وحسن وممدوح ومذموم " (١) وليست شيئا واحدا ، وحكما واحدا .

بل ان العلماء قسموا البدعة وبينوا أنها تنقسم الى خمسة أقسام : " أحدها واجب : وهو ماتناولته قواعد الوجوب وأدلته من الشرع كتدوين القرآن الكريم والشرائع اذا خيف عليها الضياع فان التبليغ لمن بعدنا من القرون واجب اجماعا ، واهمال ذلك حرام اجماعا .

ثانيها : حرام : وهو كل بدعة تناولتها قواعد التحريم ، وأدلته الشرعية ، كالطقوس وتقديم الجهال على العلماء ، وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها .

ثالثها : مندوب : وهو ماتناولته قواعد الندب وأدلته ، كصلاة التراويح جماعة والرُّبَط والمدارس ، وكل احسان لم يعهد فى الزمان الأول .

(١) الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع / حوار مع المالكى ص١١٩ مطابع الفرزدق التجارية بالرياض سنة ١٩٨٣م .

رابعها : مكروه : وهو ماتناولته أدلة الكراهة من الشريعة وقواعدها كتخصيص الأيام الفاضلة على غيرها بنوع من العبادة ، وزخرفة المساجد ، وتذويق المصاحف ٠

خامسها : مباح : وهو ماتناولته أدلة الاباحة وقواعدها من الشريعة ، كاتخاذ المناخل للدقيق ، للين العيش واصلاحه من المباحات فوسائله كذلك مباحة " (١) ٠

من ثم فلا تكون لفظة البدعة شيئا واحدا على جهة واحدة ، حتى يكون الرمى بها يؤدى الى الاساءة مطلقا ، بل يمكن حملها على الوجه الآخر ، وهو أمر حسن ، لأن البدعة " من الأمور التى وقع فيها الجهال والعوام ، وصارت حديث تكفير واتهام ، بينما أئمة المالكية يرون البدعة تقع فيها الأحكام الشرعية الخمسة على ما مر بيانه" (٢) ٠

---

(١) الشيخ محمد النووى الشافعى / نور الظلام ص ٦ — ط ٢/ الحلبى سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦م ٠

(٢) الدكتور / محمد حسينى موسى الغزالى / رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق — الطبعة الثانية ص ٧٦/١٩٩٦م مطبعة الهدى بالزقازيق ٠

لذلك كله سألجأ الى الحديث عن التصوف من حيث تعريفه فأقسمه الى الأقسام التى أجد البحث يؤدى اليها لكن هذه الأقسام ستكون باعتبارات مختلفة وليست على جهة واحدة ، وذلك على النحو التالى :

التقسيم الأول : تعريفات باعتبار العلم :

هناك تعريفات للتصوف باعتباره علما من العلوم ، له موضوعه ومسائله وغايته التى يهدف اليها ، ومن هذه التعريفات ماعرف التصوف بأنه :

١ — " بمعنى العلم " وهو عبارة عن أصول يعرف بها صلاح القلب وسائر الحواس" ، وأن التصوف أوله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة ، ومقصده صلاح القلب وسائر الحواس"(١).

من ثم . فان التصوف كلمة ترادف العلم ، بل هو فى حد ذاته علم من العلوم المعرفية ذات الدلالة المعينة التى تفرق بين التصوف وعلم التصوف ، وتؤكد فى نفس الوقت

---

(١) شيخ الاسلام/ زكريا الأنصارى — الفتوحات الالهية فى نفع أرواح الذوات الانسانية ص ١٠ ط العاصمة سنة ١٩٧٦م .

المغايرة بينهما ، فنحن كما نقول الأخلاق ، ونقول علم الأخلاق ، والفرق بين الأخلاق وعلم الأخلاق بيّن ، فكذلك الحال مع التصوف وعلم التصوف ، سواء فى التعريف أو التسمية أو فى الموضوعات التى تدرس ، والنتائج التى يهدف اليها كل منهما .

والتصوف لاقيمة له ان لم ينل موافقة الآداب الشرعية التى أوجبها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

٢ — الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا : فيرى حكمها من الظاهر فى الباطن ، وباطنا : فيرى حكمها من الباطن فى الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال " (١) ، وهذا الكمال الذى ينشده الصوفى يمثل غاية من غاياته تقوم على محاولة التكمل البشرى حتى يصل الى رضوان الله تعالى ملتزما أوامره مجتنبا نواهيه ، والمعلوم " أن الصوفية الأوائل لم يتخلوا عن تعاليم الدين ما صغر منها وماكبر ، بل اننا لنجد خير تطبيق لتعاليم الدين عند هؤلاء ، وبالرغم من أن أحوالهم ليست مستحيلة التطبيق فانه من النادر أن نجد انسانا

---

(١) الشيخ / الشريف الجرجانى — التعريفات ص ٥٢ .

يأخذ نفسه بها كما فعلوا هم" (١) .

ولذلك يمكن القول بأن الصوفية أصحاب علم وليسوا جهلة بـه كما يحب أن يرميهم خصومهم ، بل هم أهل علم وسلوك معـا متى اعتبرنا التصوف علما من العلوم ، وهو سلوك فى نفس الوقت ، والصوفية كانوا يرون أنفسهم فى هذا المجال العلمى اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمجال التطبيقى العملى كذلك كان لهم فيه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة التى حاولوا اقتفاء أثرها .

ففى المجال العلمى كان اهتداؤهم بالقرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، حتى كان منهم المفسرون وعلماء الحديث والفقهاء بل ورجال الأصول ، فضلا عن علماء العقيدة والتصوف والأخلاق ، وكم تنادوا به وأعلنوا أنه " لاغرابة فى ذلك، إنّ فعلنا اقتداء بالقرآن الكريم ، ورغبة فى تثبيت أنفسنا ، واقتباسا من خلق رسولنا ، على أن نستبعد كل الأحاديث التى لم تصح " (٢) .

---

(١) د / عبد اللطيف محمد العبد ، دراسات فى الفكر الاسلامى ص ٤٣ الانجلو المصرية ١٩٧٧م .
(٢) عبد الحى العمروى وعبد الكريم مراد ــ التحذير من الاغترار بما جاء فى كتاب الحوار ص ٥ ط فاس بالمغرب ١٩٨٤م .

من ثم كانوا أصحاب منهج علمى فى جانبهم العلمى ، وكان لهم فى الأحاديث المضافة للسنة موقف ينبىء عن ثقافتهم الحديثية أيضا .

٣ - نقل عن أحد مشايخ الصوفية قوله : التصوف " جواب بشرط العلم ، وهو تصفية القلوب من الأكدار ، واستعمال الخلق مع الخليقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة (١) على أن التصوف فى مرادفته للعلم قد حاز جانبا من عناية الصوفية ، وبخاصة عندما التفتوا الى جانبه الذاتى المركوز فى الصوفى نفسه ، وكشفوا هذا اللون من العلم وحددوا معالمه بوضوح وأنه هبة من الله ، يقول الدارانى : " ان الله تعالى قد يكشف للعارف وهو نائم فى فراشه من السر ، ويفيض عليه من النور ، مالايكشفه للقائم فى صلاته ، واذا استيقظت فى العارف عين قلبه ، نامت عين جسده ، لأن العارف لايرى سوى الحق " (٢) .

---

(١) الامام الطوسى - اللمع تحقيق د / عبد الحليم محمود وآخر ص ٤٧ ط ٧ سنة ١٩٦٠م .

(٢) تذكرة الأولياء جـ ١ ص ٢٣٤ .

ولأن التصوف حقيقة علمية فاضت على أرواح الصوفية ، فقد دفعت بهم الى الترقى فى مجال المعرفة بالله تعالى وكان لهم فى هذه المعرفة من الأفهام ماعجزت عنه غيرها من الأفهام ، من ذلك ماروى عن " أبى محمد الهروى أنه قال : مكثت عند الشبلى الليلة التى مات فيها ، فكان يقول مما يقول فيها :

كل بيت أنت ساكنه　　غير محتاج الى السُّرُج
وجهك المأمول حجتنا　　يوم يأتى الناس بالحجج(1)

وهكذا فقد حرص القوم على تعريف التصوف بالعلم ، حتى لايفهم أحد أن التصوف غير منضبط ، أو أنه خبطة عشواء أو ضربة عمياء ، أو أن الصوفية وقع فيهم الجهل فلا حياة لهم الا به ، ولا راحة الا فيه ، والأمر عكس هذا تماما فى الصوفية ، ولكن هو طريق المتصوفة على ما سيرد ان شاء الله تعالى ..

---

(1) الامام القشيرى- الرسالة القشيرية ص ٢٣٥ ط صبيح وبهامشها هوامش شيخ الاسلام / زكريا الأنصارى.

٤ — " التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله سبحانه وتعالى " (١) وهذا التعريف يفيد أن أول مراحل التصوف واللبنة الأولى التي يتم بناؤه عليها هي العلم ، لكن أى علم ، انه العلم بالله وبما أنزل وبما يجب أن يكون عليه المسلم الملتزم ، من ثم فانه متى تحقق هذا العلم فقد تبعه العمل لكن أى عمل ؟ انه العمل المحمود شرعا من القيام بالواجبات والابتعاد عن المحرمات .

من ثم فان التصوف يمثل على هذا النحو مدرسة تربوية غرضها تعريف الناس بخالقهم العظيم — جل علاه — ومايجب له ، والعمل بمقتضى هذا العلم ، ولذا قيل : " انه متى كانت الصوفية ملتزمة الدين عقيدة وشريعة فهى محمودة ، وينبغى تشجيعها ، وان انحرفت فهى مذمومة ويجب تقويمها والتقويم يكون على المنهج الذى رسمه الله تعالى لنبيه بقوله تعالى " ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ " (٢) ....

---

(١) الامام السهروردى — عوارف المعارف ص ٤٣ .

(٢) سورة النحل الآية رقم ١٢٥

انها أشبه بالمدارس التربوية التى تضم الى العلم والثقافة ممارسة عملية تطبيقية" (١) ٠

على أن ما يمكن الالتفات اليه هو أن التصوف علم والصوفية على هذا العلم يقومون ، والمعلوم أن العلم نور، ونور الله لايهدى للعاصين، من ثم عرفوا التصوف على هذه الناحية العلمية ، وهى امتلاء قلب العبد بنور الله ، واحلال عين اللذة بحيث تذوب فى معرفة الله — سبحانه وتعالى — ٠

بيد أن الصوفى الحق لايقف عند حد الرسوم والأشكال انه دائما يسترسل نفسه مع ربه حتى لاتكون الا حيث أمره، ولذلك عرفوا التصوف بأنه : " التبرى عمن دونه ، والتخلى عمن سواه" (٢) ولايمكن الصوفى أهواءه من نفسه ، انه يتسلح بالعلم فى مواجهة الجهل ويتسلح بالمعرفة حتى يكون قديرا على ترويض نفسه ، وكبح شهواته ٠

وليس من شأن القادر على العلم والمعرفة التخلى عنه والا كان مذموما ، من ثم رأينا الصوفية يجاهدون فى سبيل

(١) الجامع الأزهر / بيان للناس ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ مطبعة جامع الأزهر الشريف ١٩٩٤م ٠

(٢) نفحات الانس ص ١١٦ نقلا عن : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ترجمة د / أبو العلا عفيفى ص ٣٥ ٠

تحصيل العلم ، وتعليمه بعد تعلمه ، واتقانه ، وكانت لهم سياحات كثيرة فى طول البلاد وعرضها ، طلبا لارضاء الحق الذى أمر بارساء قواعد العلم والتعريف به والانتقال معه الى العمل ٠

٥ — " التصوف هو الصبر تحت مجارى الأقدار ، والتعلم على يد الملك الجبار ، وقطع البوادى والقفار " (١) والملاحظ أن هذا التعريف جمع بين العلم اللَّدُنِّى حيث يتم تلقيه على الأنوار الالهية ، بحيث يسترشد به الصوفى فيجد من نفسه صبرا على المكاره ، وحبسا للنفس عن الشكوى ٠

كما يدرك فى داخله عرفانا ، ويرى أنوارا هى فى جملتها مما مَنَّ الله عليه به ، وكانت نتيجتها استمرار سياحته فى الأرض ، ومداومة طاعته لله ، ومزيد التعرف على طرق العلم والمعرفة التى توصل إلى معرفة الله أنها غايته المثلى ، وقد سلك لها طرقا عديدة حيث أخذ بالأسباب وتعلق برب الأرباب ٠

---

(١) الدكتور / قاسم غنى / تاريخ التصوف فى الاسلام ص ٢٨ ٠

والصوفى يعيش حياته الدنيوية بعقله النورانى ، ومعرفته الكاملة بالله تعالى سواء حصلت له عن طريق المعرفة الكسبية التى تمثل حالة دنيا فى معارف الصوفى ومراحله الفكرية ، أو حصلت له عن طريق الكشف الالهى والالهام الربانى ، انه يعتبر حياته مرحلة يسترجع فيها علاقته بالله على الدوام فلا يفكر ولو مرة فى قطع طريق المعرفة أو الركون الى الغيب المجهول ، انه يؤمن به كغيب ويسلم به كأمر الهى ، ولكنه يبذل جهده ، حتى يكون على درجة من العلم تجعل عمله فى حدود علمه ، لأنه متى صحّ العلم وسلم العمل فقد نجا صاحبهما ، ولذا يقول العلامة ابن خلدون : " انفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب المقتدون بالسلف الصالح فى أعمالهم الباطنة والظاهرة وسموا بالصوفية " (١)

ولا يغربن عن ذى بال أن علماء الصوفية كانوا من أكثر الناس انقطاعا للعلم،واخلاصا له،والتزاما بآدابه حتى وجدنا فيهم المحدّث ، والأصولى ، والفقيه ، والمفسر ، والمتكلم ، بينما لم نسمع أن أحدهم كان فيلسوفا رغم كثرتهم ، أو كان داعيا لعلم

(١) الامام ابن خلدون / شفاء السائل ص ١٠

النجوم أو الطلاسم ، بل كانوا على العكس من ذلك تماما ، كانوا أهل علم ومعرفة وخوف من الله ، بل كانوا يستترون من الكرامات التي تقع لهم كما تستتر العذراء في خدرها ، والمرأة من حيضها ، اذاً دعوى أن الصوفية لم يكونوا علماء انما هي تنطبق على المتصوفة المتفلسفة على أحسن تقدير .

وآية ذلك أن أبا محمد الراسبي سئل عن الصوفي الحق والتصوف الصحيح فأجاب بأنه لا يكون الصوفي صوفيا على وجه الحقيقة ، " حتى لا يقله أرض ولا يظله سماء ، ولا يكون له قبول عند الخلق ، ويكون مرجعه في كل الأحوال إلى الحق تعالى " (١).

على أن ما يمكن الالتفات إليه هو أن الصوفية كانوا من أهل العلم والمعرفة وان رمت دليلا على ما ندعيه فهاك أدلة :

١ — علماء التفسير الاشاري :

هم أولئك الذين يقومون بتأويل " القرآن بغير ظاهره لاشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد " (٢) على أن هذا التعريف الاشاري لا يدخل فيه

---

(١) جامي / نفحات الانس ص ٣٠٤

(٢) الشيخ / محمد عبد العظيم الزرقاني / مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٧٨ ط عيسى الحلبي .

تفسير الملاحدة الباطنية الذين يؤكدون على أن الباطن وحده هو المراد بحيث تكون أحكام النافين للتفسير الاشارى منصبة على أولئك الباطنيين الذين يوهمون بأن القرآن له ظاهر وباطن ، وأن النصوص ليست مرادة على ظاهرها وانتهوا بذلك إلى نفى الشريعة .

ولذلك وجدنا الإمام التفتازانى يؤكد على هذا المعنى وأن ما يذهب " اليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك ففيها اشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الايمان ومحض العرفان ، ... اذاً الصوفية لايمنعون ارادة الظاهر ، بل يحضون عليه ويقولون لابد منه أولاً " (1) .

ومن هذه التفاسير الصوفية تفسير الألوسى المعروف بروح المعانى وتفسير النيسابورى وكذلك تفسير أبو محمد بن عبد الله التسترى ، فان هذه التفاسير وأمثالها مما لم يذكر هو من حصيلة الفكر الصوفى ، مما يدل على أن الصوفية كانوا أهل علم وعمل على عكس المتصوفة الذين لاعناية لهم بشىء من ذلك وانما هم قوم عَدَوْا على غيرهم وانطلقوا باسمهم وماهم بهؤلاء ولا أولئك .

---

(1) المصدر السابق ص ٧٩

ربما يقال اذا كان الصوفية بهذا الشكل الذى يحاول رسمه القلم ، وأنهم " أهل فكر وعمل ودراسة وسلوك " (١) فلماذا يقف منهم أهل السنة هذا الموقف المبنى على العداء ، ويقف منهم دعاة السلفية الموقف القائم على التكفير ؟

والجواب :

أن الصوفية نوعان : صوفية قامت على الكتاب والسنة ، وأخرى استفادت من الفلاسفة حتى صاروا أشباه الفلاسفة ، وكان بين الفريقين نوع من التلازم أحيانا وآخر من الانفصال أحايين ، فاذا كان المعروف هو أن التصوف الاسلامى قد وجد " منذ الصدر الأول للاسلام حيث كان كثير من الصحابة معرضين عن الدنيا ومتاعها آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف مبالغين فى العبادة " (٢) فقد استمر هذا الحال فترة من الزمان ليست قليلة انها قرنان تقريبا .

---

(١) الدكتور / ابراهيم مدكور ، ويوسف كرم / دروس فى تاريخ الفلسفة ص ١٤٠ .

(٢) الدكتور الشهيد / محمد حسين الذهبى / التفسير والمفسرون — جـ ٢ ص ٣٣٨ ط دار الكتب الحديثة .

وهذا النوع من التصوف هو الذى نال القبول من كافة الأوساط العلمية والدينية وسمى التصوف الحق فى مقابلة التصوف الباطل ، كما سمى بالتصوف السُّنّى فى مقابلة التصوف الفلسفى ، وسمى التصوف الذى يجب أن يمارس فى مقابلة ذلك الذى عرف بأنه يجب أن يُهجَرْ.

من ثم لم يكن بدعا أن ترى صوفية على الحق ، ومتصوفة استفادوا من الفلاسفة وأخذوا من الفلسفة بالحظ الأوفى ، بل كان بعضهم يقف بمبادىء الفلسفة أعلى من قواعد الشريعة مما حدا بجمهور أهل السنة والجماعة بالنظر فى مؤلفاتهم فلما انكشفت لهم وبان أنها لا تتفق مع مبادىء الشريعة الاسلامية كان لهم منها موقف آخر .

تجلى هذا الموقف فى الثورة التى أعلنها " جمهور أهل السنة وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد ، والتقشف وتربية النفس واصلاحها ، ومازال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع عشر " (١)

من ثم يمكن اعتبار الصوفية من أهل التفسير وبخاصة اذا نظرنا إلى صوفية الكتاب والسنة وليس إلى صوفية الفلسفة أو الباطنية على

(١) المصدر السابق ص ٣٣٩ .

ما يظن كما قيل أن التفسير الاشارى ليس " بالأمر الجديد فى ابراز معانى القرآن الكريم بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم — أشار اليه القرآن ونبه عليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعرفه الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا به " (١) .

وليس التفسير وحده مجال علمهم بل وجدنا منهم علماء بالحديث الشريف دراية ورواية ، فمثلا الحكيم الترمذى ذلك العالم المحدث كان من رجال الصوفية بل والإمام السخاوى صاحب " المقاصد الحسنة " فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة هو نفسه صوفى ، وفى ذات الوقت محدث ، كما أن الامام المناوى صاحب " فيض القدير شرح الجامع الصغير " من رجال الصوفية الكبار ، ومثل هؤلاء كثيرون.

بل ان الشيخ عبد القادر الجيلانى ، والكتانى ، والجنيد ، والخراز ، وغيرهم كانت لهم شذرات علمية ، ودراسات دينية حول السنة النبوية المطهرة بحيث يمكن القول بأن الصوفية جميعا من المحدثين ، ومن يحاول الرجوع الى المصادر المعتمدة سيرى ذلك بوضوح .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٣ .

بل ان بعضهم كان من أصحاب الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه وفى ذات الوقت كان من زعماء الصوفية ٠

فمثلا : الشيخ عبد الرزاق الصنعانى ، كان من أصحاب الامام أحمد ، ويروى أنه كان محبا له إلى حد كبير " قال أحمد ابن منصور الرمادى : سمعت عبد الرزاق وذكر أحمد بن حنبل فدمعت عيناه ، فقال بلغنى أن نفقته قد نفذت ، فأخذت بيده فأقمته خلف هذا الباب وأشار الى بابه ، وما معى ومعه أحد " (١) ٠

فهذا يدل على العلاقة الوطيدة التى كانت تجمع بين الامام أحمد والامام عبد الرزاق الصنعانى ، فاما أن نعتبرهما معا صوفية أو نعتبرهما معا سلفية ، أو نعتبرهما معا صوفية سلفية وهو الذى يمكن قبوله ٠

اذًا كان الصوفية أهل علم وتفسير وحديث ، بل وكانوا فقهاء على المذاهب الفقهية المشهورة ، وحتى لا أطيل فى المسألة فسأحاول كبح جماح القلم حتى لا يزيد البحث عن المطلوب ولطالب المزيد أن يرجع إلى المصادر المعتمدة ففيها علم كثير لمن طلبه ٠

---

(١) الامام عبد الرحمن العليمى / المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الامام أحمد جـ ١ ص ٧٧ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة المدنى ٠

التقسيم الثاني : تعريف التصوف باعتبار السلوك :

عُرِّف التصوف باعتباره حالة سلوكية تمثل تصرفا معينا بعدة تعريفات توشك أن تتقارب في المعنى من هذه التعريفات ما يلي :

(١) التصوف " طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح " (١) وهذا التعريف يمثل المنهج الحياتي الذي يمارسه الصوفية أنفسهم حين يخطون لأنفسهم نمطا معينا من السلوك يقوم على التقشف والتحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ثم يجبر نفسه على السير في هذا الطريق طيلة عمره .

وهذا التعريف بجانب ماذكر فان التصوف على هذا المعنى لايمكن فهمه الا من خلال مراقبة سلوك الصوفية أنفسهم ، اذ الصوفي لايحيد عن هذا الطريق وغايته من السير فيه محددة سلفا ، انها تزكية النفس ، ومحاولة التسامي بالروح من خلال التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل .

ولا شك أن التقشف – في حد ذاته – وسيلة لتربية النفس ، وتهذيب السلوك ، وتنمية المشاعر ، ويكون هذا الأثر قويا كلما كانت هناك أسباب النعمة بادية ، ويميل صاحبها الى تهذيب

---

(١) المعجم الوجيز – مادة ص و ف ص ٣٧٤

النفس ، وتنمية القوى الروحية فى داخله .

غير أن هذا التعريف ينطبق على التصوف الاسلامى والرياضات الأخرى التى قوامها الزهد ، ولحمتها التقشف ، والسيطرة على القوى الارادية فى النفس الانسانية ، كما أنه قصد التعريف بالطريقة فى التصوف وليس مفهوم التصوف ، من ثم يمكن اعتباره من التعاريف الجامعة غير المانعة على ما يقوله المناطقة .

(٢) التصوف هو " استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده "(١) ، " وترك كل حظ للنفس" (٢) من حيث التخلى عن ميولها والرغبات الدنيئة ، وتجاوز الشهوات العارمة التى متى تحكمت فى صاحبها قادته إلى معصية الله تعالى ، وصرفت همته عن الحق فلا يتعرف عليه ، ولا يهتدى إليه ولا يقوم به ، وليس هذا شأن التصوف الاسلامى .

(٣) التصوف : " ألا تملك شيئا ، ولا يملكك شىء" (٣) وهذا التعريف السلوكى انما يمثل وجهة نظر أصحابها وهم الذين

---

(١) الامام الطوسى – اللمع ص ٤٥ .
(٢) الامام الكلاباذى / التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٥
(٣) الامام الهجويرى : كشف المحجوب ص ٢٣٣ .

يلتزمونه وفقا لمفهوم خاص بهم لكن ليس من الممكن اعتباره قاعدة عامة بقدر ما هى اشارات وتعبيرات ورموز عن سلوك أصحابها ولذلك نسب هذا التعريف إلى " سمنون المحب" (١) .

من ثم كانت نظرة أصحاب هذا التعريف القائمة بأنه لايملك شيئا ولا يملكه شيء نظرة مستقلة،ورؤية محددة فى عبادة الله رب العالمين ، وهذا الجانب الذاتى النفسى كان له دور كبير فى حياة الصوفية أنفسهم ، وتاريخهم ملئ بهذا الذى سلف ذكره .

وربما فهم بعض الناس أن هذا التعريف للتصوف يمثل الجانب العملى فيه والحق خلافه ، لأن هذا التعريف وأمثاله لاتمثل الا الجانبين معا أما لماذا ؟ فلأن التعريف من حيث هو تعريف يمثل فهما نظريا ، ومن حيث قابليته للتطبيق يمثل سلوكا عمليا ، ولما كان السلوك العملى متعدد الجهات فقد جاء التصوف النظرى والعملى على ناحية واحدة فيه .

(٤) التصوف : " قلة الطعام والسكون إلى الله ، والفرار من الناس" (٢) وهذا التعريف يمثل مجموعة من السلوكيات التى تؤدى

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٨ ط الحلبى .

(٢) تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٦٤ نقلا عن التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٠ .

فى النهاية الى قيمة ايجابية ، ذلك أن كثرة الطعام ربما كانت غرضا لذوى البطون ، بينما قلته غرضا لذوى النفوس العالية والهمم الكريمة .

بيد أن الاقلال من الطعام لدى الصوفية ربما كان من فهمهم لسيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — باعتبار أن المعدة بيت الداء ، وأن متع الآخرة تفوق ملذات الدنيا وأن تاركها طواعية لله فى الدنيا سوف يظفر بها وأعلى عند ربه فى الآخرة .

أضف الى ذلك أن الصوفى يعنى بالدرجة الأولى تهذيب النفس وكبح شهواتها ، وتقييد الرغبات ولا يكون ذلك الا باقلال الطعام شريطة أن يكون حلالا وفى حلال ، ثم اللجوء الى الله وحده فى كل شىء ، ولعل فهمه قد استقى من قوله — صلى الله عليه وسلم — لسيدنا سعد " أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة " .

كما أن الصوفى لايلوذ الا بربه ، ولايلجأ إلا إليه ، انه يرى الله فى كل شىء فإلى أين يهرب منه ، انه يرى كل شىء فى الكون ممثلا للوجود الإلهى الأسمى ، ومن ثم فهو يراه ماثلا أمامه جل علاه لايمكنه التخفى منه أو التخلص عن مراقبته ، بل انه يهرب من الخلق إلى الحق ، لأن التصوف يركز على التجاء الخلق الى الحق

وليس التجاء الخلق الى بعضهم .

(٥) التصوف هو : " الانقياد للحق" (١) وان كان التصوف صورة عملية وتنمية لسلوك ارادى يمارسه المرء بنفسه فان أرقى أنواع السلوك أن يكون موجها نحو ارادة عليا ، وقدرة سامية ، ووجود أعلى من كافة الوجودات ، بحيث يكون له تمام السيطرة وكافة الاستقلال فى الكون كله ، وليس ذلك الا الحق جل علاه ، ومن ثم فالتصوف هو الانقياد لله تعالى ، والمتصوف منقاد لهذا الحق على كافة أوامره ونواهيه .

والتصوف الحق سمة تجعل صاحبها يسيطر على غرائزه وشهواته ويطوى هامته لربه ، ويميل إلى المجاهدة فى سبيل بلوغ غايته القصوى وهى محاولة تمثل الأوامر الإلهية ، والإبتعاد عن النواهى حتى يكون بين الخلائق كالحق بين أنواع الباطل ، انه يحاول تحقيق الحق فى ذاته ، ليخلص له وجه الحق وحده ، ان همه الأول وغرضه السامى ، أن ينقاد للحق بل ويتحقق مع الحق .

---

(١) الامام القشيرى / الرسالة القشيرية ص ١٤٩

وربما كان هذا الداعى لمثل هذه التعريفات السلوكية ماورد فى الآثار من مثل قول الحق العلام فيما يرويه الرسول الكريم عن ربه " عبدى أطعنى تكن عبدا ربانيا تقول للشىء كن فيكون" ومن قوله جل علاه " ومايزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به " .

على أنا نقول ان هذا الجانب من التعريف للتصوف قد حدا بالكثيرين إلى اعتبار التصوف حالة وجدانية ربما بلغت بأصحابها مبلغ الهوس والاغماء حتى عبروا عن خيالهم كما كان خرافة بغفل ، وليس الأمر كذلك طالما قد جاء الحديث الشريف به من تهيئة الله لبعض عباده بما يرفع قدرهم ويكشف أذى الناس عنهم ، ولذا نسب إلى الجنيد قوله " التصوف أن يختصك الله بالصفاء ، فمن اصطفى من كل ماسوى الله فهو الصوفى " (١) ، وإلى هذا الحد نكتفى بالحديث عن التقسيم الثانى للتصوف آملين أن يحفز الآخرون هممهم ، ويحفزوا قدراتهم ، ويشمروا عن سواعد الجد فيهم ، حتى يحرروا للناس مزيدا من المباحث حول هذا الجانب الذى ماتزال الدراسات حوله قليلة .

---

(١) نيكولسون — فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٣

التقسيم الثالث : تعريف التصوف باعتباره حالة وجدانية :

عُرّف التصوف على الناحيــة السلوكية العضوية وكذلك عرف على الناحية الالهامية الوجدانية ، ولسنا نقصد أن التصوف من حيـث هو حالة وجدانية ولكنا نقصد أثره على جوانح الصوفى ، ولذلــك وجدنا هذه الناحية تحظى بالعديد من التعريفات .

لكن بعض هذه التعريفات يلاحظ فيها تغليب الوجدان علــى القلب ، وبعضها الآخر روعى فيه تغليب الحالة الماثلة على القواعد الثابتة ، وبعض أخير لوحظ فيه التركيز على الجانب الخفــى فــى الانسان على وجه الاجمال من غير تفصيل فى المسألة ، من هــذه التعريفات ما يلى :

(١) التصوف هو : " تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقــة الأخلاق الطبيعية ، واخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدعاوى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واستعمال ما هو أولى على السرمدية ، والنصح لجميع الأمــة ، والوفاء لله تعالى على الحقيقة ، واتباع رسوله -صلى الله عليــه وسلم- فى الشريعة " (١) .

---

(١) الامام الشريف الجرجانى - التعريفات ص ٥٢ ط الحلبى .

ومع أن التعريف طويل اذا قورن بغيره لكنه فى ذات الوقت جمع بين مسائل عديدة منها : الاستمرار فى الطاعة والمداومة على مخاطبة الحق جل علاه ، والسيطرة على الغرائز والشهوات، وكبح السعار الذى يختفى تحت غطاء الصفات البشرية وتقديم كافة أنواع النصح للنفس والأمة مع الوفاء فى كل ما يقوم به للجانب الوجدانى الذى تحدث عنه الصوفية باسم الحقيقة .

ومما لا شك فيه أن الحقيقة التى تعرض لها الصوفية القائمة على أنها قسيم الشريعة تمثل ناحية ايمانية متى اعتبرنا العقيدة والشريعة هما المكون الأصلى للدين ، وبالتالى فلا زيف فيها ، ولا اتهام يلحق بها ، وكم كان هو سلوك الرسول -صلى الله عليه وسلم - وسمة أصحابه وكان التزام أمر الشريعة هو المعول عليه عندهم - أما لماذا ؟

فلأن علم الحقيقة باعتباره ناحية تمارس من الوجدان ، وعلم الشريعة الذى يمثل الجانب العملى فى الدين الاسلامى نفسه طبقا لما هو المشهور من تقسيم الدين الإسلامى إلى قسمين كل منهما يكمل الآخر مطلقا ، وهما :

* القسم الأول : العقيدة فهي الجانب " النظري في الدين وهي جوهره وأساسه ، وهي القاسم المشترك بين كل ما نزل من السماء من أديان وهي عنصر الوحدة في هذه الأديان " (١) .

اذًا هذا الجانب النظري في الدين هو المقدور لكل ذوي العقول من غير بحث أو مناقشة لمستوى تلك العقول ، أما لماذا ؟ .

فلأن العقيدة الاسلامية تناسب كافة العقول في مستوياتها بحيث لا تعلو على عقل بعينه انها جانب نظري ليس إلا وإن كان ينعقد في القلب على أكمل وجه ، من ثم قالوا أن العقيدة في المعاني " هي جمع أطراف الرأي بعضها إلى بعض ما دامت من جهة واحدة ، وفي جهة واحدة ، والتثبيت عليها مع التأكيد ، حتى تصير بالنسبة لصاحبها أمرا معقودا يصعب عليه الانفكاك منه أو التخلي عنه " (٢) .

كما تمثل العقيدة الالهية مع الشمول " الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى بما يجب له من صفات الجلال والكمال والاكرام

---

(١) د / محمود محمد مزروعة — دراسات في الملل والنحل جـ ١ صـ ٢١ ، ٢٢ مطبعة العاصمة ١٩٧١م .

(٢) د / محمد حسيني موسى الغزالي — حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان صـ ٦٢ — مطبعة الهدى ١٩٩٦م .

وما يستتبع ذلك من الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، وهذه العقيدة الحقة بلغ بها المرسلون ، وجاء بها النبيون" (١) .

وهذه العقيدة الحقة ورد بها النقل المنزل فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فمن مجيئها فى القرآن الكريم قوله تعالى : " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " (٢) .

وقال تعالى : " قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (٣) .

وقوله تعالى " قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ "(٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣ . (٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٥
(٣) سورة آل عمران آية ٨٤ (٤) سورة البقرة الآية رقم ١٣٦

ومن مجيئها فى السنة النبوية المطهرة -صلى الله عليه وسلم -
"الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١) ، وبالتالى فهذا الجانب النظرى عليه عماد الدين وأصله وليس لأحد التدخل فيه ولا سلطان عليه ان حاول صاحبه أن يفعل عكس ما يظنه الناس وبالتالى فقد تأكد أن هذا الجانب يعتصم بداخل صاحبه ويمثل ملكة القلب التى صنعها الله وحده ، ولم يجعل لأحد من سلطان عليها ، والصوفية يتمسكون بهذه المفاهيم الى أبعد مدى .

* القسم الثانى : الشريعة :

وهى الجانب العملى من الدين الاسلامى أنها : " ماشرع الله تعالى لعباده ، والظاهر المستقيم من المذاهب" (٢) انها ماشرع " الله لعباده من الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء -صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم -" (٣) .

---

(١) متفق عليه ويعرف بحديث جبريل عليه السلام .
(٢) القاموس المحيط ج ٤ مادة شرع ص ٤٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
(٣) الامام/ محمد على التهانوى / كشاف اصطلاحات الفنون مادة شريعة - المجلد الأول ص ٨٣٥ .

انها اقامة الشعائر التى افترضها الله علينا وبيّنها لنا الحديث الشريف فى قوله —صلى الله عليه وسلم— " بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا "(١).

وهذه الشريعة كما ورد بها الحديث فقد سبق ورودها فى القرآن الكريم على انحاء شتى ، وفى كل منها يأتى حديث عن جزء من أجزاء الشريعة بحيث اذا جمعت تلك الأجزاء بان أمرها على وجه الجمال والكمال ، متى روعى فى تطبيقها وأنها " تختلف فى دين الله تعالى ، من نبى الى نبى ، ومن أمة الى أمة " (٢) .

انها فى كل حالاتها تمثل " ماشرعه الله تعالى لعباده على ألسنة رسله ليصح به صدق ايمانهم وتسلم لهم حياتهم وتخلص لهم آخرتهم " (٣) ولذلك كانت العمليات فى الدين ممثلة للشريعة فى مقابلة العقيدة التى تمثل الأمور النظرية فى ذات الدين الالهى على ما سلف بيانه .

---

(١) د / حمزة النشرتى وآخرون سلسلة الفقه على المذاهب الأربعة المجلد الأول ص ٢٦ طبعة دار الغد العربى بالقاهرة .

(٢)

(٣)

والملاحظ أن الشريعة المتمثلة في العبادات والمعاملات والأخلاق تقوم كلها على العمل وحده ، وليس على النظر من ثم رأينا احتضان الشريعة للعمل بكافة أنواعه سواء كان من أعمال اللسان أو الجوارح والأبدان ، ومما لاريب فيه أن الحديث الشريف قد جاء كاشفا لها ، محددا قواعدها وأصولها من ذلك قوله — صلى الله عليه وسلم — : " الاسلام ان تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آخر الحديث الشريف ، فاذا لاحظنا أجزاءه وأنها تقع باللسان والقلب والوجدان رأينا أن ميدانها عملى كله سواء كان باللسان المتمكن من النطق ، أو القلب المختزن لهذه القواعد والمعبر عنها بالنسبة لمن فقد النطق أو منع منه لأسباب خارجة عن ارادته .

من ثم بان لنا أن الشهادة عمل لسانى لدى المتمكن من النطق ، وقلبى بالنسبة لمن فقد النطق ، أو منع منه لأسباب خارجة عن ارادته ، لكنها عمل لسانى أو قلبى أو هما معا .

ثم اذا نظرنا الى ما بعدها وجدنا : تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ،

وجدنا أنها جميعا أعمال بدنية فى ظاهرها وقلبية باعتبار الأسس التى انطلقت منها ، فلو لم تكن هناك عقيدة سليمة لما وقعت عبادة أصلا ، ولذا قلنا ان كل عمل بدنى يسبقه عمل قلبى .

اذاً تعريف الجرجانى للتصوف جمع الحقيقة والشريعة وكشف علم المعرفة بالله ، وعلم عبادة الله تعالى وهما غاية الصوفى وقاعدة التصوف أنهما أمل الصوفى وأنشودة فؤاده .

اذاً التصوف الاسلامى لم يدع لغير العلم بالله تعالى على النحو الذى يتناسب مع ذات البارى — جل علاه — ثم انه لم يطالب الا بعبادته وحده ، عبادة تليق به جل علاه على ماشرعه فى كتبه على على ألسنة رسله وجاءت مؤلفات الصوفية حاملة لهذا المعنى الذى سلف بيانه .

أما مؤلفات المتصوفة فلا اعتداد بها ، انها مجرد أحلام وأمان ، وأصحابها مجرد رموز انتسبت الى التصوف وليسوا صوفية ولذا يمكن القول : بأن المؤلفات الصوفية التى يصح النظر فيها بعين الاعتبار هى التى تلتزم القرآن الكريم من غير لى لآياته الكريمة ، والسنة النبوية الصحيحة وهى التى عنى بها علماء الصوفية

لاتلك التى عبدها أشباح المتصوفة ، والفرق بين العالم والمتعالم كبير ، كما أن الفرق بين الصوفية ، وأشباح المتصوفة كبير جدا ٠

على أن تعريف الشريف الجرجانى قد جمع بين الشريعة والحقيقة واعتبر التصوف مرادفا للدين ولذلك وجدناه ينقل تعريفات أُخَرَ للتصوف وكلها تعبر عن ناحية سلوكية أو وجدانية ، فمنها على سبيل المثال ما يلى :

أ ـ التصوف هو ترك الاختيار ٠

ب ـ التصوف بذل المجهود ، والانس بالمعبود ٠

جـ ـ التصوف حفظ حواسك من مراعاة أنفاسك ٠

د ـ التصوف هو الاعراض عن الاعتراض ٠

هـ ـ التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التفرغ عن الدنيا ٠

و ـ التصوف الصبر تحت الأمر والنهى ٠

ز ـ التصوف خدمة التشرف ، وترك التكلف ، واستعمال التظرف ٠

ح ـ التصوف الأخذ بالحقائق ، والكلام بالدقائق ، والاياس مما فى أيدى الخلائق (١) ٠

---

(١) السيد الشريف الجرجانى / التعريفات / ص ٥٢ ط الحلبى ٠

فاذا ما راجعنا هذه التعريفات بلغ لدينا أن التصوف عند الصوفية يمثل حالة وجدانية وحقيقة ذاتية فى آن واحد ، انه تمسك بالظاهر وعدم البحث عن السرائر على أن يكون ذلك كله فى حسب طاعة الله وترك معاصيه .

وقد أثر هذا المعنى عن كثير من الصوفية أنفسهم ، باعتباره حالة وجدانية ، من ذلك ماروى ان أبابكر الشبلى قال : " التصوف ضبط القوى ومراعاة الأنفاس " (١) .

ولما كان الصوفية لاراحة لهم الا بالله ، ولايتكلون الا عليه كان ذلك بمثابة صمام الأمان لهم ولذا سئل أبو الحسين الحصرى عن التصوف فقال " الصوفى من لاراحة له ولا سلوى فى الدنيا الا بالله ومن سلّم جميع أمره الى ربه الذى يعلم ما قدره له ، فماذا بعد الحق الا الضلال،اذا وجد الصوفى ربه لم ينظر بعد ذلك الى شىء سواه" (٢) .

وحيث أن التصوف يمثل حالة تجوس خلال مشاعر الصوفى فقد عرّف بعضهم التصوف بقوله " التصوف قطع العلائق ، ورفض الخلائق

(١) نيكولسون فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٨
(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

واتصال الحقائق" (١) ويحسن بنا أن نختم هذا الجانب بتعريف لأبى سعيد ابن أبى الخير حينما سألوه عن التصوف ، فأجاب بأن التصوف هو : " أن تتخلى عن كل ما فى دماغك ، وتجود بكل ما فى يدك ، وألا تجزع من شىء أصابك " (٢) .

من ثم يمكن القول بأن التصوف فى هذا الجانب يمثل حالة الصوفى حين يعايش التصوف ويكون الثانى سمة للأول ، وحيث يمكن الحكم فى المسألة بأنها خاضعة لشىء محدد هو التمسك بما عند الله ، والتخلى عما فى أيدى الناس ، وربما سئل الجنيد عن كيفية الوصول الى رضا الله تعالى ، والانقطاع له ، فكان جوابه " بتوبة تزيل الاصرار ، وخوف يزيل التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، واهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل (٣) ، ومن هنا يحسن الانتقال الى التقسيم الرابع للتصوف فما هو ؟

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٤١ .
(٣) الامام / أحمد بن عجيبة الحسنى – الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٤٦ .

التقسيم الرابع : تعريف التصوف باعتباره أخلاقا ايجابية :

أجل : التصوف الحق يقوم على الأخلاق الحميدة ، التى عمادها النقل المنزل ، من ثم لانغالى اذا قلنا أن الأخلاق الحسنة تمثل وجها وحيدا لابديل عنه للتصوف الاسلامى الحق ، القائم على هدى القرآن الكريم وسنة النبى المصطفى الأمين — صلى الله عليه وسلم — .

وهذا الهدى يقوم على اخلاص التوحيد لله ، واخلاص العبادة له جل علاه ، والسير فى طريق القيم الأخلاقية النبيلة ابتغاء مرضاة الله ، ولعل هذا يمثله سيدنا مصعب بن عمير ، ذلك الذى تجرد من مظاهره وقنع بما تيسر من القوت ، ورضى بما يستر العورة من الثياب ، ولقد رآه الرسول — صلى الله عليه وسلم — على حاله وهو يلبس جلد كبش يستر به عورته ، وقديدا من الخبز يرد به غائلة معدته .

رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مصعبا وهو على تلك الحال فبكى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : " أنظروا الى هذا الذى نور الله قلبه ، فقد رأيته بمكة بين أبويه يختال فى

حلة قد اشتريت له ، أو اشتراها بمائتي درهم ، فما زال به حب الله ورسوله حتى صيره الى ماترون " (١) من لباس خشن ، ومطعم خشن ، مع قلب يشع أنوارا .

والأخلاق الايجابية لدى الصوفية تمثل مسألة كبرى ، بل هي عندهم أمر شرعي ، ان أبسط الأخلاق عندهم هو التجرد ، والتجرد قد أقرّ النبي —صلى الله عليه وسلم — الصحابة عليه ، فاذا وقف الصوفية هذا الموقف وأعنى به التجرد الذي كان يمارسه الصحابة رضوان الله عليهم ، وأقرهم عليه رسول الله فلا يكون فعل الصوفية محدثا تحكمه البدعة ، بل هو أمر شرعي ولو كان بدعة ما أقر الرسول الصحابة عليه .

بل كيف يكون بدعة ومحدثا " ومدار الشريعة عليه ، اذ هو لبها ، وصفاؤها ، اذ المقصود به تصفية البواطن حتى يكون العبد على حالة يرضاها الله ورسوله ظاهرا وباطنا " (٢) على أنا نذكر من هذه التعريفات أقربها الى تصوير الأخلاق الايجابية عند الصوفية

---

(١) رواه البيهقي في السنن ، ورواه الترمذي في كتاب الزهد نقلا عن الفتوحات الالهية ص ٤٨ .
(٢) ابن عجيبة — الفتوحات الالهية ص ٥٢ .

على النحو التالى :

(١) التصوف " كله آداب لكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب" (١) من ثم فالتصوف أخلاق تراعى ، وآداب تلتزم ، فى كل لحظة وكل طرفة عين " وكل حركة وسكنة تنعكس على نفس صاحبها فتطبعها بطابعها الأخلاقى العام ، بحيث يصبح صفاء فى نفسه ، وعامل صفاء فيمن يحيط به" (٢) ٠

ومما يجدر الحديث عنه هو أن التصوف يمثل حالة أخلاقية على ناحية الايجاب ، انه التزام سلوكى ، ومعيار خلقى ، لا باعتباره أصلا للأخلاق أو مصدرا، وانما باعتباره موضوعا تجرى فيه الأخلاق ويحكم عليها من خلال ترتيبها والسير فيها، والفرق بينهما ظاهر ٠

(٢) التصوف هو "الانقياد الى الحق" (٣) الذى أمر به الله تعالى والتزام الآداب الاسلامية جملة على النحو الذى يرضى الله — جل علاه — من انقياد للحق ، وتلمس لجوانب الخير فى محاولة للوصول

---

(١) الامام / السهروردى — عوارف المعارف ص ٤١ ٠
(٢) د / عبد الفتاح عبد الله بركه / فى التصوف والأخلاق ص ٥٥ ، ط عالم الفكر ٣ / ١٩٨٢م ٠
(٣) الامام القشيرى / الرسالة القشيرية ص ٥٥٥

الى تهذيب النفس ، والسيطرة على العواطف ، وغلبة العزيمة على الرّخص بحيث ينتهى المطاف بالسير فى الاتجاه الالهى الى أبعد مدى ، انقيادا لله واتباعا لرسوله سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم .

(٣) التصوف هو " الصبر تحت الأمر والنهى " (١) ولا شك أن الصبر خلق ايجابى بل أى خلق ذلك الذى يجعل صاحبه يوفى أجره عند ربه بغير حساب ، قال تعالى : " إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " (٢) ولا شك أن الصبر المحمود يجعل صاحبه طوع ارادة ربه ، انه صبر محمود قصد به صاحبه بلوغ غاية عند ربه ، انها سامية ولا يتمكن منها الا من صوفى وصفا ، ولذلك كان التصوف خلقا راقيا يقوم على الصبر تحت جناح الأمر الالهى بحيث ينطوى تحته على أكمل وجه ، كما يقف تحت النهى الالهى فلا يقترب منه أبدا .

ولو أن الصبر تحت النهى يمثل أخلاقا سلبية ، الا أنها فى ذات الوقت ايجابية ، لما هو معروف من أن سلب الشىء فيه اثبات ضده ، فاذا سلب النهى الالهى من نفس الصوفى وصار لا يلتفت اليه ولا يفكر فيه فقد جاوز حدود غيره ، وتجاوز مواطن سبّق آخرين حتى

---

(١) المصدر السابق ص٥٥ (٢) سورة الزمر الآية رقم ١٠

انه ليصير مشغولا بالأمر الالهى فى جانبه الايجابى ومشغولا بالأمر الالهى فى جانبه القائم على النهى ·

والصوفى الحق تراه صابرا ، لا يحاول الدخول فى تجربة مع المخالفة مهما كانت صغيرة ، فقد ثبت قيامه بالطاعات على أوسع نطاق ، وثبّت أقدامه على أرض الطاعة أيما تثبيت ولا يتمكن من القيام بهذه المهمة الا الصوفية القائمون بالحق ويحاولون ارضاء الحق ، انهم أوقفوا أنفسهم تحت طاعة الله فكانوا أصحاب أخلاق حميدة على النحو الذى أمر به الله ·

ولا يغيبن عن منصف أن المراد هو صوفية الحق الذين التزموا القرآن وتمسكوا بالسنة النبوية المطهرة ، أما غيرهم فلا اعتداد به ولا التفات اليه ، بل على أولى الأمر اعلانهم التوبة حتى تتم لهم الاستتابة على الوجه الشرعى والا فقتالهم صار أمرا محمودا ·

ولذلك كانت لهم قيود على الشيوخ والمريدين ، وكانت لهم تعليمات محددة فى أهل الكرامات ، من ذلك ما سمع عن " طيفور البسطامى " يقول : " سمعت موسى بن عيسى يقول قال لى أبى ، قال أبو يزيد : لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه

عند الأمر والنهى وحفظ الحدود " (١) ٠

على أن هذا المنهج الفحصى الدقيق شغل أذهان الصوفية ولولا معونة الله المثلة فى الذكر الحكيم والحديث المبين لغرقت سفينة الصوفية فى بحار الشطحات ، وتاهت فى محيطات المواجيد وتوزيع الأدوار ولاعاصم الا الرحيم القهار ، على أن القوم لم يكونوا بلهاء بل كانوا أصحاب علم وأخلاق ، وآية ذلك ماروى عن أبى حفص "قال : من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خاطره فلا تعدوه فى ديوان الرجال" (٢) ٠

(٤) " التصوف هو الحرية والكرم ، وترك التكلف والسخاء" (٣) وقال القصاب أن التصوف " أخلاق كريمة ، ظهرت فى زمان كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام " (٤) ٠

وآية ذلك أنك ترى الغالبية ممن يركزون على هذا الطريق ، انما يمثلون الصوفية الحقة ، ويركزون على أن التصوف خلق حسن

---

(١) الامام أبو الفرج بن الجوزى البغدادى تلبيس ابليس ص ١٧٨

(٢) أبو نعيم — الحلية ج ١٠ ص ٢٣٠ ٠

(٣) الامام الهجويرى — كشف المحجوب ص ٢٣٥ / ٢٣٦ ٠

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٥ ٠

محمود شرعا ، ومالم تكن حسنة فلا قيمة لها بل انها أعلى درجات الحسن الأخلاقي ، انها تشبّه بأخلاق الاله جل علاه ، أو هي محاولة لذلك التشبه ، وربما يقدر لها النجاح .

ولما كان الصوفية لاهَمَّ لهم الا ممارسة الرقابة على الباطن الذاتي ومباشرة مهام القيادة عليه والتوجيه له ، فقد جاءت تعبيراتهم عن التصوف على هذا النحو حاملة نفس المفاهيم الراقية من ذلك قولهم :

" ليس التصوف رسما ولا علما ، ولكنه خلق لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعلم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن نستطيع الاقبال على الأخلاق الالهية بعلم أو رسم " وانما بالاخلاص والتقوى وتكثيف العبادة الخالصة لله رب العالمين .

بل ان هذه الالماحة قد تعددت مظاهرها عند الصوفية ، وغرضهم التأكيد على أن التصوف خلق حميد ، وها هو الكتاني يقول : " التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق ، فقد زاد عليك في الصفاء" (١) ، وسواء كان القول للكتاني أو لغيره من

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٥٤ .

كبار الصوفية مثل محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه (١) ، فان الذى يعنينا هنا هو أن التصوف خلق ايجابى يصدر عن صاحبه باعتباره سلوكا حميدا ، وفعلا ايجابيا لصالح الفرد والمجتمع كله .

وعلى هذه الناحية الايجابية كثرت تعريفات التصوف ، وفى حدود الأخلاق الحميدة مارس الصوفية سلوكا منضبطا حتى أنهم قد تجاوزوا مرحلة الأشكال والرسوم الى تصفية الباطن ، والتأكيد على ممارسة الشعائر فوق كافة الحواس والمشاعر ، وفى كل الأوقات انطلاقا من مبادىء أساسية هى الالتزام بما شرع الله تعالى فى كتابه الكريم ، وسنة نبيه الأمين صلى الله عليه وسلم .

وربما تسألنى عن معيار الأخلاق الايجابية لدى الصوفية والجواب أن المعيار ثابت هو الالتزام بالنقل المنزل ، وله مظاهر متعددة ، منها مظهر الخير العام الذى يتبلور فى " فعل الخير العام ، كتديد المساعدة ، والانفاق ، وكف الأذى عن الآخرين ، ووقف عداواتهم وعداواتهم ، والدعوة الى الاصلاح العام بين

---

(١) ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب ص ٢٣٤ ، ونحن لا يعنينا من القائل بحد ذاته ، انما الأهم هو أنه واحد من الصوفية .

النـــاس .

انه محاولة القيام بالمزيد من الطاعة لله تعالى ، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم فى كل مناحى الطاعة ، بحيث يظهر هذا الفعل الايجابى أمام الجميع فى شكل حروب توقف ، ونيران تنطفئ ، وصدقات تدوم ، والسنة بذكر الله تنطلق ، وجوارح تعين عباد الله ، الى غير ذلك من المظاهر والظواهر الايجابية التى تمثل مظهر الخيـــر العام" (١) ، والصوفية على هذا الطريق يسيرون ، والتصــوف به الى هذا الخُلق ينقادون .

(ه) التصــوف " عبارة عن أخلاق ، فالاخلاق عنصر لابـــد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية ، حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف ، فاذا خلا وقت من أوقات الصوفى من هذا العنصـــــر الأخلاقى ، كان ذلك ضعفا فى سلوكه ، وخروجا عن مقتضى الطريق الصوفى الذى يلزمه ... وتلك حقيقة لا مراء فيها " .

كما أن هذه الأخلاق " ليست عملا ظاهريا فحسب تتزين بــه الجوارح ، وتتصور فيه الأعمال ، ولكنه مسألة قلبية تظهر آثارهــا

---

(١) د / محمد حسينى موسى الغزالى - غدوة المشتاق فى ربوع الأخلاق ط ٢ ص ١٩ مؤسسة الشروق للطباعة بالزقازيق ١٩٩٧

على الجوارح والأعمال ، وهذا سبب صعوبتها ومشقتها ،والداعى لاستمرار اليقظة والجهد فى معالجتها " (١) ،حتى تكون قويمة حسب ما شرع الله تعالى فى القرآن الكريم ، وأخبر رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبهذا يتبين لنا الفرق بين الصوفى والمتصوف من هذه الناحية الأخلاقية الايجابية ، اذ الصوفى يراقب نفسه فى هذه الحدود ، أما المتصوف فليس فى ذاكرته شىء من هذا بالغرض ، وان أتت عرضا فلا توجد لها قواعد ثابتة ، كما لاتمثل حقائق يمكن الانطلاق منها ، والمتصوف لايحرص عليها بالقدر المطلوب ، لأنها ليست من قواعد ، ولا من الأسس التى يعنى بها ، والصوفى على العكس من ذلك .

(٦) التصوف : " مذهب كله جد ، فلا يخلطونه بشىء من الهزل " (٢) من ثم كان التصوف طريقا سليما ، وحركة مستمرة

---

(١) الدكتور / عبد الفتاح عبد الله بركة - فى التصوف والأخلاق ص٥٨

(٢) الشريف الجرجانى - التعريفات ص ٥٢ .

للنفس والوجدان ، داخل الجسم والجوارح ، ومع توالى الأزمان انه سلوك روحانى جسمانى ، وتصوف روحانى ملائم فى حدود الآداب الشرعية ، والهزل ليس له مكان فيه ، والهازل ليس صوفيا ومن هزل وكان منتسبا الى القوم فقد هوى الى القاع ، وان تسمى بالصوفية ، أو اتسم بهم ، أو حتى انتسب اليهم .

وهذا التعريف قد كشف القناع الذى يختفى خلفه المتصوفة ودعاة التصوف ، أولئكم الذين قعدت بهم أفكارهم النظرية عن أعمالهم التكليفية ، وتشاغلوا بملاذ الجسم ، ورغبات النفس ، تحت اسم التصوف ، أو حملوا البراقع والخرق والمراقع ، وطافوا بها الأقطار والبلدان والمصاقع ، زاعمين أنهم على طريق الخير يسيرون ، والى الحق يهتدون ، ولله يطلبون ، وللرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتبعون ، وماهم بذلك من شىء " إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ " (١) .

كما انفضحت خطوات أولئك الكهان ، الذين يلبسون للناس مسوح الضأن ، يخلطون حياتهم بالهزل ، معتمدين على صبغة

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١١٦ .

الألقاب عليهم ، حيث تسبق الأسماء منهم ، وربما خلعها عليهم خصم للتصوف عنيد ، وللصوفية كاره مذم ، أو عدو للاسلام لدود ، أو صديق له منكود .

وأولئك يكتفون بالألقاب ، حيث تقع عليهم موقع التأكيد ، وتحل منهم محل القبول والرضا ، بل ربما تجاوزت ذلك كله حتى تحل منهم محل الايمان والهدى ، فاذا زادت عندهم هذه الأحوال ، أنستهم صالح الأعمال ، بل ربما دفعت بهم الغفلة الى التكاليف الشرعية فطالبوا باسقاطها ، واستباحة المنكرات والتزلف لها ، وهم فى كل ما يفعلون خصوم أنفسهم ، أعداء ذواتهم ، وليس على التصوف يحسبون ، ولا للصوفية ينسبون ، ولا للحق يعرفون ويكفى ما هم فيه ساقطون .

التقسيم الخامس : تعريف التصوف باعتباره أخلاقا سلبية :

لم يفت الصوفية أن يتحدثوا عن التصوف باعتباره أخلاقا سلبية ، كما لم يغفلوا عن التمييز بين الخلق الحسن والآخر السيء ، ولا تلكم الأخلاق الايجابية أو السلبية ، واذا كانوا قد ركزوا على أن الحميد منها هو المأمور به ، فقد ذكروا أن المنهى عنه هو الذميم ، من ثم عرفوا التصوف بأنه : الخروج من كل خلق دنى ، وأكدوا ذلك مرارا حتى بدت منهم عبارة التصوف هو : " الدخول فى كل سنى ، والخروج من كل خلق دنى " (١) .

وهم بهذا يفسرون التصوف على أنه خروج من الخُلُق السيء بحيث لايكون الصوفى سلبيا فى مواقف تتطلب الايجابية ، ولايكون سيئا فى مواطن تستدعى المدح ، فهو بين اخوانه ايجابى متعاون ماداموا ملتزمين ، بينما هو مع غيرهم سلبى لايمارس عاداتهم ، ولايشاركهم أفعالهم ، ولاينخرط كواحد منهم ، حتى اذا وسم بالسلبية كانت هى الايجابية بعينها من حيث أنها انعكاس لأثر ايجابى بعيدا عن الانخراط فى المعاصى ، ولعلهم يتمسكون

---

(١) الامام الطوسى - اللمع ص ٤٥ .

بالحديث الشريف " المتمسكون بسنتي عند فساد أمتي " .

ومما لا شك فيه أن الخروج عن الخلق الذميم يمثل جانبا ممتازا انه تهذيب السلوك ، والقفز بالقيم حتى تعلو على المشاعر وتهذيب النفس حتى تغزو الغرائز ، ولا شك أن السيطرة على النزوات وتهذيب الشهوات والتعالى عن سفاسف الأخلاق وذميم الصفات يمثل قيمة ايجابية عبر عنها المعبرون بقولهم : " الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر " (١) .

بيد أن التصوف على هذا المعنى يكون طريقه العبادة والزهد ولذا قيل أن فى منشأ التصوف التزاما بسلوك " طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد " (٢) ، فلاشك أن فيه تنمية لثروة داخلية يعتصم فى رحمها ضمير حى ، وفؤاد ذكى ، وملامح هداية تنطلق بين الحين والآخر تدفع الى الاستقامة وتقود للخير .

فاذا كان المعلوم عرفا أن الخلق السنى هو الجميل الذى يجرى فى رحابه الضياء ، ويحيط به من كل جانب الثناء فان

---

(١) الامام ابن تيمية — مجموع الفتاوى — المجلد الحادى عشر التصوف ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦ .

الصوفية قد حاولوا اذكاء هذا الجانب والتأكيد عليه باعتبار أن هذه المشاعر التواقة لايمكن أن تنطفىء مشاعلها بل لابد لها من الانطلاق ملتزمة شرع الله ، من ثم فلا تثريب عليهم ان هم اصطنعوا للتصوف سبل الزهد ، والتقشف والكرم والتواضع ، واخضاع النفس لسلطان الشرع حتى تصير ذلولا تحت ارادته ، فتشرب زلالا من فيض كرمه .

بيد أن العبارة السابقة - الخروج من كل خلق دنى - قد جمعت كافة الأخلاق الذميمة وقدمتها للمطالع على سبيل الحصر ، فاذا كانت سابقتها - الدخول فى كل خلق سنى - قد استوفت الحديث على الأخلاق الجميلة التى تمثل التصوف الايجابى أو هى صورته الأصلية فان اعتباره خلقا ايجابيا أمر مقرر ، كما أن الأخلاق السلبية قد وقفت منها العبارة - الخروج من كل خلق دنى - موقفا محددا ، انه موقف واضح ، لكاره مذم ، طاعن على كل خلق ذميم ولاتمثل الا معايير سلبية .

والملاحظ أن الصوفية يحاولون التزام الصدق باعتباره مبدءا اسلاميا ، وقيمة خلقية ، وأدابا شرعية ، انهم يتمثلون الحديث

الشريف" عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، ولايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا " .

والصدق خلق جميل ، وخلة حميدة ، انه قرين الأخلاص ، " والصدق والاخلاص هما فى الحقيقة تحقيق الايمان والاسلام " (١) على ما مال اليه المحققون ، والصوفية من هذا النوع الذى يحاول التزام الصدق مع ربه ، ومع نفسه والآخرين ، كما يحاول الاخلاص لله رب العالمين الذى هو غايته الأولى والأخيرة .

كما أن التصوف يلزم صاحبه اجتناب ذميم الأخلاق ومنها الكذب ولعل هذا قادهم اليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم محذرا " واياكم الكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ،وان الفجور يهدى الى النار ، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا " .

ونظرا لكون هذه الأخلاق الدنيئة لايحاول الصوفية الوقوع فيها ، بل انهم يبتعدون عنها ويلتزمون حميد الصفات وكريم

---

(١) الامام ابن تيمية — مجموع الفتاوى / علم السلوك ص ١١ المجلد رقم ١٠ .

الخلال فقد اعتبرهم ابن تيمية أهل الاستقامة وعدَّ منهم كثيرين يقول : " أما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض ، وابراهيم بن أدهم ، وأبو سليمان الداراني ومعروف الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ ابي البيان وغيرهم من المتأخرين " (١) وبهذا يكون شيخ الاسلام : ابن تيمية قد ذكى التصوف ونصح الصوفية .

ولأن الأخلاق الدينية قريبة من الانزلاق ، غير مأمونة العواقب ، وهي بحد ذاتها السقوط في المنهيات التي زل فيها أناس كثيرون ، من ثم وقف الصوفية من الأخلاق الدنية موقفا محددا وصارما حيث حصروها ، وحاصروها كأنها عدوى يجب الفرار منها ، لا الاقتراب نحوها ، وتلك ميزة من ميزات الصوفية لا صفة من صفات المتصوفة ، والفرق بينهما كبير جدا .

ولذلك كان الشيخ عبد القادر يطالب مريديه أن يتخلوا عن هذه الأخلاق الذميمة حتى ولو كانت من داخل أنفسهم فيقول :

---

(١) المصدر السابق ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

" أخرج من نفسك ، وتنح عنها ، وانعزل عن ملكك ، وسلم الكل الى الله تعالى ، وكن بوابه على باب قلبك ، وامتثل أمره تبارك وتعالى فى ادخال من يأمرك بادخاله •

وانته نهيه فى صد من يأمرك بصده ، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه ، واخراج الهوى من قلبك بمخالفته ، وترك متابعته فى الأحوال كلها وادخاله فى القلب بمتابعته وموافقته ، فلا ترِدْ ارادةً غير ارادته وغير ذلك منك غيره وهو وادى الحمقى ، وفيه حتفك وهلاكك ، وسقوطك من عينه تبارك وتعالى ، وحجابك عنه " (١)

من ثم فان تجارة الأفكار التسلطية ، وفرض القربات على الآخرين وتقديم كشوف مقيدة تحدد فيها أنواع الأعمال المقبلة ، والأغراض التى تنشأ عنها ، وتتطلب فى ذات الوقت أموالا طائلة تجمع تحت اسم التبرع ، ليست هذه ، ولاتلك من خُلال الصوفية •

انهم لايسألون الناس ، بل ويستحيون من الالحاح على خالقهم — الا فيما يتعلق بأمر يرضيه — وبالتالى فاذا اصدرت

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلانى — فتوح الغيب / نقلا عن ابن تيمية علم السلوك ص ٥١٧ من مجموع الفتاوى •

أمثال هذه الضرائب المفروضة ، أو الصدقات التي تجمع بقـــوة السلطان ، أو تحت السيطرة على خرير الجوانح وأنين الوجدان فلا يجوز نسبتها للصوفية بل الى المتصوفة انها أفعال مشـــينة وأخلاق دنية وليس ذلك شأن الصوفية ، وربما تسألني ما الدليل على أن هؤلاء غير أولئك ؟

والجواب : أن الصوفية اتفقوا على أن للتصوف أصولا متـــى روعيت بأن الفرق بين الصوفي والمتصوف ، كما بان الفرق بيـــن الصوفي الحق والمنتسب ، ولو حملوا أوزارهم على ظهورهـــم مدعين أنها أحمال التصوف ، وهذه الأصول هي :

١ — تقوى الله في الســـر والعلـــن ٠

٢ — اتباع الســنة قولا وعمـــــلا ٠

٣ — الاعراض عن الخلق ، والاقبال على الخالق ٠

٤ — الرضا من الله بالقليل والكثير ٠

٥ — الرجوع الى الله وحده في السراء والضراء" (١) ٠

---

(١) الشيخ عبد الرحمن حسن محمود / مقدمة الفتوحات الالهيـــة صـ ك ، ل ٠

بل ربما جمعت هذه الأصول لدى الصوفية فى مجموعات أربع كل مجموعة منها تمثل أخلاقا وقيما بجانب عقيدة وشريعة ، وهذه المجموعات الأربع هى :

١ ـ " كف الأذى ٠

٢ ـ حمل الجفا ٠

٣ ـ شهود الصفا ٠

٤ ـ رمى الدنيا بالقفا " (١) ٠

والملاحظ أن هذه المجموعات يكمل بعضها الآخر ، حيث أن كف الأذى بأنواعه يقع على الآخرين بأنواعهم ، ويدخل فى الآخرين ذات الانسان نفسه حيث ينتهى به الأمر الى ترك التعلق بالدنيا لذاتها ، وعدم الاقبال على زينتها التى تتبدى لطالبها ، مع الأخذ فى الاعتبار عدم اهمال الأخذ بالنصيب المقرر شرعا ٠

انها مجموعات فيها رمى للدنيا وطرح لغاياتها ، والقاء لها فى وجه طالبيها ، اذ لا اعتبار للصوفى الا أن يصل الى رضى المعبود الاله الحق جل علاه ، فهو أمله المنشود ، ولذا كانت

---

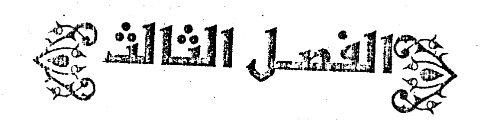
(١) ابن عجيبة / الفتوحات الالهية ص ٩ ٠

لهم تعريفات للدنيا تؤدى كلها الى هذا الفهم من أمثال :
" الدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح ، وخسر فيه من خسر " .

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن التصوف باعتباراته المختلفة حتى ننتقل الى علم التصوف الذى ربما نجد الفرصة متاحة للحديث عنه ، ويعين الله عليه اذ قد ورد فى الأثر : " وان من العلم كهيئة المكنون لايعلمه الا أهل المعرفة بالله تعالى ، فاذا نطقوا به لم يجهله الا أهل الاغترار بالله ، فلا تحقروا عالما آتاه الله علما منه ، فان الله — عز وجل — لم يحقره اذ أتاه اياه " (١) .

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمى / الأربعين فى التصوف ، وراوى الحديث الأعلى أبو هريرة رضى الله عنه — نقلا عن الفتوحات الالهية لابن عجيبة ص ١٨ .



الفصل الثالث

((الآراء حول كلمة التصوف))

الآراء حول كلمة التصوف

شغلت لفظة التصوف أذهان الدارسين مسلمين ومستشرقين ، صوفية وفلاسفة ، متكلمين ومحدّثين ، بل ربما تعلق ببحثها فقهاء وأصوليون ، وكل ادلى فيها برأى ، قد يكون له سند قوى أو ضعيف ، وامتد هذا التفكير فى الكلمة الى كافة الاتجاهات ، ولم يقف عند حد معين .

وكان مؤيدو التصوف أول الباحثين عن سند لها يمكن احالتها اليه ، ويكون ادخل بها الى لغة العرب ، بينما راح الخصوم فى حركة جادة — يبحثون لها عن سند منقول من ديانات عفى عليها الزمن ، وكل حاول بلوغ الغاية فى المسألة التى نيطت به ، سواء حاد عنها ، أو تخلفت منه .

والحق أن الآراء فى المسألة تشعبت ، والأدلة تساقطت ، ومن بين أيديهم تفرقت ، وربما كانت توجهاتهم والرغبة فى الاضافة والنقصان من الأسباب التى انتهت بهم الى هذا الاختلاف الغريب الذى انحاز للفظة التصوف — وحدها عند مقارنتها بغيرها من الألفاظ التى تسمى بها العلوم المختلفة .

وهاك مجمل الآراء في الكلمة :

(١) الرأى الأول : أنها لفظة مشتقة :

لكن من أى شيء اشتقت الكلمة ؟ ثم ما هو الاشتقاق ، وما المقصود بالاشتقاق في التصوف ؟ هذه كلها أسئلة ترد على الخاطر . فما هو الاشتقاق أولا ؟

يرى العلماء أن الاشتقاق هو " رد لفظ الى آخر ولو مجازا ، لمناسبة بينهما في المعنى والحروف الأصلية ، ولابد من تغيير ، وقد يطرد ، كاسم الفاعل ، وقد يختص كالقارورة" (١) وطبقا لهذا المعنى يكون اشتقاق لفظ التصوف لابد أن يكون مرجعه الى لفظ آخر ، ولابد من وجود مناسبة، اذن .

ماهو اللفظ الذى اشتق منه لفظ التصوف ؟

وما هى المناسبة بين لفظ التصوف واللفظ المشتق منه ؟ هذا ما سنحاول ايضاحه فيما يلى :

ذهب أصحاب القول بأنه مشتق الى وجود جهات كثيرة فى اشتقاقه حتى قالوا : " اختلف في اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة " منها ماهو حسن أو أحسن ، وماهو مقبول والأكثر قبولا ، ومنها ما هو شائع أو نادر

---

(١) الشيخ / تاج الدين السبكى — جمع الجوامع ص ١٣٥ ضمن مجموع مهمات المتون ط الحلبى .

الى آخر الأشياء التى تدعو الى التمايز ، ويقبل بعضها أو يرد من هذه الأقوال :

١ - انه مشتق من الصــفاء :

والعلاقة بينهما أن التصوف مداره على التصفية ، للباطن والظاهر فاذا تمت التصفية من الأكدار ، فقد حصل صفاء القلب ، ونقــاء السريرة ، وحكى بعضهم هذا الوجه فقال :

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا ∴ وكلهم قال قولا غيــر معــروف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتــى ∴ صافى فصوفى . حتى سمى الصوفى (١)

والصفاء يشمل صفاء الأسرار ، ونقاء الآثار ، وتصفية القلــب مــن الأكدار ، وشغله بالواحد القهار ، والصوفية هم الملتزمون هذا المنهج فلا تثريب عليهم ان هم اشتقوا من الصفاء التصوف ، وانتسبوا اليه ، حتى أن أحوالهم وصفاتهم انطبقت عليهم ، فهم أهل صفاء وتصوف معا .

ويذكر الكلاباذى أن طائفة أُطلقت عليهم لفظ الصوفية ، وأن هــذا اللفظ غلب عليهم ، وحل منهم محل الاسم ، وأنهم " سموا صوفيــة

---

(١) الشيخ / أحمد بن عجينة - الفتوحات الالهية بشرح المباحــث الأصــلية ص ٢٣ .

لصفاء اسرارهم ، ونقاء آثارهم ، ومنهم بشر بن الحارث الذى كـــان يقول : الصوفى من صفا قلبه لله" (١) فكان الصوفى بحمله الطيب ، ونقاء أسراره ، وصفاء آثاره اقتضى التصوف له ليكون علامة عليه .

وسواء كان الصوفية أهل صفاء ، أو تصوف فان الذى لا جدال حوله هو أنهم قوم " صفت معاملتهم لله ، فصفت لهم من الله عز وجل كرامته "(٢) التى يعيش فى رحابها أولياؤه ، ويعبر عنها - الكرامة - بالبشـــرى الحسنة لقوله تعالى " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـــونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِـــرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (٣) .

وفى تقديرى . أن الصفاء وصف جميل لحق به الصوفية وعرفوا بـــه ، حتى صار يمثل عاملا مهما فى دنيا الصوفى وآخرته ، فالصفاء يعـــم الواحد منهم ، ويشملهم جميعا ، انهم أصحاب ولاية ، وكرامة عنـــد الله ، وفى ذات الوقت أصحاب أسرار وأنوار ، فاشتقاق التصوف مـــن الصفاء أمر وارد ولا تحيله قواعد اللغة - كما زُعِمَ - لأنا لانقول انتساب التصوف الى الصفاء وانما نؤكد على اشتقاقه منه ، والفرق بين الانتساب اليه ، والاشتقاق منه كبير .

(١) الكلاباذى - التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨
(٢) المصدر السابق ص ٢٩ (٣) سورة يونس الآيات

ويشهد لما ذهبنا ، وصفهم بأنهم أهل صفاء لله ، وعقيدة صحيحة ، وايمان كامل ، وعبادة قائمة على أسس شرعية كما رجح شيخ الاسلام ابن تيمية هذا المنحى ، وأن الصوفي " من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر ،

وأن التصوف كتمان المعاني ، وترك الدعاوى ، وأشباه ذلك(١)

ومال ابن تيمية الى أن الصوفي نال درجة الصديقين الذين هم أكمل الخلق بعد الأنبياء واستدل بقوله تعالى " أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا " (٢) ثم قال : هو — الصوفي — في الحقيقى نوع من الصديقين " (٣) .

اما من مال الى أن اشتقاق " التصوف من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة " (٤) فهذا ما لانسلم به ، لأن فرضه قائم على الانتساب وليس على الاشتقاق ، واللغة تواجه صعوبة في انتساب التصوف الى الصفاء ، ولكنها تؤيد اشتقاقه منه ، على ما سلف بيانه.

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — مجموع الفتاوى — التصوف مجلد ١١ ص ١٦ طدار الرحمة .

(٢) سورة النساء الآية رقم : (٣) ابن تيمية — التصوف ص ٢٧

(٤) الامام القشيري — الرسالة القشيرية فى علم التصوف ص ٢١٧

كما أننا نطالب بالتفرقة بين الألفاظ ودلالتها على معانيها مع ملاحظة ما استقر عليه العرف العلمي ، من ضرورة بحث العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول اليه ، الذي قد يكون الاشتقاق ، أو النقل ، أو النحت والاقتباس على ما هو مشهور في كتب العربية ، وموجود بأسرارها .

لأن المسألة ليست جملة ذات طلاسم لاتعرف المعاني التي تدور حولها مفرداتها ، لأنه من الثابت وجود معنى خاص لكل لفظ مفرد ، باعتبار أن الألفاظ أثواب المعاني ، فما من لفظ إلَّا وَلَهُ معنى ، وربما تعددت معانيه واللفظ واحد ، وبالتالي تكون التفرقة بين هذه المعاني ضرورية ، وهو الذي ننبه اليه ، ونلتمسه لدى أخواننا من أهل العلم ، وليس النَّقَلَة، اذن اشتقاق التصوف من الصفاء ليس ببعيد أبداً .

٢ - مشتق من الصف الأول :

ويعنون به أن التصوف يطلق على الصف الأول ثم نُقل الى العلم المعروف ، والهيئة التي تسمى بها الزهاد والمتنسكون ، وعليه فان التصوف يكون التزام الصف الأول في العبادة والطاعة ، ومن ثم كان الصوفية دائما في الصف الأول بين يدي الله عز وجل ، لايألون جهداً

ولايبالون غير وجه الله تعالى وجها .

وهم فى الصف الأول بارتفاع " هممهم اليه ، واقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه (١) ، وهو الصف الأول فى الوصول الى الله ، وهم السابقون اليه ، السائرون عليه ، المقربون الى ربهم ، العارفون له حقوقه ، القائمون بواجباتهم نحوه جل علاه .

بيد أنهم فى الصف الأول ، وقد اشتغلوا بالعبادة ، واصلاح نفوسهم ، والسيطرة عليها ، والارتقاء بها ، والاحتماء فى جناب الله من كل ما سواه ، فهم " المشتغلون باصلاح القلوب والسرائر ، وهم المقربون الغائبون عن رؤية أنفسهم الباقون بشهود ربهم " (٢)، القائمون على طاعته التزاما فى حب ، وقربا مع ود ، وشكر على كل حال .

بل صح القول فيهم : انهم الملتزمون عبادته ، الذين ربطوا أنفسهم على أبواب محبته ، وشغلوا أنفسهم بالتسابق الى طاعته ورضوانه ، مع محاولة التكمل بكل ما يرضيه ، والعمل الدائم نحو الهدف الأسمى ، والغاية النبيلة ، وهى التحقق فى طاعة الله رب العالمين .

(١) الكلاباذى ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٣١ والقشيرية ص ٦٢
(٢) الامام ابن عجيبة ـ الفتوحات الالهية ص ٢٨١

وفى تقديرى : أن التصوف صفاء فى صاحبه ، ووقوف بالمرء بين يدى خالقه فى كل الأوقات مع الأوامر والنواهى ، بنفس راضية وهمة عالية ، فاذا كان التصوف مشتقا من الصف الأول على هذا المعنى فما المانع وقد جاءت الشواهد العربية مؤيدة هذا الاشتقاق

بل المصادر العربية أكدت أن الصوفى من ربط نفسه لخدمة ربه وأبعدها عن معاصيه ، بل ما المانع أن يكون الصوفى هو نفسه ربيط طاعة الله ، وقد أعلنها بنفسه واعتنقها بقلبه ، وجرت على جوارحه والتزم بها من غير مخالفة لها ، أو تكبر عليها ، حتى كان سبّاقًا اليها فكان فى الصف الأول من أهل العبادة لله ، الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى " وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ " (١) .

كما أن أهل التصوف هم " العصابة القليل عددها ، العظيم عند الله قدرها وخطرها .. وطريقتهم طريقة أهل المنحة والفضل منهم ، ولابد من معرفة أصولهم ، حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم ، أو المتلبسين بلبسهم ، والمتسمين باسمهم ، حتى لايغلط

---

(١) سورة الواقعة الآيات ١٠ — ١٢

ولا يأثم ، لأن هذه العصابة أعنى الصوفية ، هم أمناء الله جل وعز فى أرضه ، وخزنة أسراره وعلمه" (١) ، ومن كان هذا شأنه فلأنه ـ د ائما يكون فى الصف الأول ، من أهل الطاعة مع ما فيه من صفاء ونقاء وطهارة .

وعلى هذا فلا منازعة من اعتبار التصوف مشتقا على سبيل المجاز من الصف الأول ، وهو فى هذه الحال لايحتاج اضافة النسبة ، لأن المنقول من لغة الى الأخرى يظل محتفظا بأصله ، على ما هو مدون فى كتب أهل الاختصاص . وخاصة ما ذكره تاج الدين السبكى من أن "الاشتقاق رد لفظ الى آخر ولو مجازا لمناسبة بينهما" والمناسبة قائمة بين التصوف والصف الأول .

وقد ذكر القشيرى أسباب تسمية القوم صوفية ، وذكر الأقوال فيها ومنها أنهم سموا صوفية ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل ، بارتفاع هممهم ، واقبالهم على الله بقلوبهم ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه" (٢) ولكنه زكى تسميتهم بصوفية للبسهم الصوف ،

---

(١) الطوسى ـ اللمع ص ١٨ وما بعدها بتصرف يسير تحقيق الدكتور/ عبد الحليم محمود وآخر ـ دار الكتب ١٩٦٠م .
(٢) الامام القشيرى ـ الرسالة القشيرية ص ٦٢ .

واعتبره الأليق والأقرب الى التواضع ، وهو حر في اختياره قولا ، وترجيحه على غيره مادام الدليل عنده قد رجح .

لكن أيهما أدعى للاعتناق أن يكونوا صوفية لوقوفهم في الصف الأول مستجمعين عقولهم وقلوبهم ، أجسادهم ونواياهم ، ظاهرهم وباطنهم ، أم أن يكونوا قد تغطت أجسادهم بالصوف فقط ؟! في تقديري أن ارتداء الصوف أمر مشترك يمكن أن يقاسمهم فيه الفقهاء والمحدثون ، بل وأصحاب الفرق والمتكلمون ، ناهيك عن كونه لباسا مشتركا يرتدي به المسلمون والمشركون ، فهل يمكن ترجيحه على غيره واعتبار لبس الصوف هو الفيصل حتى تتم تسميتهم به ؟! انى أرى غير ذلك .

وقد رجح القشيري مبدأ لبس الصوف ، وقاس الأمرين معا وأنه " يقال صوفي نسبة الى الصوفية ، كما يقال كوفي نسبة الى الكوفة وهذا ما ذكره بعض أهل العلم ، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد " (١) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦٢

وربما لانجد سندا قويا يجعل لبس الصوف أمرا خاصا بالصوفية لأنه ما من نوع من الملابس الا وقد وقعت الشركة فيه ، فما بالـــك اذا كان هذا المشترك يحتذ به الصالحون والزهاد ، ويزكيـــه المتقشفون والعباد ، لاشك أن غيرهم سوف يقوم بتقليدهم على أحسن تقدير ، ويرتدى الصوف وحينئذ لاتكون هناك قيمة من لبس الصوف الا نع البرد ، والوقاية من الشرد ، وليست هذه المسألة - لبـــس الصوف - من المميزات القوية حتى تصير علما على هؤلاء القوم الا بمرجح آخر .

وقد هاجم ابن تيمية هذا الرأى " روى أبو الشـــيخ الأصبهانى باسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضـلون لباس الصوف فقال : ان قوما يتخيرون الصوف يقولون : انهم متشبهون بالمسيح ابن مريم ، وهدى نبينا أحب الينا ، وكان النبى صلى اللـــه عليه وسلم يلبس القطن وغيره " (١) .

اذن الأنسب فى الاشتقاق أن يُرَدّ الى اللفظ الآخر بالمعنـى المشترك وليس المشترك الذى يمكن التمسك به هو لبس الصوف لمـا سبق بيانه ، ثم أن لبس الصوف عرض من الأعراض ، ولايمكن تقديـم تعريف حدى من خلال عوارض غير مشخصة على ما هو مشهور .

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية - مجموع الفتاوى - التصوف ص ٧

٣ - مشتقة من الصفة :

واعني بالصفة هنا الحسن والبهاء ، مع الاعتماد على الله تعالى ، والقيام معه بكافة الواجبات ، فكانت هذه صفتهم التي بها يتميزون عن غيرهم ، من صفاء القلب ، ونقاء السريرة ، والوقوف في الصف الأول مع أهل الطاعة والغفران ، السابقون الى الله تعالى باحسان ، وهي صفة ربما لاتوجد في غير هؤلاء ، وطبقا لذلك عرفوا بالصوفية .

وعلى هذا فان أحوالهم تكون سابقة على وصفهم الذي نعتوا به ، ومن ثم يصير الاشتقاق أمرا وصفيا نقل بعد الى الأسمية ، وهي الصفة التي كان عليها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكم وصفهم القرآن الكريم ، بأنهم " أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ " (١) .

وكذلك ورد الحديث الشريف " أصحابي كالنجوم بأيهم أقتديتم اهتديتم " (٢) ، من ثم فان الصوفي الحق " لما لاح له نور ناصية التوحيد ، وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد ، وقلبه بالتخلص عما

(١) سورة الفتح الآية رقم ٢٩
(٢) حديث شريف .

سوى الله تعالى ، صابرا بين يدى الله حاضرا شهيدا ، يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام ، حيث أسمعه الله منها خطابه اياه بأنى أنا الله " (١) .

لقد صفوا قلوبهم من كل غش ، وصفوها من كل ما سوى الله أنهم استمسكوا بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم لسيدنا أنس ابن مالك رضى الله عنه الذى يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له " يابنى ان قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ثم قال : يابنى وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ، ومن أحيانى كان معى فى الجنة " (٢) .

فلا تثريب علينا ان قلنا : التصوف مشتق من الصفات الحسنة التى تحلى بها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسار عليها من بعدهم جمع من أهل الفضل والعلم والدين ، فنسبوا اليها وعرفوا بالصوفية ، كما صار التصوف علما على سلوكهم ، ودليلا على جمعهم الذى انعقدوا تحت لوائه .

---

(١) القشيرى ــ الرسالة القشيرية ص ٢٨

(٢) حديث شريف ــ الرسالة القشيرية ص ٤٧

وقد أكد القشيري هذا المعنى ، وأكد أنه " صحيح من حيث المعنى ، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك ، لكونهم مجتمعين متآلفين ، متصاحبين لله وفي الله " (١) ولا عبرة بعدم موافقة اللغة على مايقولون ، لأنهم عدوا الى النسب ولم ينظروا الى الاشتقاق اللغوي بمعناه الذي عناه أهل اللغة أنفسهم .

وربما تسألني : لماذا تطرق هذا الباب - باب التأكيد على أن الأمر متعلق بالاشتقاق لا بالنسب - بشدة ، وتلح عليه باستمرار ؟

والجواب : أن الذي دفعني لذلك هو تلمسهم ناحية الاشتقاق اللغوي ، فحاولت التنبيه الى أن الاشتقاق اللغوي لايمنع وصف هؤلاء القوم بأنهم صوفية ، كما لايمنع من أطلاق اسم التصوف على أصحابهم ، انما الممتنع هو النسبة الى التصوف ، والفرق بين الأمرين كبير ، لأن الاشتقاق صحيح على بابه ، ولكن النسب هو الذي تدور حوله بعض الصعوبات ، وهم لم يستدلوا بالنسبة وانما استدلوا بالاشتقاق . فلذلك لزم التنويه مع التنبيه .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٢

٤ - مشتق من الصّفّة :

تذكر المصادر المعتد بها أن جمعا من صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - من المهاجرين والأنصار - كانوا فقراء، ولم تكن لهم بيوت يأوون اليها ، ولا أن يعيشوا فيها ، وهم في ذات الوقت جملة من الرجال الذين أوقفوا حياتهم لخدمة دين الله رب العالمين ، مع خاتم الأنبياء وسيد المرسلين .

وكثيرا ما كانوا يترددون على المسجد النبوى ، حتى يكونوا على مقربة من نداء الحق العلام ، فى تنزيل القرآن الكريم ، والجهاد فى سبيل اعلاء دينه ، وحتى تتم لهم المؤاخاة ، أو تتحقق الأنظمة الأسرية فقد كانت اقامتهم بالمسجد ، إنهم لامال معهم ، ولابيوت تخصهم ، ولازرع ولاضرع ولاتجارة ، من ثم رأى الرسول الكريم أن يقيم لهم بناء خاصا يجمعهم وأمثالهم - فما هى ومكانها واسمها ؟

أ - الصُّفّة :

عبارة عن مكان بالمدينة المنورة أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم " فى شمالى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأوى اليها من لا أهل له من المؤمنين ، ولم يكن يقيم بها ناس معينون

بل يذهب قوم ويجيء آخرون (١) ، وكانوا أغلب الأحوال يصل عددهم الى " أربعمائة رجل " ممن لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر" (٢) .

ب - مكانها :

أما مكانه فقد كان بالمدينة المنورة ، ولم يكن بمكة أبدا ، لأن الصفة وأهلها لم يعرفوا الا بعد الهجرة ، حيث بدأت مسألة المهاجرين الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم في قوله تعالى " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " (٣)

كما ظهر ايثار الأنصار ، وحبهم أخوانهم المهاجرين حتى ملك هذا الحب زمام قلوبهم ، وسيطر على مناحي أفئدتهم وشغل كافة أنحائهم وذكرهم الله مادحا لهم في قوله تعالى " وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (٤) .

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية - التصوف ص ٧١
(٢) القشيرية ص ٦٢
(٣) سورة الحشر الاية رقم ٨ (٤) سورة الحشر الآية رقم ٩

من ثم فلا اعتداد بمن قال ان الصفة وأهلها كانوا بمكة ٠

أما لماذا ؟ فلما يلي :

أولا : أن الدعوة الاسلامية في مكة المكرمة كانت أول أمرها سرا ، ولم يلجأ الرسول صلى الله عليه وسلم لاعلان الجهر بها الا في مراحلها المتأخرة بمكة بعد أن أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم قوله تعالى " فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ " (١) ٠

ومن ثم لم يكن هناك العدد الذي يبلغ أربعمائة رجل من المؤمنين بالله رب العالمين من الفقراء في مكة حتى يقال: أن الصفة وجدت بمكة ، كما أن الهجرة الأولى والثانية للحبشة لم يزد عدد المهاجرين فيهما عن مائتي نفس من الذكور والاناث والأطفال المؤمنين وبالتالي فلم تكن الصفة وأهلها بمكة أبدا ٠

ثانيا : الثابت من الروايات المفيدة هو وجود " دار الأرقم بن أبي الأرقم " التي كان يلتقي فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه سرا ، يبلغهم دين الله ، ويعرفهم أوامره ونواهيه ، ويعمل على تثبيت العقيدة في نفوسهم ، وما كانوا الا أفرادا قلائل لايجاوزون في كل لقاء أصابع اليدين معا ، ولو كانوا بهذه الكثرة التي عليها أهل الصفة لقاتلوا قريشا في دارها مهما كانت أسلحتهم ٠

---

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩٤

ثالثا : الروايات المقبولة تؤكد أن أهل الصفة كان فيهم أبو هريرة ، والبراء بن مالك ، ووابصة بن معبد الجهني (١) ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، ولم يكن لبعضهم وجود بمكة أصلا ، ومنهم من لم يدخل الاسلام الا بالمدينة المنورة ، طابت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كانوا من أهل مكة لكان لهم أهل ، ان لم يكونوا من الأرقاء .

رابعا : أن أهل الصفة كانوا خليطا من المهاجرين والأنصار ، فلو كانت الصفة وأهلها بمكة لما جاز اطلاق المهاجرين عليهم ، وما صح أن يتسموا بالأنصار لأن لفظي المهاجرين والأنصار نقليان ، من ثم بان لنا أن الصفة وأهلها لم يكونا الا بالمدينة المنورة نورها الله برسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن " طلحة رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فان لم يكن له بها عريف نزل الصفة . وكنت فيمن نزل الصفة (٢) ، وهذا الأثر من الدلائل النقلية على أن الصُّفَّة كانت بالمدينة المنورة ولم تكن بمكة المكرمة .

(١) الامام أبو نعيم — حلية الأولياء جـ ١ صـ ٣٤٧
(٢) السهروردي — عوارف المعارف صـ ١٠٢ .

أما احتجاج القائلين بأنها كانت بمكة — بأن ابن أم مكتوم — رضى الله عنه — كان من أهل الصفة ، وقد أُعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وأنزل الله على رسوله سورة عبس بمكة ، توجيها له صلى الله عليه وسلم ، كما أن سؤال ابن أم مكتوم وتردده على الرسول كان بمكة ، وهو في ذات الوقت من أهل الصفة .

فان هذا لايصح اعتباره دليلا على أن الصفة وأهلها كانوا بمكة ، لأن نزول السورة فى مكة لايعارض وجود ابن أم مكتوم فى أهل الصفة بالمدينة لأنه كان ضمن المهاجرين ولم يكن له أهل بالمدينة ولابيت ، والا فهل كان وحشى بن حرب قد أسلم وهو بمكة ، وهل غزوة أحد كانت بمكة ؟ ان هذا لم يقل به أحد أبدا . من ثم لزم ترك الجدل ، والتزام المصادر الصحيحة ، فان مخالف الضرورة العقلية لايعتبر من العقلاء .

ج — اسمها :

يقول المعجم الوجيز " الصفة مكان مظلل فى مسجد المدينة كان يأوى اليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وهم أهل الصُّفَّة (١) وبالتالى فان الصُّفة عَلَم على هذا المكان المحدد لكن

(١) المعجم الوجيز — مادة ص ف ف ص ٣٣٦

لماذا سميت صُفَّة ؟

الجواب : أن المعاجم العربية كشفت أن مادة ص ف ف يشتق منها الصف الأول مع الانتظام والدقة والاستقامة للدفاع عن أنفسهم هجمات غيرهم حتى ولو كانت هواجس النفس ونزعاتها .

وعلى هذا تكون تسمية الصُفَّة من باب تسمية الشئ بما يؤدى فيه أو يؤول اليه ، وتكون الصفة : هى المكان الذى يكون أصحابه فى الصف الأول من العقيدة الصحيحة والعبادة الحقة مع الانتظام والدقة والاستقامة ، والاستمرار فى مجاهدة النفس ومدافعة أعدائها حتى ولو كانوا من داخلها ، أو رغبة من رغباتها .

وطبقا لهذا فانه لايستبعد اشتقاق اسم التصوف من الصُفَّة اطلاقا ، لوجود العلاقة المتقاربة بين المعنى الاشتقاقى لمادة ص ف ف ، والمعنى المقصود من كلمة التصوف لدى الصوفية أنفسهم ولا أبْعد عن الحقيقة ان قلت بأن الصفة يحسن قبس التصوف منها اشتقاقا .

ولكن المستبعد أن تقع النسبة بين التصوف والصفة ، ونحن لا نمارى فى هذه المسألة ، انما نميل الى أن الاشتقاق اللغوى

لايستبعد أن تكون الصفة هى المعنى المحورى الذى انعكس على أعمال القلب الصالحة واستمراء صاحبها القيام بها على النحو المبين فى مؤلفات الصوفية ٠

د ـ أهل الصفة وسماتهم :

هم فقراء الصحابة من المهاجرين والأنصار ، الذين لم تكن لهم أسر يقومون معها ، ولابيوت يقطنون بها ، ولم يكونوا وحدهم " خيار الصحابة ، بل كانوا من جملة الصحابة " (١) رضوان الله عليهم أجمعين ، وأما سماتهم فمنها :

١ ـ أنهم فقراء لا مأوى لهم ولابيت بجانب أنهم من أهل الايمان وفى دار الاسلام ٠

٢ ـ أنهم كانوا مجتمعين متآلفين ، متصاحبين لله وفى الله" (٢)

٣ ـ أنهم كانوا أعظم الناس قتالا وجهادا ، ولقد قتل منهم فى يوم واحد " يوم بئر معونة " سبعون حتى وَجَدَ عليهم النبى

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية ـ التصوف ص ٧١ مجموع الفتاوى٠
(٢) السهروردى ـ عوارف المعارف ص ٦٢

صلى الله عليه وسلم موجدة ، وقنت شهرا يدعو على الذيـن قتلوهم" (١) .

٤ - أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم " بهم تُتَّقى المكاره ، وتُسد بهم الثغور ، وأنهم أول الناس ورودا علـى الحوض ، وأنهم الشعث رؤسا ، الدنس ثيابا ، الذيـن لاينكحون المتنعمات ، ولاتفتح لهم أبواب الملوك" (٢) .

٥ - أنهم خاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يقضون أوقاتهم فى قراءة القرآن وتدبره ، وفى الذكر والتفكر ، وكانوا من خاصة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يجرى عليهم أرزاقهم" (٣) .

٦ - هم الذين يعيشون فى زهد وتقشف ، "وكان عليهم جباب الصوف ، ولم يكن عندهم غيرها " (٤) .

٧ - هم الذين لم يكن لهم شئ يرجعون اليه ، فهم " لايرجعون الى زرع ولا الى ضرع ، ولا الى تجارة ، وكانوا يحتطـبون

(١) ابن تيمية - التصوف ص ٨٠

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٨٠

(٣) د / على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج٣ ، ص ٣٨ ط ٨ دار المعارف .

(٤) أبو نعيم - حلية الأولياء ج ١ ص ٣٢٨

ويرضخون النوى بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة ، وتعلم القرآن وتلاوته" (١) .

٨ — هم الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " ابشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه ، فانه من رفقائى يوم القيامة" (٢) ، الى غير ذلك من السمات الكثيرة التى يصعب تناولها على سبيل الحصر ، أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أعظمها صحبة .

هـ — عددهم :

لايمكن النظر الى أصحاب الصُّفَّة من حيث العدد على سبيل الاستقراء التام ، لأن تلك مسألة ربما بدت صعبة لدى مؤرخى التصوف ، ولذا رأينا الدراسات حولهم تتردد فى ذكر العدد على سبيل الحسم والقطع نذكر طرفا منه على النحو التالى :

١ — رأى السهروردى : " أنهم كانوا نحوا من أربعمائة رجل ، لم تكن لهم مساكن بالمدينة ، ولاعشائر " جمعوا أنفسهم

(١) عوارف المعارف ص ٦٢ ، ٦٣
(٢) المصدر السابق ص ٦٤

فى المسجد " (١) ولم يقدم لنا صاحب الرأى مدعماته ، ولا الأدلة التى تعضده ، من ثم كان رأيه مرسلا .

٢ — رأى ابن تيمية : يقول فيه ". وأما عددهم فقد جمع أبو عبد الرحمن السلمى تاريخهم ، وهم نحو من ستمائة أو سبعمائة ، أو نحو ذلك ، ولم يكونوا مجتمعين فى وقت واحد ، بل كان فى شمال المسجد صفة يأوى اليها فقراء المهاجرين ، فمن تأهل منهم أو سافر ، أو خرج غازيا خرج منها ، وقد يكون فى الوقت الواحد فيها السبعون ، أو أقل ، أو أكثر ، ومنهم سعد بن أبى وقاص" أحد العشرة ، وأبو هريرة ، وخبيب ، وسلمان وغيرهم" (٢) .

ويبدو أن هذا الرأى أقرب قبولا ، لأن لغة الحسم فيه قائمة على ترصد للمسألة ، ورصد للموقف ، وهو الأقرب للواقع ، لأنهم لم يكونوا عالة وأصحاب عاهات حتى يظلوا على حال واحدة من الثبات ، كما يمكن فهمه من الرأى الأول ، بل كانوا أصحاب قوة وقتال ، ورغبة فى العمل ، والفرض الذى يمكن قبوله هو أنهم كانوا يزيدون وينقصون طبقا للظروف التى تفرض نفسها عليهم فى بعض الأحيان .

---
(١) عوارف المعارف ص ٦٢ (٢) ابن تيمية — التصوف ص ٨١

والدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يجرى الارزاق عليهم ، وأحيانا أخرى " يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع واحد ثلاثة ، ومع الأخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ ، رضى الله عنه - يحمل الى بيته منهم ثمانية يطعمهم " (١) .

وذكر المؤرخون فى التصوف عن أهل الصفة الكثير ، ومنها أن عددهم لايمكن التحقق منه على سبيل التأكيد والحسم لكنهم فى الأغلب الأعم كانوا يترددون فيما بين هذه الأعداد التى أشار اليها الرأى الثانى ، وربما يدعمه ما ذكر المؤرخون فى التصوف من أن : أبا هريرة - رضى الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب واحد ، منهم من لايبلغ ركبتيه فاذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته " (٢) .

ومما لاشك فيه هو أن أهل الصفة كانوا من أهل العلم والفضل ، كما أن الصفة بينها وبين التصوف علاقة قوية وامتداد لايمكن تجاهله ولا مانع من أن يكون التصوف مشتقا من الصفة على النحو الذى سلف بيانه ، وقد ذكر السهروردى أن المعنى صحيح " لأن الصوفية

---

(١) عوارف المعارف ص ٦٣

(٢) المصدر السابق ص ٦٤

يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين ، متصاحبين لله وفى الله كأصحاب الصفة " (١) والمشابهة قائمة فلا يصح انكارها .

٥ ـ مشـــتق من لبس الصـــوف :

وهذا المعنى يتكرر لدى كثير من مؤرخـي التصوف" وكأنه وحده فى الميدان العلمى الذى يجب قبوله ، وليس الأمر كذلك ، لأن كـل الآراء السالفة تصح قبولها على وجه من الوجوه التى سلفت الاشـــارة اليها ، وذكر صاحب عوارف المعارف أن التصوف مشتق من لبس الصوف.

يقول : " فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة ، واستغراقهم فى أمر الآخرة ، فلم يتفرغـــوا لملاذ النفوس وراحاتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف همـمهـــم الى أمر الآخرة .

ثم ينتهى الى القول : " وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيـــث الاشتقاق ، لأنه يقال : تصوف اذا لبس الصوف ، كما يقال تقمص اذا لبس القميص .... واذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان البعد بحالهم .

---

(١) عوارق المعارف ص ٦٢

ودعم هذا الرأى بمدعمات منها :

أ - اشتهارهم بلبس الصوف " لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم الى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى .

ب - سموا صوفية للبسهم الصوف ، وهو أليق وأقرب الى التواضع الذى هو سمة الصوفية .

جـ - أنهم لما أثروا الذبول والخمول ، والتواضع والانكسار ، والتخفى والتوارى ، وكانوا كالخرقة الملقاة ، والصوفة المرمية التى لايرغب فيها ، ولايلتفت اليها ، فيقال صوفى نسبة الى الصوفة .

د - لم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد " (١) .

ولم يسلم ابن تيمية بهذه الفكرة - اختصاصهم بلبس الصوف - وقرر أن لبس الصوف قاسم مشترك بينهم وبين غيرهم ، وقرر أن محمد بن سيرين " بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف فقال : " ان قوما يتخيرون الصوف ، يقولون أنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم ، وهدى نبينا أحب

---

(١) عوارف المعارف ص ٦١ ، ٦٢ بتصرف .

الينا ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره " (١) اذن لبس الصوف ـ من وجهة نظر ابن تيمية ـ لايمكن اشتقاق التصوف منه ، والمشهور أنه اذا تعارضت الأدلة تساقطت .

لكن أبو نعيم يؤكد أن اشتقاق التصوف من الصوف يوافقه الاشتقاق العام ، والظاهر من حال القوم ، وأنه اذا " أخذ ـ التصوف ـ من الصوف المعروف ، فهو لاختيارهم لباس الصوف ، اذ لا كلفة للآدميين في اتيانه وانشائه ، وأن النفوس الشاردة تذلل بلباس الصوف" (٢) .

لكن هناك محاولة قام بها أبو نعيم حتى انتهى الى أن كل المفردات التي قيل عن اشتقاق التصوف منها يمكن قبولها ، حسب الاشتقاق العام ، لاحسب النسبة التي وقف عندها أصحاب التقورات العنيفة ، والحق أن اختيار أبي نعيم كان موفقا لكون الكلمة فعلاً يمكن قبسها من كافة المفردات التي أحاطت بها .

ووافق الكلاباذي القائلين بأنها مشتقة من الصوف ، وأكد أن اشتقاقها من الصوف يفيد ، استقامة اللفظ ، وصحة العبارة

---

(١) ابن تيمية ـ التصوف ص ٧
(٢) أبو نعيم ـ حلية الأولياء جـ ١ ص ١٧ وما بعدها .

من حيث اللغة " وجميع المعانى كلها من التخلى عن الدنيا وعزوف النفس عنها ، وترك الأوطان ولزوم الأسفار " (١) وكما ذكرت فــان ابن تيمية ومن معه يرفضون هذا الرأى بأدلة صحت لديهم ، والقشيرى نفسه يؤكد أن " القوم لم يختصوا بلبس الصوف " (٢) وحدهم .

ويزعم بعض المتسرعين فى البحث أن الدكتور عبد الحليم محمود يؤكد كونها من الصوف ، ولو أمعنوا النظر لتغيرت مواقفهم ، ولكن ما الحيلة وهم يأتون العلم من الأبواب الخلفية ، أو قفزا فــوق أسوار الآخرين ، عن طريق القبس منهم ، أو النقل غير المقبـــول ان لم تكن السرقة من مجهودات غيرهم ، وتلك امكانياتهم ، وربما حملوا أسماء رنانة ، أو أمطرهم السذج بعبارات طنانة ، وهـــاك رأى الشيخ لعلهم يتدبرون .

" الدكتور عبد الحليم محمود — رحمه الله — من العقـــلاء القلائل ، فهو افترض أن رأى القائلين باشتقاقها من الصوف ربمـــا يغلب غيره ، ويسلّم به الخصم ، فاذا انتهى الى هذا الموقف كانت النتيجة كما هو معروف لدى المناطقة من أن تسليم الخصم بالمقدمات

(١) الكلاباذى — التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٤ تحقيق دكتور عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى ط الحلبى ١٣٨٠ هـ .
(٢) القشيرية جـ ٢ ص ٥٥٠ تحقيق د / عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى ط أولى ١٩٦٦ م .

ولو فاسدة ، يلزمه قبول نتائجها .

فالشيخ يقول — على سبيل الفرض — " واذا كانت الكلمة تنسب الى الصوف "، لاحظ التعبير باذا كانت الكلمة تنسب الى الصوف لم يقل أن الكلمة صحت نسبتها الى الصوف، أو أنها مشتقة من الصوف أو أنه يدعم هذا الرأى ، يامن تنقلون متسرعين اتقوا الله فى العلم والعلماء العاملين .

يقول الشيخ "واذا كانت الكلمة تنسب الى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق، ولعل عناية المقادير هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع، اذ أنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية الى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف" (١) .

ومن هذه المعانى التى تشتق منها الكلمة ولها علاقة وثيقة بالتصوف — حسب رأيه — الصفاء، والصف الأول، والصفة ، والصفة الجميلة حتى سوفيا اليونانية التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص" (٢) اذن رأى الشيخ هو نفسه رأى أبى نعيم (٣) والمورد نفس المورد ، وهو الذى يبدو بوضوح لمن أنعم النظر ، وبعد عن النقل وادعاء العلم .

---

(١) د / عبد الحليم محمود — المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف ص ٢٢٢ ط ٧ دار الكتب الحديثة ١٩٧٢م .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٣) أبو نعيم — حلية الأولياء ج ١ ص ١٧ ومابعدها .

٦ — مشتق من صوفة :

يذكر مؤرخو التصوف وأصحاب السِّيَر ، أن امرأة فى الجاهلية تخلفت عن قريناتها فى الحمل والولادة ، فلما حملت ووضعت لم يعش لها ولد ، ولما لم يعش لها ولد فقد أتت الكعبة للطواف بهـا — وكانت من عاداتهم فى الجاهلية — وفاضت مشاعرها ان حملت هذه المرة لتنذرنه للكعبة — ولم يكن نذر الأبناء فى الجاهلية عادة — فما ان عادت الى ديار قومها حتى حملت ، ومضت أيام حملها حتى وضعت وليدها .

بيد أنها حاولت الوفاء بنذرها فلم يكن لها من سبيل ، اذ تردد الغلمان ولعبهم حول الكعبة جعل ابنها يند من بينهم فربما لم تتعرف عليه الا بصعوبة ، وبخاصة أنها ظلّت تتردد على الكعبة ، ومعها وليدها الذى كانت تصفه — أحيانا — بأنه ضحية الله — من ثَمّ فقد علقت برأسه صوفة مما كانت تغزله ، حتى يتميز عن باقى الغلمان اذا غاب عنها وفكرت فى البحث عنه .

لكن تختلف الروايات فى اسمه اختلافا يسيرا ، فمنهم من ينقل أن اسمه كان بشر بن أد بن طابخة " (١) ومنهم من ينقل أن اسمه

(١) ابن تيمية — التصوف ص ٦

" الغوث بن مر بن طابخة " (١) ، ومنهم قائل أنه " صوفة بن مراد أ بن أد أ بن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يجاورون البيت " (٢) ، وسواء كان اسمه الغوث أو بشر ، فان هذا الأمر وارد ، فربما هما اسم لشخص واحد عرف لدى قوم باسم ولدى آخرين بآخر ، كالحال مع جد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبد المطلب ، فقد سمى بعبد المطلب ، كما عرف بشيبة الحمد ، وكان تعدد الأسماء لدى العرب أمرا قائما .

من ثم . يمكن القول بأن هذا الوليد تسمى فى ديار قومه بأحد الأسمين ، وفى ديار القرشيين حين كان يتردد على الكعبة صغيرا - بالاسم الآخر ، ومايزال الناس الى عهد قريب ، يطلقون على الوحيد اسمين أو أكثر خشية الحسد ، أو تعويضا عن الأبن الذى فقدوه من قبل .

على أن الذى لايمكن تجاهله هو وجود هذا الرجل فى الجاهلية وأنه عاش فترة مديدة ، وأنه أدام الطواف بالبيت ، والتردد عليه حتى كان أشبه ما يكون بالمطوفين فى النظام الحديث ، وسواء كان الرجل

---

(١) ابن الجوزى - تلبيس أبليس ص ١٧٢

(٢) ابن تيمية - علم السلوك ص ٣٦٩ .

منحدرا من أصل لقبيلة يمنية أو من احد أفخاذ العرب القريبين من مكة ، فان الذى نعنيه أنه ظل يتردد على الكعبة ، والقيام بواجبات الطواف حولها .

وتذكر الروايات أن هذا الوليد قد صغر حجمه ، وذبل جسمه اذا قورن بغيره من القرناء ، وأنه كان — فى صغره — قليل الطعام حتى أن نحافة جسمه ، وذبول وجهه دعت أمه الى وصفه بأنه ما هو الا صوفة نتفت من جسم حيوان فصارت نحيلة لاتقوى على مواجهة الأحداث ، أو مقاومة الرياح .

بينما يذكر بعض المؤرخين أن الوليد كان طبيعيا فى نموه ، وانه كان جيد الصحة ، لكن أمه كانت تخاف الحسد ، فاذا تعرض لها أحد يذكر وليدها قالت ان ابنى ما هو الا صوفة ، كأنها تقصد أن ابنها وحيد ليس له اخوة يقاومون عنه ، ويحتمى بهم ، كالصوفة الوحيدة التى لاتحميها أترابها ، ثم غلبت صفته عليه ، فكانوا ينادونه " صوفة " .

على أن ما يمكن الالتفات اليه هو وجود مثل هذا الرجل الذى لزم حالة واحدة استمر عليها طيلة عمره ، وجاء بنوه من بعده ، وعلى

نفس المنهج ساروا ، وذكر المؤرخون أنه " كان قوم فى الجاهليـــة يقال لهم صوفة انقطعوا الى الله عز وجل ، وقطنوا الكعبة ، فمـــن تشبه بهم فهم الصوفية ، وهؤلاء المعروفون بصوفة : ولد الغوث بن مر ابن أخى تميم بن مر" (١) .

وتذكر الآثار أن ولد الغوث كانت فيهم الاجازة بالناس من عرفة ، وأنهم توارثوا هذه المسألة عن والدهم نفسه ، وراحت تترى فى الأبناء والحفدة ، وعرفوا جميعا بهذا الاسم ، وكان الحج واجازة الناس من عرفة الى منى ، ومن منى الى مكة لصوفة ، فلم تزل الاجازة فى عقب صوفة حتى أخذتها عدوان ، فلم تزل فى عدوان حتى أخذتها قريش (٢)

بيد أنه سواء كان صوفة اسم لشخص ، أو لقب لعائلة ، فـــان الذى لاجدال حوله هو أن صوفة من الألفاظ التى كانت مستعملة ، والألقاب الجارية حتى أنها كانت تقال لكل " من ولى من أمر البيت الحرام - شيئا من غير أهله ، أو قام بشىء من أمر المناسك (٣) وهــو كذلك ربيط الكعبة لخدمة الله والقيام على واجبات أضيافه .

---

(١) ابن الجوزى - تلبيس أبليس ص ١٧٢

(٢) تلبيس أبليس ص ١٧٢

(٣) المصدر السابق ص ١٧٢ .

" ولا ضير بعد ذلك أن يتخذ الصوفية — على وجه الخصوص — كلمة التصوف — نسبة الى صوفة ، الى المنفرد بالله بجانب الكعبة ، فيختصون بها ، حين تتعمم المسائل ، وتضعف الروابط القبلية ، وأن يكون صوفية الاسلام هم القبيلة الاسلامية الزاهدة مقابلة فى هذا لصوفة الجاهلية ، القبيلة الجاهلية الزاهدة " (١)

غير أن ٠ ابن تيمية يستبعد هذا الاشتقاق ويهاجم هذا المنحى قائلا : " وهذا وان كان موافقا للنسب من جهة اللفظ فانه ضعيف لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ، ولأنه لو نسب النساك الى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفى لا يعرف هذه القبيلة ، ولا يرضى أن يكون مضافا الى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الاسلام " (٢) ٠

وتابع ابن تيمية فى انكار اشتقاق التصوف من صوفة كثير من التوابع ، وكلهم ركز على أنها قبيلة جاهلية ولا يصح لمسلم الانتساب اليها ، وربما غاب عنهم أمران :

---

(١) د / على سامى النشار — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج٣ ، ص ٤٠ ط ٨ ٠

(٢) شيخ الاسلام ابن تيمية — التصوف ص ٦ ٠

الأول : تأكيد الرسول صلى الله عليه وسلم على أن كل أمر في الجاهلية أقره الاسلام فهو له ، وكل أمر من عادات الجاهلية نهى عنه الاسلام فهو منهي عنه ، وقوله صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول الجاهلي :

" لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت " (١) وصار هذا الأمر قاعدة عامة ، ومادام الأمر لم يخالف شرعنا فماذا فيه ، وهل قال أحد بالانتساب اليه ؟

الثاني : ان شيخ الاسلام ابن تيمية نفسه يقر بنسبة التصوف الى صوفة ويبد و أنه راجع موقفه السابق فلم يرق له ، من ثم عاد عنه ، وفي ذات الوقت حاول تلمس المخارج لصحة الانتساب اليه يقول رحمه الله :

" والنسبة في الصوفية الى الصوف ، لأنه غالب لباس الزهاد ، وقد قيل هو نسبة الى صوفة بن مراد بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون حول البيت ... ويذكر باقي الآراء ثم يعقب عليها بقوله :

" لكن التحقيق أن هذه النسب انما اطلقت على طريق الاشتقاق الأكبر والأوسط ، دون الاشتقاق الأصغر ، كما قال أبو جعفر العامة اسم مشتق من العمى ، فراعوا الاشتراك في الحروف دون الترتيب ، وهو

---

(١) ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٠ وابن هشام سيرة النبي جـ ١ ص ١٧٨ .

الاشتقاق الأوسط ، أو الاشتراك فى جنس الحروف دون أعيانها وهو الأكبر ، وعلى الأوسط قول نحاة الكوفة الاسم مشتق من السمة ، وكذلك اذا قيل الصوفى من الصفا ، واما اذا قيل هو من الصفة أو الصف فهو على الأكبر" (١) .

اذن رفض الانتساب الى صوفة قائم ، أما ان يشتق منه لفظ التصوف أو ينحت منه وصف الصوفى فلا شئ فيه على ما سلف بيانه ، سواء على ناحية الاشتقاق الأكبر أو الأوسط أو الأصغر على ماكشف عنه ابن تيمية ، كما أن الغاية لدى صوفة ومن كان على نهجه من أولاد ابن مر ، هى الطواف بالبيت ، واجازة الحجيج ، والخدمة لبيت الله واضيافه ، فاذا قام بها مؤمن موحد فما العيب اذن ، بل ما هو الأمر الغير مرغوب .

ثم من يدرينا . فلعل التاريخ قد رحل عنا ، وذهب أولاد ابن مر — صوفة اليمن — بما قدمت أيديهم ، من احترام لشعائر الله ، والقيام على واجباتها دون نظر لما يتعلق بالدنيا والآمال فيها ، بدليل أنهم كانوا ينفقون ما يملكون ، حتى كانت الأعمال التى يقومون بها تذبل أجسادهم وتضعف أموالهم ، فصاروا يشبهون الصوفة النحيلة

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — علم السلوك مجموع الفتاوى مجلد ١٠ ص٣٦٩

التى لايمكنهـا مقاومة الا بعون من أترابها والقرينات ؤالصوفيـة كالحال من هذه الناحية .

كما أن الاشتراك فى مادة ص و ف قائم بين صوفة ، وبيـن صوفى ، وتصوف ، وبالتالى فالاشتقاق ثابت وانكاره ليست تنهض معه حجة ، الا أن تكون جدلا غير مؤد لنتيجة مقبولة ، يقول أبو نعيم : " ان أخذ التصوف من الصوفة التى هى القبيلة ، فلأن المتصـوف فيما كفـى من حاله ، ونعم من مآله ، وأعطى من عقباه ، وحفظ من حظ دنياه ، أحد اعلام الهدى لعدُولهم عن الموبقات واجتهادهم فى القربات" (١) فلا مانع من أن تكون صوفة قد استق منها التصوف.

وربما كان الزهاد قبل الاسلام صورة راقية بعيدة كل البعـد عن الاتجاه الجاهلى ، " وهؤلاء الزهاد كانوا موجودين فى صـدر الاسلام تدينا أو منطقيا " (٢) ولانقصد أن صوفية الاسلام امتـداد لزهاد الجاهليـة ، وانما نميل الى أن اشتقاق التصوف من صوف مقبول على الناحية التى سلفت .

---

(١) أبو نعيم ـ حلية الأولياء جـ ١ ص ١٨
(٢) الدكتور / عبد الحليم محمود ـ المنقذ من الضلال ص ٢٢٢ ط٧

٧ — مشتق من صوفانة :

وهى نوع من البقليات التى تنمو فى الصحراء ، قصيرة الجسم ، نحيلة الفروع والأغصان "والصوفانة بالضم بقلة زغباء قصيرة" (١) وهى فى كل حالاتها يغلب نموها فى الصحراء ، وان غرست فى غيرها نمت ببطء شديد ، ثم هى لاتأخذ من غيرها ولا تحمل عليه ، تعيش كأنها منفردة ، ولها عشب له زغب يشبه الصوف .

ووجه المشاكلة بين الصوفانة والصوفية هو أنهم حملوا أنفسهم على الطاعة ، ولم يعتمدوا على أحد ، واكتفوا بالتأمل الدقيق فيما صنع الله ، والاستمرار على توحيده ، جل علاه يقول أبو نعيم " ان أخذ التصوف من الصوفانة : التى هى البقلة ، فلاجتزاء القوم مما توحد الله عز وجل بصنعه ، ومنّ به عليهم من غير تكلف بخلقه" (٢) .

اذن الاشتقاق العام يعطى جواز اشتقاق التصوف من الصوفانة ووجه المشابهة قائم ، ولايعطى صحة الانتساب اليها ، وفى ذات الوقت فان كل اعتراض يوجه الى اشتقاق التصوف من الصوفانة وغيرها مدفوع متى كان على ناحية النسب لا ما كان على جهة الاشتقاق العام .

---

(١) القاموس المحيط باب الفاء فصل الصاد وما يناكشها جـ٣ ص ١٥٩

(٢) أبو نعيم — حلية الأولياء جـ١ صـ١٨ .

كما أن مادة صوفانة لاتخرج عن الحروف الأولى وهى ص و ف التى هى نفس المادة الأولى للتصوف والصوفى ، والاشتقاق الخاص يؤيد ما ذهب اليه أبو نعيم ، كما أن صاحب جمع الجوامع قد مال اليه . ولا مشاحة فى الاصطلاح اذا أمكن تطبيقه من غير ممانعة .

٨ - مشتق من صوفة القفا :

يذكر المؤرخون أن المرأة التى نذرت وليدها علقت برأسه صوفة من ناحية قفاه حتى اذا راحت تبحث عنه بين الغلمان عرفته من مؤخرة رأسه عن طريق الصوفة التى علقت بقفاه ، تمييزا له عن الأقران وأبو نعيم يرى أن اشتقاق التصوف من صوفة القفا ليس ببعيد ، بل هو أمر وارد تعضده أحوال الصوفية ومقاماتهم .

يقول : " ان أخذ - التصوف - من صوفة القفا : فمعناه أن المتصوف معطوف به الى الحق ، مصروف عن الخلق لايريد به - بالله - بدلا " (١) ، ولاشك أن المعنى مقبول وان كان فيه بعد مرده الى تصوير المعنى لا اطلاق اللفظ لأن العلماء لم يقيدوا الاشتقاق باللفظ وحده ، أو بالمعنى وحده ، وانما أطلقوا الاشتقاق حتى يقع باللفظ أو المعنى أو بهما حتى لو كان بالمشاركة فى الحروف التى هى مادة الكلمة

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٩ .

وعليها تقوم ، كما أن صوفة القفا " هي الشعرات النابتة في مؤخره ، فكأن الصوفي عطف به الى الحق ، وصرفه عن الخلق " (١) .

ويذكر الدكتور النشار ما انتهى اليه أحد الباحثين (٢) من أن " صوفة جاءت من الصوف الذي علق برأس الغوث باعتباره ضحية اللــه أو حملا من هدى الكعبة ، أو ضأن الله - وان الباحث نفسه - تتبع فكرة ضأن الله في التراث الاسلامي والجاهلي ، ثم ربط تحليله لكلمة صوفة باعتبارها تعني - ضأن الله بفكرة الذبيح عند ابراهيم واسماعيل واسحاق (٢) . والدكتور يزكي هذه الفكرة ، ويحكم عليها بأنها تتلاقى مع جانبين هما :

(١) اشتقاقها من الصوف ظاهريا .

(٢) اشتقاقها من فكرة التضحية بالذات باطنيا .

يقول : " والفكرة ذكية بلا شك ، وان كانت تعود في نهاية الأمر الى اشتقاق الكلمة ظاهريا من الصوفي ، وباطنيا من فكرة التضحيــة بالذات ، وكلتاهما تتحقق في التصوف " (٤) من حيث أن الصوفي يهمل

---

(١) أبو الفرج ابن الجوزي - تلبيس ابليس ص ١٧٣

(٢) د / كامل الشيبي أحد البحاثة العراقيين - مجلة كلية الآداب - العراقية عام ١٩٦٢م ص ٧/١ .

(٣) د / علي سامي النشار - نشأة الفكر الفلسفي والاسلام جـ٣ ص٤٠ ط ٨ دار المعارف بمصر .

(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ٤١ ط ٨ دار المعارف بمصر .

الدنيا ويقبل على الآخرة ، ويعيش باطنه عيشة خاصة تقوم — فى أرقى — مراحلها على حب الله تعالى والتعلق به ، والتمسك بما عنده ٠

لكن فكرة ضأن الله ، أو حمل الله ، ليس لها أصل فى التراث الاسلامى ، والا فليقل لنا أين عثر عليها ؟ ربما توجد فكرة ضأن الله فى المسيحية باعتبار أن المسيح يسوع — من وجهة نظرهم — ضحى به تكفيرا عن خطايا البشرية (١) ، لاعتبارات خاصة لاتنطبق الا عليه ، وهو فى ذات الوقت يصفونه بأنه حمل الله الوديع ٠

اما أن يكون هذا فى التراث الاسلامى فأمر لاوجود له ، وهو غريب على الفكر الاسلامى ، فاذا نسبه الدكتور النشار الى التراث الاسلامى فحرى به أن يدلنى على مصادره ، وبخاصة أن الله تعالى نبه الى خطورة هذا الفهم لو وقع ٠ قال تعالى : " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم " (٢) وكان الأولى مراجعة هذه الأفكار وردها الى مواقعها من فكر أصحابها ٠

(١) يزعم أتباع المسيحية أن عيسى عليه السلام صلب وقتل تكفيرا عن خطيئة بني البشر حتى أطلقوا عليه لقب حمل الله الوديع وضأن الله بينما القرآن الكريم قد كشف زيفهم وأبان باطلهم ، وأن عيسى عليه السلام نجاه الله من بين أيدى خصومه من غير قتل أو صلب ٠ قال تعالى : " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم " ٠

(٢) سورة الحج الآية رقم (٣٧) ٠

هكذا انتهى عرضنا لمسألة اشتقاق التصوف ، وبان لنا الوجوه التي يمكن احالته على الاشتقاق منها ، وبينا أنها جميعا يمكن قبولها لكن على نواح مختلفة من حيث القرب والبعد ، كما بينا أن اتجاه القوم في رفضها قام على النسب وليس على الاشتقاق ، وان قاعدة النسب تجعل بعض العسر في قبول هذه الأوجه ، بينما الاشتقاق الخاص أو العام لايوجد فيه أي نوع من العسر على ما مر بيانه فلنرحل الى ناحية أخرى غير الاشتقاق .

واذا كنا قد فرغنا من الحديث عن اشتقاق التصوف والآراء فيه فانه يحسن للدارس التعرف على ماهية الجمود والاشتقاق على شكل سؤال وجوابه حتى تكون لديه فكرة صرفية عن المسألة من هذه الناحية .

س ما هي أقسام الاسم من حيث الجمود والاشتقاق ؟

ج ينقسم الى قسمين : جامد ، ومشتق .

س ما هو الجامد من الأسماء ؟

ج هو ما لم يؤخذ من غيره ، ودل على ذات أو معنى ، من غير ملاحظة صفة ، كرجل وضوء .

س الى كم ينقسم الجامد من الأسماء ؟

ج ينقسم الى قسمين : اسم معنى واسم ذات .

س ما هو اسم المعنى ؟

ج هو ما دل على معنى قائم بغيره كضـوء .

س ما هو اسم الذات ؟

ج هو ما دل على معنى قائم بنفسه كرجـل .

س ما هو المشتق من الأسـماء ؟

ج هو ما أخذ من غيره ، ودل على ذات ، مع ملاحظة صفة كظريف

س ما هو الاشـتقاق ؟

ج هو أخذ كلمة من أخرى مع تناسب بينهما فى المعنى ، وتغيير فى اللفظ كاشتقاق الصوفى من الصفة ، أو من الصوفة ، أو من الصفاء ... الخ .

س الى كم ينقسم الاشتقاق ؟

ج ينقسم الى ثلاثة أقسام : صغير ، وكبير ، وأكبر .

س ما هو الاشتقاق الصغير ؟

ج هو ما اتحدت فيه الكلمتان حروفا وترتيبا ، كفهم من الفهـم وأكل من الأكل ، وصوف من الصـوف .

س ما هو الاشتقاق الكبير ؟

ج هو ما اتحدت فيه الكلمتان حروفا لا ترتيبا ، كجبذ من الجذب وربح من الرحب .

س ما هو الأكبر ؟

جـ هو ما اتحدت فيه الكلمتان فى أكثر الحروف ، مع تناسب فى الباقى كنعق من النهق (١) فان حروفهما النون والقاف فيهما اتحاد ، والمعنى متناسب لأن النعق والنهق من أسماء الأصوات للحيوان .

وعلى هذا يكون التصوف مشتقا من كافة الأوجه التى وردت ، ولا ممانعة من جهة الاشتقاق .

ثانيا : انها عَلَمٌ منقول :

يرى البعض أن التصوف والصوفى علمان منقولان من الوصفية الى العلمية ، وأن الوصف سابق على الاسم ، كما أنهما لم يصيرا للعلمية الا بعد النقل والعدل على ما يقول به علماء الفن نفسه ، مثل نقل فضل من فضل ، ونعمان من أنعم ، وابن مالك يقرر فى هذا الشأن أحكاما منها دخول حرف أل عليه مراعاة للأصل السابق له قبل النقل يقول :

---

(١) الشيخ سعد الدين بن سعد حمزة – الجواب الظريف عن السؤال فى فن التصريف ص ١٨ ، ١٩ ط أولى مطبعة الجمالية عام ١٣٣٢ هـ .

وبعض الأعلام عليه دخلا   للمح ما قد كان عنه نقلا

كالفضل والحارث والنعمان   فذكر ذا وحذفه سيان

وقد يصير علما بالغلبة   مضاف أو مصحوب ال كالعقبة (١)

لكن من صاحب الوصف الذى نقل الى العلمية ؟ الجواب يذكر بكرة لدى مؤرخى الصوفية ، حيث يقص صاحب اللمع مثلا : أن "الحسن البصرى قال : رأيت صوفيا فى الطواف أعطيته شيئا فلم يأخذه ، وقال – الصوفى – معه أربعة دوانيق فيكفينى ما معى" (٢) ، ومعنى هذا أن صوفيا هذا يحتمل أن يكون وصفا للرجل ، ويحتمل أن يكون هو اسمه ، ثم نقل من الوصف أو الاسم الى أن صار علما على هذه الطائفة .

ونفس المعنى أكده ، حيث ذكر أنه قبل الاسلام بوقت غير قليل كان البيت يخلو من طائفيه ، وأنه فى بعض الأحيان كان لا يدخل مكة من يطوف بالبيت ، وأنه فى تلك الحال كان أهل مكة يتشوقون لطائف بالبيت يرقبونه بفرح وسرور ، فكان يأتى اليهم رجل من بلد بعيد وكان هذا الرجل صوفيا ، فيطوف بالبيت فاذا أتم طوافه انصرف من غير أن يقيم بمكة أو يتاجر ، فعرف لدى الناس بالصلاح والفضل .

---

(١) ألفية ابن مالك – المعرف بأداة التعريف ص ٣٢٤ مجموع مهمات المتون .

(٢) أبو نصر السراج الطوسى : اللمع ص ٤٢

ويبدو أن آحاد الناس احتك به وتعامل معه ، فعرف أن اسمه صوفي مثلا فراح أهل الفضل والصلاح يقلدون هذا الرجل حتى نسبوا في أفعالهم اليه ، ثم نقل هذا النسب الى العلمية فصار القوم صوفية ، كأنهم امتداد لهذا الرجل في الطواف بالبيت وفعل الخير ، والقيام بما فيه اصلاح وفضل (١) .

وقد هرع بعض العجلى الى الطعن في انتساب صوفية الاسلام الى هذا الصوفي الجاهلي زاعمين تبرئة الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يكن موجودا في الصحابة والتابعين ، وغاب عنهم أن التصوف موجود قبل الاسلام بمعناه من ربط المرء نفسه لخدمة ربه ، وليس موجودا بالشكل الذى هو عليه في الاسلام ، كما أن المعنى ليس هو المعنى ، والغاية فيها نوع من التشابه .

من ثم . فلا يطلق عليه اسم مبتدع لأن الصحابة كانوا يعرفون الزهد والاخلاص ، والتوجه نحو الله رب العالمين ، ولم يكونوا قد تكونت منهم جماعة الفقهاء ، ولا جماعة المفسرين ، بل ولا جماعة المحدثين ، رغم وجود فقهاء فيهم ، ومفسرين منهم ، ومحدثين بينهم ، لأنهم رأوا أن وصف الصحابي أعلى من كل وصف آخر ،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ وما بعدها بتصرف في العبارة مع الاحتفاظ بالمعنى المقصود .

وكونهم يعرفونه ولايستخدمونه من باب الاطلاق على أنفسهم يرفـــع عنهم سمة الجهل به .

فأيهما أولى بالقبول ياسادة أن يعرفوه ولا يطلقوه على أنفسهم مفضلين وصف الصحبة عليه ، كالحال مع الفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم ، أم يتصفوا به تاركين وصف صحبة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم الذين ذكرهم الله في قرآنه وزكاهم الحديث الشريف في قولـــه صلى الله عليه وسلم " أصحابى كالنجوم بأيهم أقتديتم اهتديتم ؟ !ولو كان التصوف بدعة لحمل ابن تيمية عليه ، ونال من الصوفية ، لكـــن الرجل زكى الصوفية ، وطعن على المنتسبين اليهم ، فماذا نحـــن فاعلون مع من لايقرأون ؟!!

ومن غير المقبول أن يجعل دارس فاصلا بين رجال الصوفية وبيـــن السلف الصالح ، حتى لكأنهما فريقان ، فريق الصوفية برجاله ، وفريق السلف ومن سار على نهجهم برجاله ، لأن هذا من التصنيفات التـــى حاول فرضها المستشرقون ، بحيث يجد المسلم نفسه بين طرفيـــــن يتنازعانه أحدهما صوفي والآخر سلفي " وقد وضعت حدا فاصلا بيـــن

الزهاد من رجال التصوف ، وبين غيرهم ممن ساروا سيرة السلف(١)

والحق خلاف ذلك بل هو نفسه اضطرب في الحكم ، وتراجع عن سابق قوله حتى انتهى الى أن التصوف " وليد لحركة الاسلام ذاته ، وانه نتيجة لازمة لفكرة الاسلام عن الله ... قد أحب هؤلاء القوم الله ، ولكن خوفهم اياه كان أقوى وأشد ، وقد أدى بهم الحب الى الاستسلام المطلق لارادة الله" (٢) .

على أن ما يمكن الالتفات اليه هو أن كلمة التصوف أو الصوفي لم يكن ينظر اليها على أنها وافدة ، أو أنها خطر يجب الابتعاد عنه ، بل العكس ظهرت الكلمة لدى المسلمين على أنها مفيدة للمدح حتى أن مؤرخي التصوف يذكرون أبا هاشم الكوفي المعاصر لسفيان الثوري وقد تسمى أبو هاشم بها ، وصار يمتدح بين الناس بهذه الصفة التي أضيفت اليه حتى غلبت على اسمه ، وصارت عليه ومن سار سيرته" (٣) .

ولاتعجب مما مضى اذا علمنا " أن التصوف عندهم - الصوفية - رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله

---

(١) نيكولسون — في التصوف الاسلامي وتاريخه ص٣ ترجمة د / أبو العلا عفيفي .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣ ، ٤ بتصرف في العبارة .
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٨ .

على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم ، والصبر والأخلاص والصدق الى غير ذلك من الخصال الحسنة التى تكسب المدائح فى الدنيا والثواب فى الأخرى " (١) ، من ثم فلا يفزع القوم اذا انتهى أبو نعيم الى أنه قد " أصبح اسم صوفة علما على من انفرد بخدمة الله " (٢) وبنه استفاد الصوفية هذا العلم المنقول ، على ما مر ذكر طرف منه .

ثالثا : أنها لقب على الصوفيــة :

المعلوم فى لغة العرب هو أن العلم ينقسم الى ثلاثة أقسام :

(١) الاسم : هو ما يسمى به صاحبه مباشرة ، كمحمد ، حـازم ، بدر الدين ، هبة الله ، نعمة الله ، رحمة الله .

(٢) الكنيــة : " ماكان فى أوله أب أو أم ، كأبى عبد اللـــه ، وأم الخيــر .

(٣) اللقــب : " ما أشعر بمدح كزين العابدين ، أو ذم كأنف الناقة . (٣)

---

(١) ابن الجوزى — تلبيس أبليس ص ١٧٣
(٢) أبو نعيم — حلية الأولياء ج ١ ص ١٨
(٣) الامام ابن عقيل — شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ص ١٩ ومعها الحاشية .

والامام العمريطي يقول :

ثاني المعارف الشهير بالعلم كجعفر ومكة وكالحرم
وأم عمرو وأبي سعيد ونحو كهف الظلم والرشيد
فما اتى منه بأم أو باب فكنية وغيره اسم أو لقب
فما بمدح أو بذم مشعر فلقب والاسم ما لا يشعر (١)

وتعرضنا للتصوف باعتباره اسما مشتقا ، كما تعرفنا عليه باعتباره علما منقولا ، والأن نخلص الى كونه لقبا على هذه الطائفة من المؤمنين فهل التصوف لقب ؟

اللقب هو ما أشعر بمدح أو ذم " وهو ما بمدح أو ذم مشعر" والتصوف ممدوح باعتباره عملا قلبيا يأخذ بالانسان الى طاعة مولاه فلا ريب أنه لقب يفيد المدح ، أما اذا ادعاه قوم خالفت أفعالهم وأقوالهم ونياتهم تعاليم ربهم ، فلاشك أنه يشعر بالقدح ، ويكون الممدوح أو المقدوح في هذه الناحية ، هو الذى وافق شرع الله فيمدح ، أو خالفه فيقدح .

لكن هل قال أحد أن التصوف لقب على هذه الجماعة يفيد المدح ؟

---

(١) الامام شرف الدين يحى العمريطي - نظم الأجرومية ص ٣٠٦ باب المعرفة والنكرة - مجموع مهمات المتون مطبعة الحلبى ١٣٦٩/٤هـ ١٩٤٩م .

يقول القشيرى : " والأظهر فيه أنه كاللقب " على هذه الجماعة ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ أو اشتقاق " (١) ويرجح أحد الباحثين ميل القشيرى ويقول : ان رأى القشيرى الذى يتلخص فى أن الصوفية تشبه أن تكون لقبا على هذه الطائفة ، قد أصاب فيه كل الاصابة ، اذ هو يقطع ما أثاره البعض من اشكالات لغوية " (٢) .

والحق أن هذا الرأى ليس وليد اليوم ، بل قاله ذات الباحث منذ فترة تجاوزت العشرين عاما " (٣) وكم تمنيت أن يكون قد ليله على اصابة القشيرى ليست قائمة على مجرد قطع الطريق على الاشكالات المثارة ، وكم وددت لو واجه المشكلات المثارة ووجه من النقود ات اليها ما يقطعها بالكلية ، وفى لغة العرب ألف مخرج .

كما لاحظت عدم التوجيه فى افادة التصوف من هذا اللقب أو بمعنى آخر ، ما هى العلاقة بين لقب التصوف والصوفية ؟ أو لماذا لقب هؤلاء بالصوفية ، رغم أن العلاقة بين التصوف والصوفية أوثق أن تحتاج الى كونها لقبا فقط .

---

(١) الامام القشيرى ـ الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٥٠

(٢) د / محمد فوقى حجاج ـ التصوف الاسلامى والأخلاق ص ٢٠ ط ١ سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .

(٣) سبق نشر هذا الجزء فى كتاب "قضايا هامة فى التصوف الاسلامى ص ٢٢ د /محمد فوقى حجاج ، د /محمد مصطفى مكتبة الأزهر ط ١

رابعا : أنها لفظـة جامـدة :

ينسب للقشيرى القول بأن لفظة التصوف جامدة ، لمجرد أنهم رأوا عبارة الرجل يقـول فيها "وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب" (١) فنسبوا اليه القول بأنها جامدة ، والحق خلاف ما ذهبوا اليه ، فلم يقل أنهـا جامدة ، وانما قال ليس يشهد لها ، والفرق بين الأمرين كبير .

فالرجل لم ينف كونها مشتقة ، لكنه لم يجد الأدلة فقط علـى كونها تجرى على قياس أو تقع فى دائرة الاشتقاق ، والمعلوم أن فقدان الدليل ليس شاهدا على هدم وجود المدلول ، لكنهم تجرؤا علـى الرجل ونسبوا اليه أنه " قرر أن الكلمة جامدة ، وأنها تجرى على غير قياس" (٢) .

وفاتهم أن اللفظ يمكن أن يكون سماعيا بدل أن يكون قياسيا ، كما يكون جامدا ومتصرفا ، ومشتقا وغير مشتق ، كما أن الجامد يشترط فيه عدم ملاحظة صفة ، أما التصوف فقد لوحظت فيه الصفة بل هـى قاسم مشترك فى أغلب المعانى المقالة عليه ، وبالتالى لاينصرف تعبير

---

(١) الامام القشيرى ـ الرسالة ص ٢١٦ ط صبيح وبهامشها تحقيقات شيخ الاسلام زكريا الأنصارى .
(٢) د / على سامى النشار ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج٣ ص ٣٨

القشيرى الى أنها جامدة ، وانما ينصرف إلى أنه لم تقع لديه الأدلة والشواهد على أنها مشتقة ، ولكنها ربما وقعت لغيره ، على ناحية من لغة العرب الواسعة ٠

اذن القول بأنها جامدة لم يسلم من ناحية نسبة القول به للقشيرى ، كما لم يسلم من ناحية البحث عنه فى المصادر العربية بل ان الاشتقاق فى الكلمة أظهر ، والذى يراجع أنواع الاشتقاق الثلاثة — الصغير والكبير والأكبر — يرى أنها تقع فى دائرتها جميعا من غير ممانعة على ناحية اللغة (١) ٠

وربما تسألنى : هل غفل هؤلاء جميعا عن أن القشيرى لم يقل بأن الكلمة جامدة ، رغم تواترها فى مؤلفاتهم التى تحمل أسماء لامعة واخرى لها ذيوع وانتشار ؟

والجواب : أننا نعرف الرجال بالحق وليس العكس ، كما أن : الذى نسب القول الى القشيرى هو واحد فقط ، ثم نقلوا عنه لثقتهم فيه ، وكان الأولى الرجوع الى عبارة القشيرى نفسها ، أضف الى ذلك أن مؤلفات الصوفية الأوائل لعبت بها أياد أخرى ، كان غرضها خلط

---

(١) راجع الجواب الظريف عن السؤال فى فن التصريف ص ١٨ ، ١٩ ٠

التصوف الحق بالمنتسب اليه ، حتى تضيع المعالم الصحيحة للتصوف الشرعى (١) ٠

وبالقياس هل لو كانت الكلمة جامدة فلم يكن بامكان الطوسى والكلاباذى وغيرهما من مؤرخى التصوف وأئمة الصوفية ذكر أنها جامدة ، بدل الحديث عن اشتقاقها وأنواع هذا الاشتقاق وطرقه والعلاقة بينه وبين المعنى الأصلى وكلاهما سابق على القشيرى ، بل ومن هؤلاء من كان حجة فى الحديث وعلوم اللغة ٠

كما أن جمهرة الدارسين على أن الكلمة مشتقة — وان تعددت جهات الاشتقاق ومعانيه — فهل ينهض زعم فى مواجهة آراء لها مكانتها العلمية ومنزلتها فى المصادر العربية ؟ انى أشد ميلا الى أن الكلمة مشتقة من كافة المعانى على النحو الذى ذهب اليه أبو نعيم فى الحلية (٢) وانتهى الى قريب منه ابن الجوزى (٣) ومال الى احدها الكلاباذى (٤) ، وزكى آخر الطوسى (٥) ٠

---

(١) وهذا ماحدث بالفعل حيث ترى مؤلفات تحمل أسماء صوفية فيها خيال عارم يربو على معجزات الأنبياء جميعا يسمونها كرامات٠ بل ان بعضها يدعو الى الاقامة بالمقابر وآخر يدعو للسلطان الظالم بالنصر ، ويطالب الناس عدم الخروج عليه الى آخر هذه الخيالات التى تدل على أن يدا طولى لعبت بهذا التراث الروحى فى مرحلة متقدمة ٠ (٢) أبو نعيم حلية الأولياء ج ١ ص ١٧

(٣) تلبيس أبليس ١٦٢ (٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٥٠٠

(٥) اللمع ص ٤ ٠

* آراء مهجـــورة :

هناك آراء ربما نسبت لمسلمين وهى ليست لهم ، أو أنها وقعت منهم ثم صحفت بعدهم ، أو قام عليها أمر التحريف والتزوير بقصـــد الاساءة لتراث المسلمين ، ولأن هذه الآراء لاتمثل قيمة فنية فـــى المسألة ، فان الاشارة اليها تغنى عن تناولها والتركيز عليها ، ولذا سميتها مهجورة فى مقابلة الأخرى التى حازت القبول ، أو بعضـــه من هذه الآراء .

(١) رأى أبى الريحان البيرونى :

يحاول ايجاد علاقة ما بين التصوف والفلسفة من ناحية اللفـــظ أو بين التصوف والفلسفة من ناحية المصطلح الفنى وتلك جهة ، ومـــن ناحية دلالة اللفظ على معانيه من ناحية أخرى ، مما يدفعنا الى فتح صفحات كتابة محاولين التعرف على أفكاره .

أ ـ اشتقاق على معنى الفلسفة :

يرى البيرونى أن التصوف مأخوذ من SOFIA والتى معناهـــا الحكمة ، وعليه فان الصوفى هو الحكيم ، والحكيم هو الصوفى لافـــرق بين الأمرين . وعرف الهنود قبل لفظ سوفيا بمعنى الحكيم مرة ومعنى

وبمعنى المسكين أخرى ، وبمعنى محبى الحكمة ثالثة ، وربما كـان ميل البيرونى الى اشتقاق الكلمة من صوفيا اليونانية مجرد ملاحظـة وقعت له ، حتى تصور وجود قواسم مشتركة بين الصوفية والهنــود لمجرد الاشتراك فى بعض مطروحات الرأى ، أو بعض مظاهـــر السلوك ، أو وسائله ، كالخلوة مثلا ، أو الزهد " (١) .

لكن هذه المشابهة لاتحسم المسألة لصالح أن التصوف مأخوذ من صوفيا اليونانية ، بل تزيد المسألة غموضا وقلقا ، ذلك لأن ـ دراسة مقارنة الأديان تلزم صاحبها بضرورة البحث عن أوجه الاتفاق والاختلاف فى الظاهرة الدينية الموضوعة للمقارنة حتى ولو كانت مجرد لفظ يستخدم على أنحاء متعددة ، أو فكرة طارئة ، أو مسمى بعينه ولابد من بحث المصادر التى أعتمد عليها الطرفان حتى يمكـــن التعرف على الأصيل منها والدخيل ، أو تميز صاحب الحق من مدعيه وهذا مالم يحدث مع البيرونى ، ولم يحتط هو نفسه اليه ، بل ربمـا نسب الرأى اليه ولم يقل به .

---

(١) أبو الريحان البيرونى ـ تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ح ١ ص ٢٤ ، ٢٥ بتصرف يسير فى العبارة .

ب ـ اشتقاق على دلالة اللفظ :

يذهب الدارسون الى أن رأى البيرونى يمثل فرضا لم تثبت صحته لأن زعمه قبس كلمة التصوف من صوفيا يجره الى قبول ترجمتها الحرفية باعتبارها دالة اللفظ نفسه التى تؤدى فى النهاية الى : " الجيمنو سوفيست " ، وأن هذه الكلمة عبارة عن " أسم أطلقه اليونان على نوع من الهنود العراة كانوا يتنقلون من مكان الى مكان فى سياحة دائمة ، يتأملون فى الله ويعيشون فيه " .

وطبقا لهذا المعنى القريب فلابد من قبول فكرة زائفة مؤداها : أن التصوف الاسلامى مرتبط بالبوذية خاصة ، والأديان الهندية عامة (١) ، ولايعرف اشتقاق بهذا المعنى ، انما الذى يمكن قوله هو نحت الكلمة وهو هنا غير صحيح ، لأن النحت اللغوى له شروط عديدة ، أبرزها معرفة المعنى الأصلى للكلمة فى لغة قومها ، والمعنى الذى تنقل اليه فى اللغة الأخرى ، وهذا لم يحدث ، والا كان دورا ظاهرا وهو باطل .

---

(١) الدكتور / على سامى النشار ـ نشأة الفكر الفلسفى جـ٣ ص ٤٦ وص ٤٧ طبعة ٨ .

لأنه يلزم أن يعرف الصوفية معنى الجيمنو سوفيست أولا ، ثم يتعرفوا على المكان الفارغ في لغتهم هم ثانيا ، ثم يطالبوا بنحت اللفظ الأول ووضعه مكان الثاني ، كما أن رأي البيروني لا يجد سندا ولو شكليا يعتمد عليه ، لتخالف اللغتين ، وتباعد المعنيين الكامنين في لفظي تصوف وفلسفة ، ولا اعتداد بالقول بأن " سوفيا اليونانية التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص(١) يمكن قبس التصوف الاسلامي منها ، ولا يمكن قبول رأي البيروني ، وكذا سيته رأيا مهجورا .

ورأي البيروني لا اعتداد به أما لماذا ؟ فلما يلي :

أولا : أن البيروني ولع بالحديث عن الهنود وثقافاتهم وسلوكهم ، حتى كأنه يؤرخ لهم ، ويكتب عنهم ، وانتهى به المطاف الى القول بأن الصوفية في الاسلام مالوا الى القول بالتناسخ بين الدنيا والآخرة ، حيث زعم أن الصوفية في الاسلام يرون للدنيا نفسا نائمة ، وللأخرى نفسا يقظى ، وأن الحق جل علاه يحل في الأماكن ذاتها كالسماء والعرش والكرسي .

(١) د / عبد الحليم محمود — المنقذ من الضلال ص ٣٦ في أبحاثه المتعلقة بالتصوف والمنشور مع المنقذ من الضلال — دار الكتب الحديثة .

وذكر أن بعضهم — الصوفية — يجيز ذلك في دار الدنيا ،
حتى دعاه هذا الى القول بأنهم يركزون على مصطلح " الظهور
الكلي ، ولم يخف الرجل تصور من وجود نسب قوى بين الصوفية
في الاسلام وصوفية المسيحية ، وزهاد الهنود ، وانتهى الى
القول بأنهم جميعا يؤمنون بالحلول والاتحاد " (١) .

وهذا في حد ذاته يؤدى بنا الى القول بأن البيرونى فقدت
شهادته أهم مقوماتها وهي الحيدة والموضوعية ، بجانب صحة
نسبة الآراء لأصحابها ، والتأكد على مصادرها التي استقيت منها .

ثانيا : أن رأى البيروني ليس له دليل يعضده ، غير المشابهة
الظاهرة التي رددها المحققون من المسلمين والمستشرقين ، فمن
المسلمين جمع غفير على سبيل المثال موقف الدكتور زكي مبارك الذى
يرفض رأى البيرونى وأن التصوف مشتق من سوفيا ، وتساءل الرجل
لماذا لم يكن الأمر بخلاف ذلك ، وأن كلمة تصوف العربية هي التي
اقتبست منها كلمة سوفيا اليونانية ، وليس العكس ، وبخاصة أن كلمة
تصوف وصوفية عرفتا عند العرب في عصرهم الجاهلى ، ولايبعد أن
تكون هذه الكلمة قد رحلت من بلاد العرب الى بلاد اليونان ،

(١) أبو ريحان البيرونى — تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٢ — ٠٢٩

فكانت صوفى وتصوف عند العرب ، وكانت سوفيا عند اليونان " (١) ،
كذلك الدكتور عبد الحليم محمود يكشف أن رأى البيرونى غير مقبول
لأن كلمة تصوف قد عرفت لدى العرب قبل عصر الترجمة ، أى قبل
أن تتداول ألسنتهم الكلمة ، يقول : " ورأى البيرونى هذا على
طرافته لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية بالصوفى كانت
موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية الى اللغة العربية .....
مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد
الجاهلى ، على ما يرى صاحب اللمع (٢) اذن رأى البيرونى لا قيمة
له من الناحية الفنية .

ومن المستشرقين هو الاستاذ /نولدكه " الذى رد وفض فرض
البيرونى ، وجزم ببطلانه مستدلا بأن كلمة " سيجما ، أو حرف " س"
الأغريقى ، قد قوبل دائما فى الترجمة العربية بحرف "س" لا بحرف "ص"
ولم تشذ عن هذه القاعدة كلمة واحدة ، فلو أن الصوفية كانت نسبة
الى سوفيا كما زعم البيرونى لكتبت كلمة التصوف بالسين لا بالصاد (٣) .

---

(١) د / زكى مبارك ـ التصوف فى الأدب والأخلاق أولى ١٣٥٧ هـ ج ١
ص ٦٦ وما بعدها .
(٢) د / عبد الحليم محمود ـ المنقذ من الضلال ص ٣١٤ ، ٣١٥ .
(٣) د / محمد غلاب ـ التصوف المقارن ص ٢٢ دار احياء الكتب ١٩٥٦

اذ ن فقد اتجاه البيرونى أخر فرصة لتدعيمه .

" زد على ذلك ، أنه لايوجد دليل ايجابى يرجح افتـراض أن الكلمة ـ التصوف ـ مشتقة من الأصل اليونانى سوفوس فى حين أن نسبتها الى الصوفى يؤيدها نصوص من أقوال الكتاب المسلمين أنفسهم "(١) ، مما يؤكد عربية الكلمة لا يونانيتها ، وصحة تبسها من اللغة العربية ، لانحتها من لغة أخرى ، وهو نفس الغـرض الذى دار فى حنايا البيرونى ، من أنه لم يقف على دليل ، كـل ما فى الأمر أنه " لما ذهب فى الاسلام قوم الى قريب من رأيهـم سموا باسمهم "(٢) ، ولذا حكم العلماء على رأى البيرونى بالتهافت والضعف .

(٢) رأى جوزيف فون هامـر :

ذكر " أن الصوفية ينسبون الى الهنود القدماء المعروفيـن باسم الحكماء العراة " ، وهى اسم اطلقه اليونان على بعض الهنود الذين كانوا يهيمـون على وجوههم عراة ، أو لابسين قليلا مـن

---

(١) نيكولسون ـ فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٦٧ .
(٢) البيرونى ـ تحقيق ما للهند من مقولة ط ٢٤ ط الهند .

الشباب ، ويقضون أوقاتهم فى التأمل والتفكير فى الله ، ويمعنى الكلمة الحرفى " الحكماء العراة " (١) .

ثم انتهى هامر الى أن " الكلمتين العربيتين ، صوفى وصافى مشتقتان من نفس الأصل الذى اشتق منه الكلمتان اليونانيتان ، سوفوس وسافيس " (٢) وظن بعض الباحثين أن " لفون هامر من الاعتبارات ما يبرر اعتباره كلمة صوفى مرادفة لكلمة سوفوس" (٣) .

كان الأجدر بهم ان يذكروا هذه المبررات ، ثم يعملون على مناقشتها ووضعها فى مكانها من البحث العلمى ، وتلك طبيعة البحث العلمى ، وليس التسليم بمقولة الخصم من حسن الظن ، من ثم فان التصوف والصوفى ألفاظ عربية ، ولها دلالة فى مصادر العربية ولا عبرة بالمخالف ، لأن الرأى اذا لم تسنده أدلة ، فلا قيمة له ، فما هى نشأة التصوف الاسلامى ، أو بتعبير آخر متى نشأت الحياة الروحية فى الاسلام ؟

---

(١) د / أبو العلا عفيفى هامش فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٦٢
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦٧ .
(٣) الدكتور / طلعت غنام _ أضواء على التصوف ص ٢٧ نشرة عالم الكتب عام ١٩٧٧م .

وأود ملاحظة أن هنالك مسائل شائكة ، وقضايا عويصة ، تحتاج معاودة البحث ، وتكرار النظر ، ومحاولة اصطناع الصبر ، وامتلاك الأناة من هذه الموضوعات :

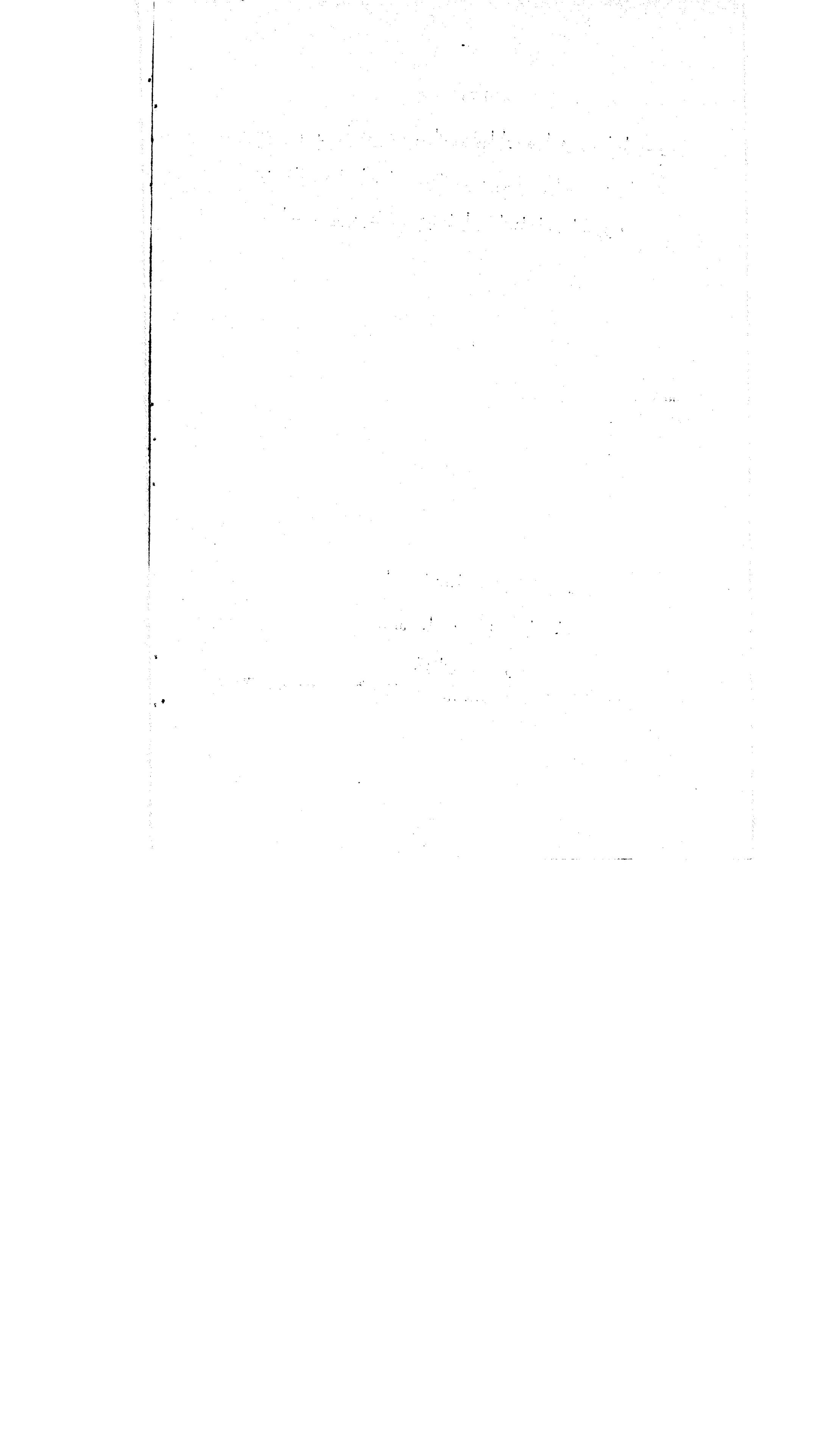
- متى نشأت الحياة الروحية في الاسلام ؟
- نماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الأكرمين .
- الحديث عن مصادر التصوف الاسلامي وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وعمل الصحابة والتابعين .
- الحديث عن مصادر التصوف الباطل الغير اسلامي وهي المصادر الهندية والبونانية والهرمسية ، والمصادر الأخرى التي جاءت في هذا الركب وسرت سريان النار في الحطيم .
- مسالة المصطلحات الصوفية والمدارس التي عنيت بها .
- تاريخ التصوف ، ورجال الصوفية .
- قضايا على التصوف ، واخلاق الصوفية .
- مسائل الحال والمقام وغيرهما مما استحدثه الصوفية الاسلاميون ولهم فيه أدلة شرعية .

الى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بالتصوف والصوفية ، لكن هذه الأمور تحتاج الى وقت آخر أجد فيه متسعا لتناولها ، ورغبة

ملحة فى عرضها ، وحيدة فى الحكم لها أو عليها ، وهذا ما سوف نلتفت اليه ، ان أمد الله فى العمر ، وبسط فى الصحة ، وما ذلك على الله بعزيز ، ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير .

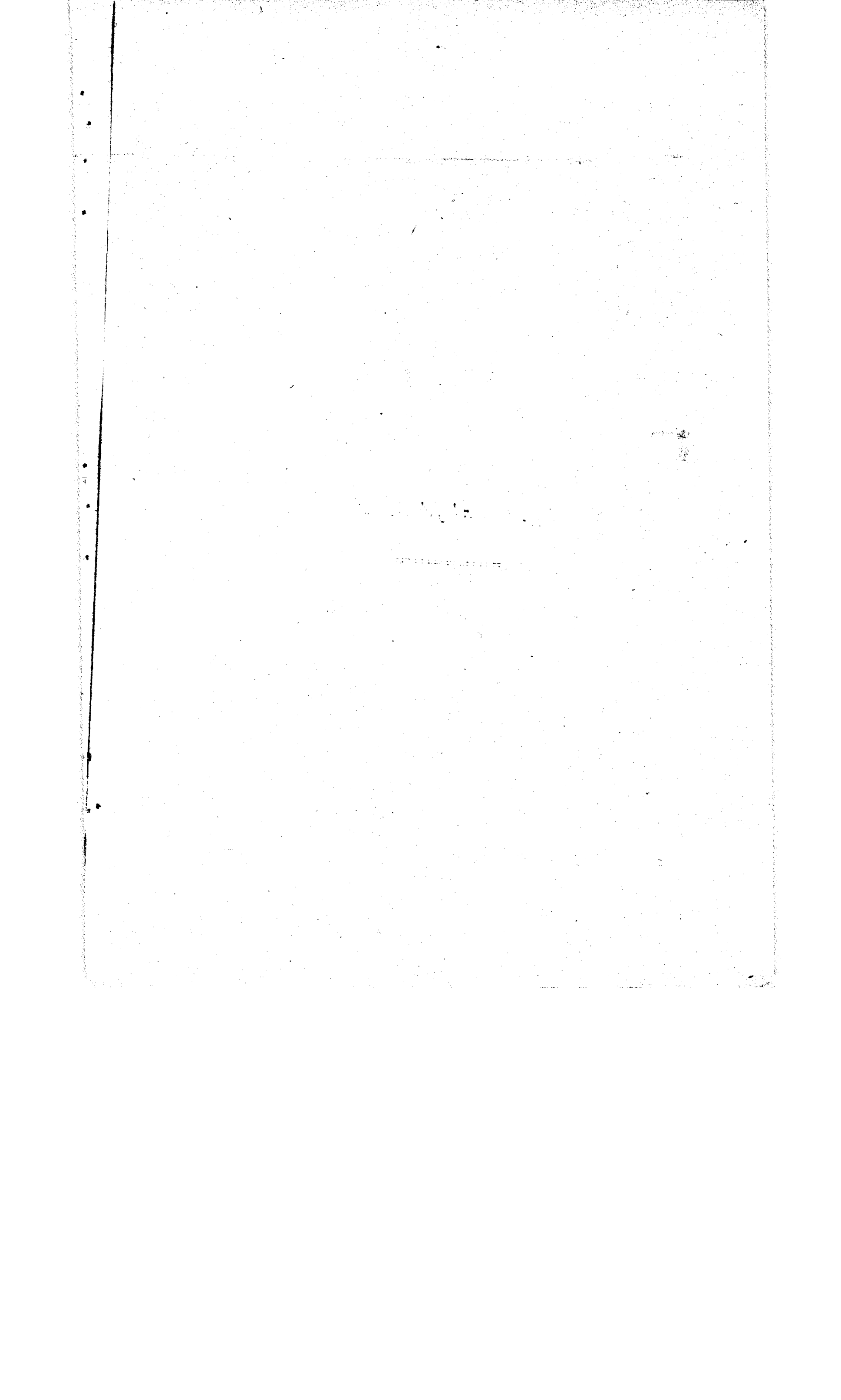
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

مع أطيب التمنيات بالتوفيق !





((مصادر التصوف))



((مصادر التصوف))

سلف الحديث عن التصوف من نواح عدة ، ولكن بدت أمور أخرى وتقسيمات غير التى سبق تناولها ، وهذه الأمور المستجدة تقوم على اعتبارات مختلفة ، ولكنها فى النهاية تتكامل لتؤدى معا وتقسيمات لم تسبق الاشارة اليها ، وسأحاول تقديمها بشكل موجز على النحو التالى :

١ — تقسيم التصوف باعتبار الصحة والفساد .

٢ — تقسيم التصوف باعتبار النظرى والعملى .

٣ — تقسيم التصوف باعتبار الاسلامى وغير الاسلامى .

٤ — تقسيم التصوف باعتبار ما قبل الاسلام وفى الاسلام .

٥ — تقسيم التصوف المصدر .

وهذا الاعتبار الأخير — المصدر — يتنوع الى نوعين هما :

(أ) النقل المنزل : ويعرف بالتصوف السنى لالتزامه طريقة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وفعل الصحابة والتابعين ومن على دربهم سار ، وهذا تندرج تحته جزئياته التى منها :

١ - القرآن الكريم : نصوص يؤخذ منها ، ويعتمد عليها .

٢ - السنة النبوية المطهرة : نصوص يستدل بها ويقوم عليها .

٣ - فعل الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، باعتباره القدوة الحسنة .

٤ - فعل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، على أساس أنهم الأقرب الى عهد النبوة .

٥ - فعل السلف الصالح من التابعين ، باعتبارهم الذين التزموا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(ب) المصدر الوضعي : وهذا يندرج تحته مايلي :

١ - العربي الجاهلي .

٢ - الهندي .

٣ - الفارسي .

٤ - اليوناني .

٥ - الفلسفي .

٦ - الثقافي : وهو الذي يقوم على قراءة كتب التصوف وفهمها حتى يصير عالما بها ، لكنها لاتخرج عن دائرة عقله ، كتصوف

المستشرقين مثلا ، ومن على شاكلتهم ممن لايعرفون الا التصوف الثقافي .

٧ — الوجداني : وهو الذي يقوم على اضفاء سلوكيات معينة على شخص معين عن طريق الممارسة ، دون أن يكون له به علم وخبرة ، انه مجرد خاطر في وجدانه ، وحديث بداخل ضميره .

٨ — الغنوصي .

وهذه التقسيمات ضرورية لامحيد عنها ، ولابديل يغني عنها بل أرى الحاجة داعية اليها ، حتى يستبين الموقف ، وتتضح الفوارق بين الأدلة ، ويكون خصم التصوف وصديقه على نمط واحد من الأدلة ، فاما أن يتنادى الجميع بأن التصوف الاسلامي خالص من كل شائبة ، وأن الدخيل لاينسب اليه ، واما أن يعاد النظر في أدلة الطرفين وتلك مسألة ليست يسيرة .

وذلك لأن " الصوفية الحقة " — لاتتأتى الا بالاقتداء والقدوة المعروف — الآن — سيرتها في صدق ويقين ، هو رسول الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، انه الأسوة الوحيدة الآن لكل

من يحب القرب من الله فى صدق" (١) ٠

ولايغربن عن ذى بال ، أن هذه التقسيمات تقوم حولها أنواع كثيرة ، وقضايا هى محك النظر ، بل هى موضع التساؤل القائم الذى مازال أصداؤه تتردد بين الحين والآخر ، أو بين الأنصار والخصوم ، وفى مجمل الأدلة والشبهات ، ولذا أرانى مضطرا الى ذكرها ولو على سبيل الاجمال ، على النحو الذى سلف ، وقد ألجأ الى التفصيل متى وجدت الفسحة فى الوقت ٠

وربما عنّ لسائل القول : ان أصداء التصوف لم تنبعث من الماضى البعيد ، ولكنها وليدة البيئة الاسلامية على ما ذكرت فكيف تراها قديمة تليدة ، وفى نفس الوقت حديثة وليدة ؟

والجواب : أن اسم التصوف قديم ، والسلوكيات حوله قديمة ثم هو متعدد طبقا لهذا المعنى ، لكن التصوف الاسلامى الذى أعنى به واهتم ، هو الذى قام على الكتاب والسنة واجماع الأمة ، والفرق كبير بين الفهمين ، واليك المثال :

---

(١) الدكتور / عبد الحليم محمود / أبحاث فى التصوف ص ٢٧٦ ، ملحق بالمنقذ من الضلال للامام الغزالى ط ٧ دار الكتب الحديثة عام ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م ٠

(١) عند الأغريــــق :

تعلق الاغريق بالعديد من الآلهة ، وكانت لهم مع آلهتهـــم مواقف عديدة ، بعضها فيه نوع من الحب ، وآخر من الكراهية وثالث من الخوف ، ورابع من الرجاء ، وهكذا تعددت عندهم الالهـــة ، وتعددت مواقفهم من تلك الألهة ، لكن أبرز المظاهر التى تقود نــا الى بيان مواقف القوم هو مظهر التنسك والعبادة لهذه الآلهة فـــى نوع من الخشوع ، وكثير من الجلال والمهابة ٠

أجل عبادتهم خاطئة على قواعد الدين الاسلامى ، لكنهـــا تميزت بشيء من الصفاء النفسى ، وكثير من مظاهر التعلق بهذه الآلهة بل ان بعضهم كان يرى إلها أقوى من باقى الألهة فيقـــف عنده مجلا له ، محترما اياه ، كما كان الشأن مع اله الجمال عندهـم فاذا طابقت حاله مع ربيط خدمة الاله وجدت بعض الشبه ، وهـــو التصوف الاســى ٠

(٢) عند الحنفـــاء :

عرفت جزيرة العرب الحنفاء ، ومن كان لهم بالكتب السابقة علـم ومعرفة ، وكان هؤلاء الحنفاء واضرابهم ينقطعون عن النـــاس ويبتعدون عن ذويهم فى خلواتهم التى ربما لم يكن لها وجود الا فى

يطون الأودية الجافة ، وعلى قمم الجبال ، أو في غار انقطع السبيل اليه ، بل ان بعضهم كان يخص الشطر الأخير من عمره بهـذه العبادة التنسكية التي تقوم على التعلق بالاله الذي يحبه ويرجوه٠

من ثم ٠ فان المعنى اللغوي للتصوف من كونه ربط المرء نفسه لخدمة ربه يجمع هذه العبادات كلها ، وتلك المشاعر التي تحيط بها ، ويمكن اعتبارهم جميعا صوفية الاسم ، أو صوفية على نمط لغوي ، أو صوفية باعتبار التعريف المعجمي ، اذن اسم التصوف قديم على ما سلفت الاشارة اليه ٠

لكن هذه العبادات والخلوات التي لم ينظمها دين الاسلام ولم تقف على سند من النقل المنزل ، لايمكن اعتبارها صحيحة على مقياسه ، واذا نقلت الينا فلا يكون لها من مكان الا مجرد النظر فيها على أنها تاريخ قوم مضى ، وعبادة ربما ضاعت على أصحابها سدى ، أو كان القائمون بها على هدى ٠ لكنها على ميزان النقل المنزل قد ألغيت ٠

وحذار من الاغترار بها ، أو الاسترشاد بما نقل منها والارتماء في أحضانها ، أو النقل عنها ، والتعبد بمثلها ، فـان

هذا منهى عنه شرعا ، لأن الملة الاسلامية جاءت بيضاء نقية من لدن حكيم عليم ، وليست فى حاجة الى الاقتباس من غيرها ، أو الاحتكام لسؤاها ، ومن طلب التماس الشفاء فى غيرها فقد شقى بها .

وحذار ثم حذار . من اعتبار تلك الخلوات والعبادات طريقا للتصوف الاسلامى ، لأن العلاقة غير قائمة ، اذ هى من وضع البشر أما التصوف الاسلامى فان قواعده وادابه تستند الى النقل المنزل فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهما الحاكم على صحته من فساده ، وصدق القائمين عليه من زيفهم .

ومسألة أخرى هى :

" أن الانتساب للصوفية أمر قائم ، كالحال فى الانتساب لكل علم من العلوم ، وخلق من الأخلاق ، وقيمة من القيم ، وتاريخ الفكر الانسانى فيه من ذلك الكثير ، بل أن أهل كل فن يحاولون بيان الفوارق بين أصحاب الفن نفسه والمنتسبين اليه .

فالصوفية يقررون أن لهم رسالة " هى حقيقة صوفية شرعية ، وعقيدة اصلاحية روحية ، وفكرة عملية بعيدة المدى ، تتعلق بها الآمال ، وهى دعوة التصوف الاسلامى الحر الكريم ، البعيد عن الفساد والشعوذة ، واللاعبين بالزجاج والنار ، وأكلة الأفاعى والصبار

ومحترفي الطبل والزمر ، وفضيحة الاسلام باسم التصوف المظلوم" (١) .

وهكذا فان القوم وضعوا الفوارق بين الصوفية والمنتسبين اليهم لأن التصوف الحق " هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، اذا خلا من علة العلل ، وحظوظ النفس" (٢) ولم تكن له رغبة الا ارضاء اللـه جل علاه ، حتى يحظى بنوع من التجليات الالهية ، ويحاط بالأنوار الربانية ، وذلك أمر يحافظ عليه الصوفية ، أما من ينتسب اليهم فلا يعنيه من أمره الا ما يعلق بذهن ، ويركز عليه فى تفكيره ، ويكون هو أمله الوحيد ، فإما أن يظفر به ، أو يسقطا معا .

بل ربما كانت لبعضهم عبارات غاية فى التركيز ، معبرة عن التصوف والصوفية معا ، تقوم على أن " التصوف ، تخلق ، وتحقق ، وتعلق " وأن هذه الأمور يقع فيما بينها كل الناس على سبيل التناسب" فالذى يناسب العموم من ذلك هو الوقوف عند مرتبة التخلق ، فيكون الغرض منه فى هذه الحالة ، هو تعليم الناس الآذان الشرعية ، وحملهم على العمل بالكيفية المرضية باعتبار أن المسألة تعليم وفى حدوده .

---

(١) الشيخ / صالح أحمد الشافعى — اشراقات فى طريق الله ص ٣ الطبعة الأولى ١٣٩٨ / ١٩٧٨م مطبعة العاصمة .

(٢) الشيخ / عبد الوهاب الشعرانى لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار جـ ١ ص ٤ المعروف بالطبقات الكبرى .

وأما الذى يناسب الخواص فهو الوصول الى مرتبتى التحقق والتعلق" (١) ومن ثم فهم الصوفية " الدين الاسلامى وحفظوه نقيا ، وعرفوا كيفية الوصول الى الله ، وأرشدونا بهذه التعاليم الخالدة ، تعاليم رسول الله ، فما كانوا ليزيغوا ، وانما هم الراشدون الناجحون ، الفالحون العاملون" (٢) .

وقد سلف القول بأن " الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به" (٣) .

---

(١) السيد محمد توفيق البكرى / رسالة فى الكلام على نشأة التصوف والصوفية وأعمالهم ص ٢٨ .

(٢) الشيخ أحمد الشافعى محمد أبو خليل الكبير / طريق الله فى التصوف جـ ٢ ص ١٧٦ ط ٢ مطبعة مصطفى بالفيوم .

(٣) الامام الغزالى — المنقذ من الضلال ص ١٧٨ دار الكتب الحديثة ص ٧ مع أبحاث فى التصوف للدكتور / عبد الحليم محمود .

وربما يغفل بعض الناس هذه الفوارق القائمة بين الصوفية والمتصوفة ظانين أن المسألة شيء واحد ، وأن الفوارق اعتبارية ، وليس لهـــا وجود حقيقي ، وهذا فهم قاصر ، وظن غير صواب ، لأن الفـــوارق حقيقية ، كالفرق بين الذهب وقطع الصفيح ، بل كالفرق بين الحلـــي الكريمة وأحجار الطواحين .

كما لايحاول طمس هذه الفوارق الا صاحب النية القائمة والأحكام المسبقة ، والرغبة في التجني ، تصفية لمواقف سلفت تبعد بأصحابهـــا عن كل موضوعية ، وتفتقد الاستناد لأية أدلة شرعية ، ومتى فقد الحكم أهم عناصره من حيدة وموضوعية ، ورغبة في الوصول الى لب الحقيقـــة ، فلا يسمع له ، ولاينتظر منه خير قل أو كثر .

بل ان الصوفية كثيرا ما أفاضوا في بيان هذه الفوارق بطريقـــة لاتدعو الى اهمالها ، انهم لم يحاولوا بيان الفوارق ، ولكن ذكروهـــا ووضعوا نماذج للصوفي والمنتسب ، وأن الصوفية يقومون " بالكتـــاب والسنة ، وأنها — طريقتهم — مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء وبيان أنها لاتكون مذمومة الا أن خالفت صريح القرآن أو السنة والاجماع لاغير .(1)

(1) الشيخ عبد الوهاب الشعراني — لواقح الأنوار ج ١ ص ٤

اذ ن هم ضبطوا أنفسهم وسلوكهم مع ميزان القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وهى نصوص شرعية ، والتزموا الاجماع من حيث هو اجماع علماء المسلمين ، فماذا بقى بعد ؟! انهم لم يدعوا عصمة لأفكارهم ، رغم التزامها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة واجماع علماء الأمة ، وانما ركزوا على أن الأمر فيما بعد ، من فهم للنص المنزل لايعدو أن يكون بمثابة " فهم أوتيه رجل مسلم ، فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه ، (١) هذا عن الفهم الذى يفهمه الصوفى من النقل المنزل.

أما بخصوص العمل الذى يقوم به الصوفى فى العبادات ، وألوان الطاعات ، فهو كذلك قائم على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، واجماع علماء الأمة ، كالفهم تماما ، فمن أحب أن يفعله على أنه لون طاعة فعله ومن رأى تركه فلا تثريب عليه ، من ثم فان المنكرين على الصوفية فهمهم وأعمالهم قد أهملوا عبارات القوم ، واسقطوا عند محاكمتهم منهج الصوفية أنفسهم .

حتى لم يبق " للانكار الا سوء الظن بهم ، وحملهم على الرياء وذلك لايجوز شرعا " (٢) لأنه طعن على مسلم واستباحة حرماته من غير

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٤
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤

ذنب ارتكبه ، أو جناية وقع فيها ، وانما المسألة مجرد فهم متعجل وأحكام مسبقة ، ونوايا تتجه من البداية للادانة والاتهام ، وليس للتبرئة والاحترام .

بيد أن الصوفية لهم تعبير جميل ، انهم يرون التصوف نتيجة التزام الكتاب والسنة وليس هو الداعي للالتزام ، انه غاية ، وليس وسيلة ، أو قل هو نتائج وليس مقدمات ، بل وعلم التصوف كذلك لأنه " عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء ، حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما ، انقدح له من ذلك علوم ، وأدب وأسرار ، وحقائق تعجز الألسن عنها " (١) وليس لها فهم آخر غير الالتزام الكامل للنقل المنزل .

فاذا نظرنا الى ما ذكره القوم في مؤلفاتهم ، وماينسب اليهم من أنهم طالبوا بأسقاط التكاليف الشرعية مثلا ، كان التخالف واضحا . والفرق كبيرا ، وثبت أن اصحاب الأسقاط منتسبون للصوفية وليسوا منهم كما أن أصحاب الطبل والرقص والألاعيب السحرية ، وأكلة النيران والأفاعي ، والقفز فوق الأسياخ النارية لايمثلون الصوفية ، وان انتسبوا

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٤ .

اليها ، بل كم اعلن الصوفية تبرئتهم من هؤلاء وأولئك ، ان الصوفية أصحاب علم الحقيقة ، والمنتسبين اليهم لا علم عند هم .

فالتصوف " الحقيقى : التزام الطريق السوى ، على كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واننا مطالبون أمام الله تعالى بدينه الذى شرعه لنا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولن ينفعنا شيخ الطريقة ، اذا لم يكن هو نفسه ملتزما .

واياك من أدعياء السوء الذين لا هم لهم الا ملىء بطونهم وكروشهم وحسب ، فانهم هم الذين جلبوا علينا هذا العار والنكد ، وكانوا السبب فى طول الألسنة بالباطل ، فحاول أن تكون بعيدا عن الشبهات والأباطيل ، ولن ينجيك الا نور القرآن والاسلام والتدين الصحيح ، والسير على طريق الصوفية الاصلاء " (١) .

وربما يتمسك خصم الصوفية بأن أنكارهم الشرائع والطاعات ، واسقاط الصلوات وترك الفرائض قد ثبت عنهم ، والجواب أن هذا القول من دسيس خصومهم ، أو سقطات المنتسبين اليهم ، أو فهم متعجل لعبارة فاه بها واصل منهم ، فان الثابت عند هم ، أن أحدا

---

(١) عبد الرحمن حسن محمود — مقدمة الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ص و .

أن أحدا من القوم — الصوفية — لم ينه عن الصلاة ، والزكاة ، والحج والصوم أبدا ، ولاتعرض لمعارضة شيء من الشرائع ...

وكيف يترك الولى ماكان سببا لوصوله الى حضرة ربه ، انما يحث الناس على الاكثار من أسباب الوصول ، فما بقى وجه الانكار الا على مواجيدهم ، وأفهامهم ، وتلك أمور لاتعارض شيئا من صريح السنة ، والأمر فى ذلك سهل ، فمن شاء فليصدقهم ويقتدى بهم ، كمقلدى المذاهب ، ومن شاء فليسكت ، ولاينكر ، لأنهم مجتهدون فى الطريق والمجتهد لايقدح انكاره على مجتهد آخر" (١) .

ثم ان الصوفى الحق يحرص دائما على ترشيد العلاقة بالله ، واقامتها على الوجه الأمثل ، فهو يعلم أن عمره قصير مهما امتد ، لذا فهو لايستهلكه الا فى طاعة الله ، تشرق الشمس وتغرب ، يجن الليل عليه أو ينجلى ، لايحسب لأى منها حسابا ، انه قرر الاستفادة من عمره فى أوجه الطاعة التى يجد النقل المنزل هادفا اليها ، ولذا فهو لايعتبر نفسه مستهلكا عمره ، بقدر ما هو مدخر له .

---

(١) عبد الوهاب الشعرانى / لواقح الأنوار جـ ١ ص ١٣

بل انه ربما أجاع نفسه تهذيبا ، واحجم عن الشهوات تعذيبا ، وأخذ من حظوظ الدنيا أدناها ، آملا التحقق بالله جل علاه حتى اذا لم تشغله هذه الشواغل ، ولم تصرفه تلك الصوارف ، انمحى سراب الحياة من أمام ناظريه ، فلا البريق الزائف لها يغيره ، ولا اكسيرها المتدفق لقواعد الشرع ينسيه ، وهو موقف الصوفى الحق ٠

أضف الى ما سلف ، أن الصوفى الحق يجدد صلته بالله تعالى وهو يرى أن تجديد تلك الصلة لايكون الا بما افترضه الله عليه من فرائض ، وما سن له من سنن ، من ثم ٠ أثر عن كثير منهم ، ادامة العبادات حتى انحنت منهم الظهور ، وذبلت فيهم الآمال التى تخبو وتستعر فى غيرهم ، من حب الرياسة ، وترك الكياسة ، فكان الصوفى الحق مقتديا بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، ومايزال هذا الالتزام هو طريق الصوفى وبه يعرف ٠

قال صاحب فتوح الغيب " لابد لكل مؤمن فى سائر أحواله من ثلاثة أشياء :

١ — أمر يمتثله ٠

٢ — نهى يجتنبه ٠

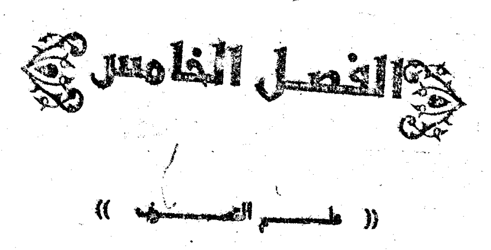
٣ — قدر يرضى به ٠

فأقل حالة لايخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغي له أن يلزم بها قلبه ، ويحدث بها نفسه ، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله " (١) .

اذن للتصوف تعريفات أخرى غير المشهورة وأبنت عنها - حسب توفيق الله تعالى - وعلى النحو الذى اجد الحاجة ماسة لاعادة النظر فيها من جانب الدارسين حتى نصل معا الى حلول أقرب الى القبول من غيرها ، فربما تغيرت أحكام كم أطلقت من غير سند نقف عليه ، الا الظنون والشبهات .

---

(١) الشيخ / عبد القادر - فتوح الغيب - نقلا عن شيخ الاسلام ابن تيمية علم السلوك مجلد ١٠ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ مجموع الفتاوى .



الفصل الخامس

((علم الصرف))

(علـــم التصـــوف)

سلف الحديث عن التصوف فى اللغة والاصطلاح ، وتناولنـــا الجوانب التى يمكن أن يكون التصوف قد ضمها فى رحابه ، لكـــن علم التصوف غير التصوف ، واذا كنا قد تحدثنا عن التصوف فحـــرى بنا أن نلتفت الى علم التصوف ، أما لماذا ؟

فلأن علم التصوف يخلط الناس بينه وبين التصوف خلطا كبيرا ، من ثم فقد لزم ابراز الفرق بينهما .

بيد أن المطالع لهذه المباحث التى تقع بين الســـلوك ، والوجد ان يحتاج الى التعرف على حدود كل منهما ومسائله وقضاياه والغاية التى ينشدها كل منهما ، وتلك مهمة ضرورية ومسألة غايـــة الأهمية ، فما هو علم التصوف ؟

الجواب :

أن علم التصوف علم له قواعده ، وموضوعه وغايته " فموضوعـــه التزكية والتصفية ، وتعمير الباطن والظاهر ، وغايته نيل السعادة

الأبدية ، ومسائله ما يذكر فى كتبه من المقاصد (١) " ، هذا من الناحية النظرية باعتبار أن علم التصوف علم نظرى .

أما باعتباره علما عمليا فهذا شأن آخر ، اذ هو دراسة الظواهر السلوكية التى تقوم على ناحية وجدانية ، فيها الايمان بالغيب مع وضع قواعد يمكن ضبطها وتطبيقها فى مجال السلوك الانسانى . باعتبار أن هذا السلوك الانسانى منضبط ، وممارساته عملية ، انه قواعد محددة فى جانب نظرى ، متعلق بناحية ايمانيه بالله رب العالمين مع التصديق بنبوة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، مع القيام بالتكاليف الشرعية حسب ما أمر المولى الكريم ، من ثم عرف علم التصوف بأنه :

١ — " مجموعة المبادىء التى يعتقدها المتصوف ، والآداب التى يتأدبون بها فى مجتمعاتهم وخلواتهم " (٢) ولا شك أن مجموعة المبادىء هذه ما هى الا قواعد نظرية ، تجول فى الخاطر ،

---

(١) الرسالة القشيرية / هامش ص ١٢ ، ١٣ بتصرف .
(٢) المعجم الوجيز مادة / ص و ف / ص ٣٧٤ .

وتتحرك بالوجدان ، ضابطة سلوك صاحبها ، حين يحاول تقييم نفسه ، وتقويم ظروفه ·

وحتما سيدرك هذا من يحاول ايجاد علاقة بين الأفكار والمثل القائمة فى ذاكرته ، وبين امكانية تطبيقها فى الواقع الحياتى بالنسبة له ، اذ الفكرة تمثل بالنسبة له ذات الاعتقاد بينما التطبيق لايكون له وجود الا عند تطبيق هذه العقيدة ، وجريان مقتضياتها على الجوارح والأعضاء من الناحية السلوكية·

على أن مسألة المبادىء قد يضعها الصوفى نفسه ، حتى تكون بالنسبة له قوانين يجب العمل بها ، وقاعدة النزامية آمرة لايفترق عنها وقد يقبسها من غيره ، لكن على قواعد الالتزام الشرعى ، لأن الصوفى على شرع الله قائم ، ولباب الرجاء طارق ، وبمناحى الأمل متعلق·

غير أن كل الحالات التى تعيش فى قواعد علم التصوف وتضبط طبقا لمقتضياته ، لاتمثل الا نوعا من الآداب التى يجب أن يتحلى بها الصوفى بين نفسه وفى مجتمعه المحيط به ، سواء فى خلوته أو مع آخرين ، انه يعيش داخل نفسه التى تعايش جملة من الآداب الجميلة والأخلاق السامية العظيمة ، القائمة على القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ·

وليس هذا فحسب بل ان سلوك الصوفى نفسه مع الذات التى تمثله ، واحتكاكها بالآخرين لاتنطلق هكذا من غير ضابط شرعى ولكنها تنضبط فى حدود من الشرع الذى فرضه الله رب العالمين بحيث تكون حركاته وسكناته ، وتفكيره وعمل جوارحه كلها طبقا لما أمر الله .

ومما يمكن الالتفات به الى القارئ هو أن علم التصوف ، ليس مبدءا واحدا ، أو قاعدة أدبية واحدة ، بحيث لو فسدت ضاع التصوف ، ولكنه جملة من الآداب ، جملة من القواعد ، جملة من الأخلاق الكريمة ، ولذا فان الطاعنين على علم التصوف فاتهم مضمونه ، ولم يطف بهم أمر تعريفه وموضوعه ، ان خصومه ظنوه لبنة واحدة ، من اليسير طحنها أو ادخال الماء العطن اليها ،وليس الأمر كذلك .

٢ — " علم تعرف به أحوال تزكية النفوس ، وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن ، لنيل السعادة الأبدية " (١) مع الأخذ فى الاعتبار سلامة الحياة الدنيوية ، بحيث تنال السعادة الأخروية .

---

(١) هوامش شيخ الاسلام / زكريا الأنصارى على الرسالة القشيرية ص ١٢ ط صبيح .

وهذا التعريف كشف عن كون التصوف علم ، وأن هذا التصوف تمثله حالات التزكية ، والتصفية ، والتعمير للنفس والأخلاق والباطن والظاهر معا ، والغرض من هذا كله نيل السعادة الأبدية ٠

لكن من أى ناحية تتم تزكية النفوس ، وماهى وسيلة تصفية الباطن ، وكيف أجزم بأن الظاهر والباطن قد عُمِّرَا حتى أكون على يقين من أن السعادة الأبدية سترفرف بأجنحتها ، وفى تقديرى أن ذلك لايكون الا بالتصوف كعلم وحده ٠

ولست أقصد الناحية النظرية فى علم التصوف وانما أعنى بالدرجة الأولى ما ينضبط به عمل الصوفى حيث يأخذ " السالك نفسه من ألوان الرياضيات وضروب المجاهدات ٠٠٠٠٠ ثم يحصل فى النفس ثمرة لرياضتها ومجاهدتها ، فاذا هى تصفو شيئا فشيئا وتخلص من شوائبها رويدا رويدا (١) ، وربما يداخلك شيء من السؤال عن هذا الذى أعنيه وهو — التصوف وعلم التصوف — أمر قد عنى به كيرون غيرى بل ان " القرآن الكريم يتضمن عددا من العناصر المتعلقة بالزهد والتصوف وبعض الآيات القرآنية تذكر الناس مرة بعد

---

(١) الدكتور / محمد مصطفى حلمى — ابن الفارض والحب الالهى ط دار المعارف ص ٥٦ ٠

أخرى بأن الله حاضر معهم وبالخوف من الحساب ، وزوال كل الأشياء الانسانية وجمال الفضيلة وما الى ذلك ٠

وهناك آيات أخرى تعطى النفس المتدينة الفرصة للوصول الى لب العقيدة ، وهكذا تجد العديد من الآيات القرآنية التى تذكر الانسان برسالته ، وتؤكد على حاجته الى أن يقيم فى قلبه صرحا عامرا بالتقوى والايمان" (١) ٠

من ثم فلا نجد حرجا من القول بأن علم التصوف تحرسه مجموعة من المبادىء والقواعد التى متى سار عليها الصوفى مراعيا التزامها كان قد حصل له الأمران معا ، أمر التصوف ، وأمر علم التصوف ، وقد سبق القول بأن التصوف " رياضة للنفس ، ومجاهدة لرغباتها ، وتصفية للقلب من أدران المادة وشوائب الحس" (٢) ٠

ولا يكون ذلك على الاضطراد والرغبة فى بلوغ الغاية الا اذا كانت له قواعد يسير عليها ، ومبادىء تأخذه الى غايات يبحث عنها ،

---

(١) شاخت وبوزوث — تراث الاسلام جـ ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ ط ٢ ١٩٨٨م ترجمة د / حسين مؤنس — عالم المعرفة رقم ١٢ ٠

(٢) الدكتور / محمد مصطفى حلمى — ابن الفارض والحب الالهى ص ٥٦ ٠

ووسائل يمسك بألبابها حتى لايضل الطريق فيشقى ، فاذا ما أضفنا الى ماسبق أن التأمل والمكاشفات والتركيز الشعورى أمور غاية الأهمية بالنسبة للصوفى ، فلاشك أن تقنين تلك الأمور ووضعها فى قالب محدد يمكن تطبيقه على كافة الأمثلة المتشابهة أمر غاية الأهمية .

ولن يكون ذلك الا من خلال علم التصوف الذى أرى الحاجة ماسة لدراسته وتقييمه ، وبلورة النتائج المترتبة عليه ، وليس ذلك ببعيد عن مرمى العقل طالما التزم الحيدة وتحلى بالموضوعية ، وعنى بابراز الحكمة التى هى ضالة المؤمن وأنه - كما قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم - يبحث عن الحكمة أنى وجدها ، وربما تسألنى عن محتوى موضوع علم التصوف ما هو ؟

وأجيبك : بأن علم التصوف يشمل المبادىء والقواعد ، كما يشمل علم الحال، وعلم المقام، وعلم الخواطر، وعلم اليقين، وعلم الاخلاص وعلم النفس ، وأقوم الناس بطريق المقربين ومعرفة هذه العلوم هم الصوفية الملتزمون كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسائر العلوم الأخرى التى تخضع النفس لدراستها انما يعنى بها علم التصوف ، بجانب ما ينفع المرء فى دنياه ويصلح له أخراه ، فى حدود ما أنبأ عنه شرع الله .

وربما يعرف علم التصوف الاسلامي بأنه " نتائج الأعمال الصحيحة ، وثمرات الأحوال الصافية " (١) وهذا تعريف لعلم التصوف قائم على ملاحظة الغاية من علم التصوف ، وأنه نتائج الأعمال الصالحة ، كما لوحظ فيه التركيز على ثمرات الأحوال الصافية وهو تعبير واسع ، كان الأولى أن تتم ملاحظة الأجزاء الحدية للتعريف ، ان كان بالامكان تعريفه على الناحية الحدية .

أما موضوعه فربما ذكر أنه " الذات العلية ، لأنه يبحث عنها ، باعتبار معرفتها ، ذاتا وصفات واسماء : تعلقا ، وتخلقا ، وتحققا ، فهو موضوع لتكمل العقائد ، وتطهير النفوس ، وتحسين الأخلاق " (٢)، وعلى كل فانها تعريفات تقع بين وجهات النظر ، وتنازع الأدلة .

اذن علم التصوف موجود في البيئة الاسلامية ، ومن نتاجها ، لأنه متعلق بالتصوف الاسلامي ، وليس متعلقا بغيره . ومن الثابت أن الصوفية الأعلام كانوا ذخيرة طيبة ، وأسماء مشرقة ، كالفضيل بن عياض ومعروف الكرخي ، وأبو سليمان الداراني ، وابراهيم بن أدهم ، وكثير غيرهم من الصوفية الأعلام .

---

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفي — التصوف الاسلامي الخالص ص ٧٢ دار النهضة بمصر ١٩٧٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٢

ولما كانت النفس الانسانية منها نزاعة ، محركة الى الحظوظ الذميمة ، " كحب العلو والجاه والمدح والثناء ، وحب الدنيا والنساء ، وغير ذلك مما يستتبع هذا من الكبر ، والحسد ، والبغض والغضب ، والقلق ، وخوف الفقر ، وهم الرزق ، وحب الأغنياء طمعا وحرصا ، واحتقار الفقراء ٠

وغير ذلك من عيوبها ، وأنها التي حجبت الروح ومنعتها من العروج الى وطنها ، ولدواء هذه الأمراض ، وضع علم التصوف " (١) ، حتى يكون علاجا لها ومخرجا للمرء من هذه الأزمات التي لو ترك لها أو تركت له وحده ، فربما انغمس في المعاصي حتى شرد عن ميدان العودة الى رحابة الايمان أبدا ٠

لأن الشيطان يظل بوسوسته يتعهد المرء آنا بعد آن ، ونزغاته تراود المرء عن نفسها ، وتعمل على التقلب أمامه طمعا في غلبته ، فهي تزين له الكفر مرة ، والمعاصي أخرى ، وتثبيط همته عن الطاعات أو تصرفه عنها ، وربما جعلت العجب بالنفس طريقه ، حتى ترجمه بوابل من العوائق ، والصوفية الكرام لاينالهم شيء من ذلك ٠

---

(١) ابن عجيبة ـ الفتوحات الالهية ص ٣٦

"وينبئك عن شرف علم الصوفية ، وذهاد العلماء أن العلوم كلها لايتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا ، والاخلال بحقائق التقوى وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس .... وعلوم هؤلاء القوم لاتحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف الا بمجانبة الهوى ، ولاتدرس الا فى مدرسة التقوى" (١) .

ويقرر ابن خلدون مسألتين :

الأولى : أن علم التصوف موجود ، لكنه من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة .

الثانية : أن سلف الأمة ، وكبار الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم كانوا ملتزمين بالتصوف طريقة وسلوكا ، ومهتمين به علما وأحكاما وآدابا ، بحيث يمكن القول بأنهم كانوا صوفية على منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

يقول ابن خلدون :

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ....

---

(١) الامام أبو حفص عمر بن محمد السهروردى /عوارف المعارف ص ٣٧ .

والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية " (١)

ومن ثم لانلتفت الى من يقول عن الصوفية والأوائل من السلف الصالح " انهم كانوا زهادا مهدوا الطريق فقط " أمثال ابراهيم ابن أدهم ، وداود الطائى ، والفضيل بن عياض ، ومعروف الكرخى ، وغيرهم من الرجال والنساء على حد سواء ، وظهر عند هؤلاء بداية الكلام الزهدى فى شكل أقوال مأثورة فى الالهيات ، والقصص التى تروى عن حياتهم وسلوكهم " (٢) أما لماذا ؟

فلأن واحدا من جملة السلف قد ذهب الى بيان الفرق بين المتصوفة والصوفية ، وعلم كل منهما ، وهو الامام ابن تيمية الذى أكد

---

(١) العلامة ابن خلدون ــ المقدمة ص ٤٦٧ .
(٢) الدكتور / صابر عبد الرحمن طعيمة ــ الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٥٦ طبعة أولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

أن هؤلاء صوفية على الحقيقة ، وليس كما زعم صاحب الرأى ، الذى راح يلمز ويغمز بعبارات سافرة لشيوخ السلف الذين عدهم ابن تيمية — رحمه الله — من المجتهدين الملتزمين الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة " (١) فى حين أتهمهم صاحب الرأى، وقدح فيهم وجرح، وحاول النيل منهم.

غير أن ما يمكن الالتفات اليه هو ما أقره أهل الفكر والحكم القائم على أدلة مقبولة من أن التصوف سلوك وعلم ، وأن علم التصوف شرعى طالما كان مقيدا بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، أما اذا تخلى عنهما أو أيهما فقد صار علما لا يمت الى التصوف بصلة ، ولا يرتبط معه برابطة ، وهو الفرق الكبير بين الأمرين فليلتفت اليه من شاء .

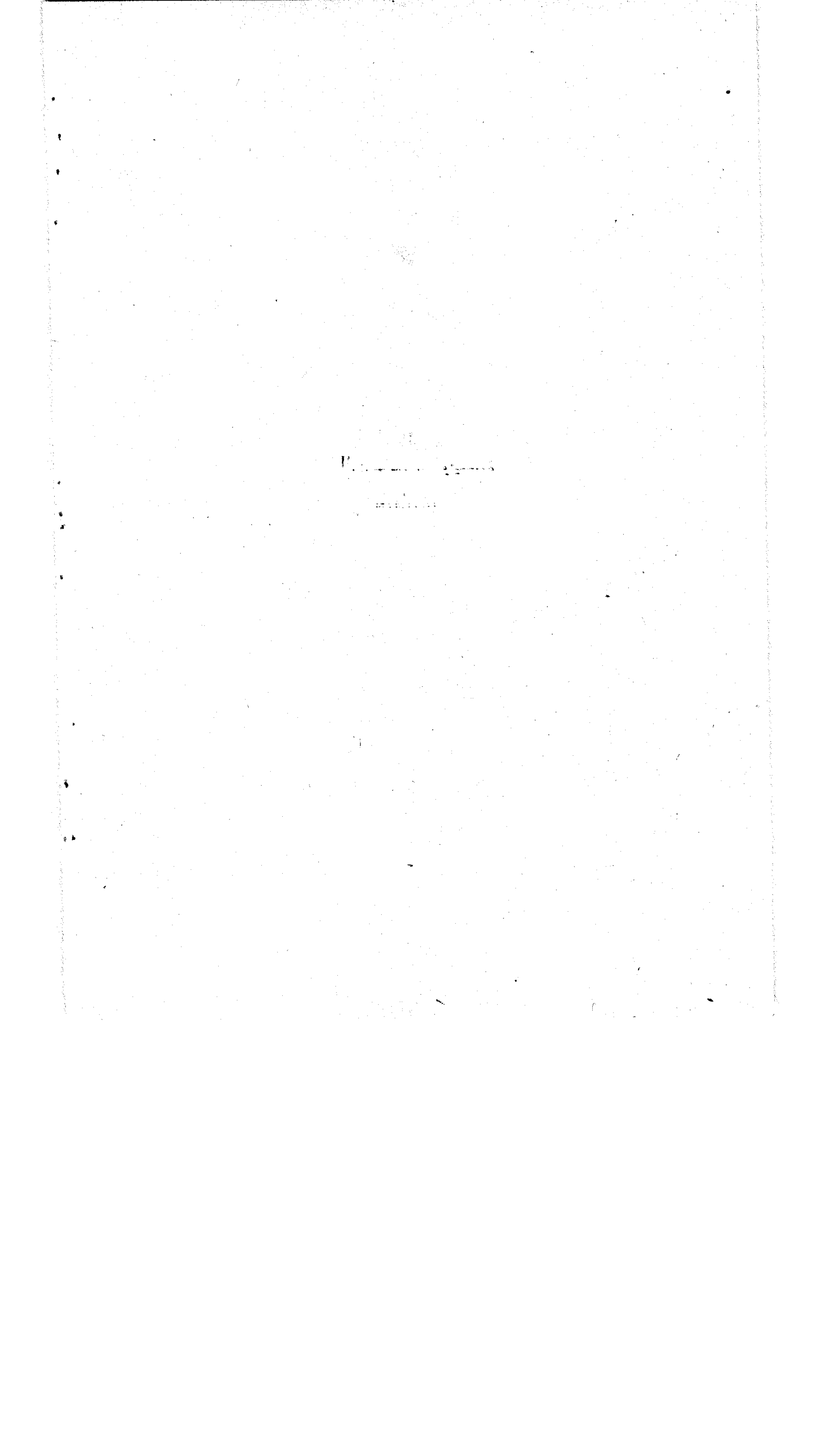
وهناك مسألة أود التنبيه عليها ، وهى أن بعض أصحاب النفوس يغلب عليهم طابع التسرع فى اصدار أحكام الادانة والاتهام ، ومن ثم فهم لا يقفون عند حد معين من أنفسهم ، حتى اذا بدت لهم على حقيقتها ، سافرة بامكانياتها المتواضعة ، فربما عزفوا لحنا رائعا من الأمن على مقطوعة من سيمفونية تختلط فيها الأمانى بالأحلام .

---

(١) ابن تيمية — الفتاوى / علم السلوك مجلد ١٠ ص ٥١٦ .

الفصل السادس

((الصوفية))



الصوفية

تحدثنا عن التصوف ، كما ذكرنا علم التصوف ، وتعرضنا لكل منهما ، فبان لنا أنهما يمثلان الجانب النظرى ، من ثم بانت لنا الحاجة الى من يقوم بتطبيق تلك القواعد ويجريها من نفسه مجرى التطبيق العملى فى سلوكياته جميعها ، بحيث يحدث نوع من الانسجام بين الأفكار النظرية ، والقواعد العملية والقصدية والدينية فى آن واحد .

وآية ذلك أنهم قد بلغ بهم الحرص الحد الذى جعل الواحد منهم اذا ألف كتابا عن التصوف من الناحية النظرية ، يقوم بعرضه على المشهور عنهم الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، من علماء المذاهب الأربعة المشهورة ، حتى يتأكد من أن الكتاب الذى قام بتأليفه ، جاء موافقا للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وربما تسألنى مثالا . والجواب :

ان الامام عبد الرؤف المناوى (١) " كان اذا انتهى من تأليف مصنف له ، ذهب به الى فقهاء المذاهب الأربعة بالأزهر

(١) هو : محمد عبد الرؤف بن تاج العارفين .. المناوى الأصل ، القاهرى المولد ، الشافعى المذهب - محمد تاج الدين - أعلام الحاضر والبادى نقلا عن د / المناوى وتصوفه ص ٦ .

الشريف ـ المالكى ، والشافعى ، والحنابلى ، والحنفى ـ كى يوقعوا على النسخة قبل أن ينسخ منها أحد ، حتى اذا تعرضت للدس أو الزيادة ، أمكن اكتشاف ذلك ، وكانوا يطّلعون على النسخة الأصلية ويقررون أنها موافقة للكتاب والسنة ، وخالية مما يخالفهما يجيزونها " (١) .

اذن يمكن القول بأن الصوفية قد حرصوا على العلم ، وأنهم تمثلوا التصوف سلوكا وعلما ، وعملوا على المواءمة بين العلم والعمل. لذلك أطلقت عليهم تعريفات عديدة ، بعضها من الصوفية أنفسهم وبعضها ممن حرصوا على التعريف بالطوائف والأشخاص ، لكنها فى الأغلب الأعم تقع فيما يلى :

١ ـ تعريفات تعبر عن أحوال ذاتية .

٢ ـ تعريفات تصور سلوكا بعينه .

٣ ـ تعريفات عرضية .

٤ ـ تعريفات قاموسية .

---

(١) دكتورة / فردوس أبو المعاطى المرسى الجابرى ـ عبد الرؤف المناوى وتصوفه ص ٣٢ دكتوراه مخطوطة بكلية البنات جامعة عين شمس ١٩٩٣م وينظر الزركلى ـ الأعلام جـ ٦ ص ٢٠٤ ، وعمر كحالة : معجم المؤلفين جـ ٥ ص ٢٢٠ / ٢٢١ .

على أن هذه التعريفات فى مجملها قد ساهمت فيها مظاهر شاهدها عليهم من أطلق تلك التعريفات الغالبة ، بجانب أنه من الممكن القول بأن أتباع الصوفية كان لهم فى هذه التعريفات دور لايقل خطورة عن غيرهم ، لأنه لايلتزمون الموضوعية ، ولايطرقون باب الحيدة ، وبخاصة عند ما يقومون بالتعريف لأحد شيوخهم والأعلام .

كما يمكن القول : بأن بعض هذه التعريفات قصد به وصف مقام أو حال ، وبعضها تجرد من هذه وتلك ، وانطلق بموضوعية وحيدة فجاءت تعريفاته منضبطة على قاعدة معينة ، وهو ما سأحاول ابرازه على النحو الذى أراه قد أدى واجبه حسب شرع الله تعالى ، لاهوى النفس ، وما أراه أقرب الى اليقين ، وأبعد عن الظن .

أولا : تعريفات ذاتية :

المقصود بالذاتية هنا أن يكون التعريف من الصوفى نفسه ، فكأنه يصف حال نفسه ، ولذا تجد هذه التعريفات الذاتية فيها قاسم مشترك واحد ، وباقى التعريف متباين مع غيره ، وخذ هذه الأمثلة لبعض هذه التعريفات :

١ — الصوفى : " من صفت أحواله ، ولم يبق فيه كدر أصلا ، انه لايرى فى الدارين غير الله ، ولايشهد مع الحق سواه ، قد سخر له كل شئ ، ولم يسخر هو لشئ ، يأخذ النصيب من كل شئ ، ولم يأخذ منه النصيب شيئا ، من ثم فهو لايملك ولا يُملك " (١) انه مملوك لربه ، وخاضع له ، ومايملكه مسخر لطاعة الاله عزّ وجل .

٢ — الصوفى : " هو الذى لايملك ولايُملك " (٢) وهذا التعريف قد توارد كثيرا مع جمع من الصوفية اطلقوه على الصوفى ، ونسبه الى أعلامهم كثير غيرهم ، ومجمله : أن الصوفى الحق ، وهبه الله الحياة ، وهو أيضا قد وقف حياته على طاعة مولاه ، فلا تأخذه زينة الحياة الدنيا ، كما لا تخيفه قسوتها ، فهو لايملك ما يخاف عليه ، ولايُملك من جهة الشيطان والغواية .

٣ — الصوفية : هم الذين " لايكدرهم شئ ، ويصفو بهم كل شئ " (٣) ذلك أن الصوفى الحقيقى ينظر الى المظاهر

---

(١) الامام ابن عجيبة — الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٧ .
(٢) الامام الهجويرى — كشف المحجوب ص ٥٥٢ .
(٣) الامام القشيرى — الرسالة القشيرية ص ٥٥٥ .

السارية فى الكون نظرة مستغن عنها ، تتحرك الأحداث من حواليه وهو باسم القلب ، هادئ النفس ، ليس على رزقه بخاش ، ولا أولاد ، وزوجه بخائف ، ان تقلبت الحياة حواليه فلا يلتفت اليها ، لأن الصفاء من الكدورة حال له ، ومقام ثابت عنده ٠

بيد أن الحياة ان تبسمت شكر ، فتقلبت أمامه بالخير والمال ، والصحة والعافية ، والنجاحات المتوالية فهو على حال الشكر لله قائم ، وان اخلفت أمرها ، وأدبرت عنه من وجهها الى ظهرها حتى صاحت بالفقر بعد الغنى ، والمرض بعد الصحة ، وعكست معه كل ما تبدّى له ، فلا تراه الا على مقامه الأول من الشكر ، بل والزيادة ، ولذا فان الصوفى الحق يراه الناس محل القبول ، ومعيار الاعتبار ، وعلامة صدق الايمان بما قضى الله وقدر ٠

٤ — الصوفية : " هم القائمون بالله لايعلمهم الا هو " (١) انهم لاشاغل لهم الا الله وحده ، انهم يقومون به هو أملهم ،

---

(١) رينولد نيكلسون — فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٣ ترجمة دكتور / أبو العلا عفيفى ط عام ١٩٦٩م ٠

وارضاؤه أقصى أمانيهم ، انهم يأملون أن يحوزوا القبول عنده ، ويرضى عنهم ، انهم في طريق واحد ولا يعلم أحد منهم مقدار نفسه في الطاعة ، أو منزلته عند ربه ، انما يعلم ذلك هو الله وحده ، وهو المثيب من فضله ، والصوفي دائما ينظر الى " طاعته بعين الذنب الذي يستوجب أن يستغفر الله منه " (١) .

٥ ــ الصوفية : هم الحافظون للقرآن الكريم ، الكاتبون للحديث المقيدون في علمهم وعلمهم بالكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة يقول الجنيد : " من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة " (٢) . ويؤكد أن " الطرق كلها مسدودة على الخلق ، الا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم " (٣) .

٦ ــ الصوفية : " هم خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة " (٤) ولا شك

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦ .
(٢) الامام القشيري ــ الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ٣٢ طبعة صبيح وبهامشها شرح الشيخ زكريا الأنصاري .
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٣ .
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٢ .

أن هذا التعريف تعبير ذاتي عن حالة خاصة بأصحابها ، أنهم الخواص من أهل السنة ، وضبطهم أنهم من خواص أهل السنة ، وفي نفس الوقت يراعون علاقتهم بالله مع أنفاسهم التي تخرج من صدورهم بحيث تظل قلوبهم في ذكر له تعالى على الدوام فلا تقترب منهم الغفلة ، ولا أي طارق من طوارقها ، انهم لايغفلون عن الله ، بل هم معه على الدوام .

٧ ـ الصوفية : هم الذين لايطفئ نور معرفتهم نور ورعهم ولايتكلمون بباطن في علم ينقضه عليهم ظاهر الكتاب أو السنة ، ولاتحملهم الكرامات على هتك استار محارم الله " (١) اذن من قامت به هذه المعاني الثلاثة هو الصوفي ، أما لماذا ؟ فلأن الناظر الى التصوف من ناحية الحقيقة اللغوية يراه قد انتهى الى أنه ـ التصوف ـ ربط العبد نفسه على طاعة الله ، وهذا المعنى متحقق في التعريف الاصطلاحي نفسه .

---

(١) القشيرية في علم التصوف ص ١٧ حيث حكى عن السرى " أنه قال التصوف اسم لثلاث معان ، وهو الذى لايطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولايتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة ولاتحمله الكرامات على هتك محارم الله ".

من ثم · فان الصوفية يقفون على أمور منها :

١ — أن يزيد نور ورعه — وهو العلم اللدنى — على نور معرفتــه الكسبية ·

٢ — أن يقف عند حدود الالتزام بالكتاب والسنة المطهرة ، فاذا تحدث فلا يكون الا فى حدودها ·

٣ — أن تقف به الكرامات عند حد التقليل من شأن نفسه ، مــع التركيز على نسبة الفضل لله وحده ·

٤ — أن يواصل الأعمال الصالحة ، ويديم العبادات فرضهــا والنافلة ، ويكثر من النوافل بكافة أنواعها ، بجانب الفــرض حتى لايقف به الشيطان عند باب الغيب فيدفعه اليه من غيـر أن تكون لديه الملكات القادرة على صده عنه ، فربما حاول معه من باب ترك العبادة ، لأن كل شيء مقدر ، وأنه لايجــرى عليك الا ماسبق لك عند ربك ·

وربما استمر الشيطان معه حتى ترك العبادة ، وطالــب باسقاط التكاليف الشرعية ، أو اعتبر عبادته أصل كرامته ، بينما هو فى الحقيقة ضيف بعبادته ، خفيف بطاعته ، لأنه لو نظر الى نعم الله عليه ، وقارنها بما أفاض فيه من عبادة فحتما سيجد عبادتــه

مرجوحة ، وعمله فى كل أحواله كان قليلا ، فلا ينفعه الالتفات ، وهو فى هذه الحال لايكون صوفيا .

أما لماذا ؟ فلأن الصوفى يكون دائما تحت العمل والطاعة ولايعرف التكاسل ، ان أعمال العبادة متنوعة ، وأفانين الطاعة لاتقف عند حد ، أما المتواكل المتكاسل ، الذى يقف من شرع الله موقفا غير أمين ، فيوحى له شيطانه أن الله ليس فى حاجة الى عبادته ، وأنه قد أدى من العبادة ما كفى ، فهذا المتكاسل المستقطع من شرع الله ما قطع ، اما أن يُستتاب شرعا ، واما أن يُهجَر شرعا ، ان لم تكن هناك يد قويمة تقيم عليه حدّ الله تعالى.

وهذا الجانب — التعريفات الذاتية — لايمكن ذكر ما فيه حصرا ، لأنه مادام حالة ذاتية فلا شك أنها ستتعدد كثيرا مع كل صوفى ، وفى كل قرن ، ومع كل طائفة ، من ثم فتلك صعوبة لايقدّر قيمتها ولايعرف حجمها الا من حاول التجربة ، وجمع من هذه التعريفات ماؤجد أنها خارجة عن ارادته ، وأكبر من حصره ، فلنكتف بما ذكر ، فان الاشارة ربما تغنى عن ألف عبارة .

ثانيا : تعريفات وصفية :

ونقصد بالوصفية هنا أنها تعريفات باشرها مِنْ خارج الصوفية غيرهم ، فهم يراقبون القوم — الصوفية — وأحوالهم ، ثم يقدمون تعريفات لهم من خلال ما تصوروه أوصافا تنطبق على الصوفية انطباقا كبيرا ، ولا شك أن هذه التعريفات قد تكون من خصوم الصوفية الألداء ، أو من محبي التصوف الجهلاء ، أو من المتصوفة الذين لا علاقة لهم بالتصوف الصحيح أبدا ، لكنها جميعا تمثل تعريفات بأوصاف منها :

١ — الصوفية : " قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية ، وآفات النفوس ، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق ، فلما تركوا كل ما سوى الحق صاروا لا مالكين ولا مملوكين " (١) ، بل صاروا صفوة اتصفوا بالصفاء الروحي والذهني ، وهو ما يميزهم عن غيرهم .

٢ — الصوفية : " كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالقطر يسقي كل شيء " (٢) لأن الصوفي الحق

(١) نيكولسون — في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢٣٣
(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٥٣

معطاء ، لاتقف عواطفه الشخصية بين نزعته الايمانية ، انه صورة راقية للانسانية النبيلة ، التى تعلو على الأحداث ، انه كالسحاب العالى الذى يظل الحنظل والتفاح ، وكالماء يسقى كلا منها من غير طلب أجر ، أو تعصب لرأى ، انه مسالم لايخيفه الا أن يهبط رصيده فى القبول عند ربه ، وتلك من مميزات الصوفى الحق .

٣ - الصوفية : هم المعتدلون فى حركاتهم من غير افراط ولا تفريط بل متوسطون فى كل شىء ، وخير الأمور أوسطها ، يأنس الجميع بهم ، ويرجع الكل اليهم "... وفى النهاية فان الصوفية كالأرض فى الدنو والتواضع والسهولة" (١) الا أنها تنبت كل شىء ، وتحمل على ظهرها كل شىء ، ومع هذا فهى لاتكل بهم ، ولا تمل منهم .

انهم أواسط فى صفاتهم ، لايعرفون أى لون من ألوان التقصير ، ولاتقترب منهم المغالاة ، انهم أقرب ما يكون الى الاعتدال الممكن شرعا ، ومن ثم فهم محل الأنس للإنس ، ان

---

(١) الامام / أحمد بن محمد بن عجيبة - الفتوحات الالهية ص ٨٠ طبعة ١٩٨٣م .

الجميع يشعر بوجودهم كعلامات مميزة فى دنيا الناس ، انهم موطن الأمل ، وموضع الرجاء ، وعلى هدى من التزام طريقة القرآن الكريم والسنة المطهرة يطبقونها فيقع لهم الرخاء •

بيد انهم مع هذا أقرب الى الناس بحكم شرع الله تعالى ، ملتزمين أوامره ، لكن لهم سمات يعرفون بها ، انهم الى التواضع واليسر والسهولة يعيشون فيها ، وتلك صفات الصوفية أنفسهم • انهم لا يطلقون هذا الاسم الا على من دخل الصفاء فصفى تماما ، ومن ثم سمى بالصوفى •

وربما عبر عن هذا المعنى لسان الشعر ، كما عبر عنه النثر اذ يقول الشاعر :

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا   وكلهم قال قولا غير معروف •

ولست امنح هذا الاسم غير فتى   صافى فصوفى حتى سمى الصوفى (١)

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢

ثالثا : تعريفات قاموسية عامة :

عرف المعجم الوجيز الصوفيـــة بأنهم :

١ ـ من يتبعون طريقة التصوف ، كما أنهم العارفون بالتصوف" (١)

وهذا التعريف يقرر حالة ، ويذكر صفة لقوم على طريقـــة واحدة يسيرون ، ثم انهم فى نظره جملة الصوفية ، وأنهـــم يتبعون طريقة التصوف وبها يعرفون ، فهم قد عرفوا عـــن الطريق وليس من السلوك .

غير أن هذا التعريف أقرب الى التعاريف الأسمية منـه الى التعاريف الاصطلاحية ، ان لم يكن هو أحد التعاريف الاسمية ، وربما تسألنى لماذا ؟ والجواب أنه ركز علـــى الأتباع للطريقة الصوفية ولم يفرق بين الصوفى والمتصـــوف. كما لم يفرق بين أهل الأشكال والمظاهر وأهل العرفـان ، كما أنه ركز على تعريف الطريق والمراد تعريف مرتاد الطريق؛

٢ ـ الصوفية : هم أهل بيت واحد ، لايدخل فيهم غيرهم" (٢)،

وتعريفهم بأنهم أهل بيت واحد ، تعريف عام يشمل كـــل

---

(١) المعجم الوجيز ص ٣٧٤ مادة ص و ف .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٢ .

جماعة لها طريق واحد ، وتعريف واحد ، بحيث لا يخص الصوفية وحدهم ، فمثلا العائلة التي يقف أبناؤها على بيت واحد هم أهله يدخلون في التعريف ، وكذلك أصحاب المهن فكل مهنة وحرفة يمثل أصحابها أهل بيت واحد ، ولذا كان التعريف عاما .

٣ - الصوفية هم : المنتسبون " الى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب اليهم النساك" (١) وهذا التعريف يجعله ابن تيمية موافقا للنسب من جهة اللفظ ، وان كان ضعيفا من حيث الاشتهار به ، والغلبة عليه .

ولذا يحاول ابن تيمية مهاجمة ذامي الصوفية ويتهمهم بالاسراف في ذمهم فيقول : قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك " ويصف الصوفية بأمر مهم جدا في الدين والعبادة ، فيقول : " والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون "(٢) فأين قول ابن تيمية هذا

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية - التصوف ص ٦ مجموع الفتاوى المجلد ١١ جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ط الرياض .
(٢) ابن تيمية - الفتاوى - التصوف ص ١٣ ، ١٤

من الزعم بأنه يكره الصوفية ؟ !!

ثم يقول مرة أخرى : " والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب ، ومن المنتسبين اليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه " (١) اذن ابن تيمية يعترف بالتصوف ويزكى الصوفية ويهاجم من يذمهم ، كما يميز بين الصوفية والمنتسبين اليهم وتلك لفتة جميلة وعمل ذكى .

٤ - الصوفية من جملة الزهاد ... الا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال ، وتوسموا بسمات" (٢) ، ثم أن الصوفية لهم صفة هى الانقطاع الى الله عز وجل ، وملازمة الفقر ، وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، حاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٨

(٢) أبو الفرج بن الجوزى البغدادى - تلبيس ابليس ص ١٧١ ، تحقيق السيد العربى مكتبة الايمان .

الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهـــد والحلم الى غيرها من الصفات الحسنة التى تكسب المدائـــح فى الدنيا والثواب فى الآخرة" (١) •

" وقد كان أوائل الصوفية يقررون : بأن التعويل على الكتاب والسنة" (٢) والالتزام بهما هو الفيصل فى المسألة ، بل هو المنهج الذى يجب اتباعه ولامحيد عنه ، من ثم فان هجوم ابن تيميـــة وابن الجوزى وغيرهما ليس على التصوف ، كما لاينصب على الصوفيـة وانما هو على المنتسبين للصوفية ، بل قد ذكرهم كل مهاجم وعناهم وصفهم بأنهم خلطوا التصوف بالفلسفة ، وغيرها على ماهو معلـــوم لدى الصوفية أنفسهم والدارسين لهم •

والمعلوم أن هؤلاء المتصوفة خلطوا أفكارهم عن التصـــوف بالأفكار الأخرى ، حتى بات الأمر غير واضح ، ومزجوا بين الأقوال والأفعال ، بل جعلوا أقوالهم غير الموثقة أصولا ، وصنعوا ممـــا

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٧٣ •
(٢) المصدر السابق ص ١٧٨ •

تصوروا خيالات ، حاكوا حوله الأساطير ، حتى جاء وقت غلبت الخيالات والأساطير على غيرها ٠

بل لم يجد هؤلاء المتصوفة أصلا شرعيا يمكن الاعتماد عليه فيما يأتون أو يذرون ، كل ما فى الأمر أنهم انتسبوا الى التصوف ، أو تسموا بالصوفية ، والانتساب أو التسمى وحده لايكفى ، انما لابد من قرن أى منهما الالتزام بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، فاذا خلا الأمر منهما ، لم يعد تصوفا ولاصوفية ، وانما مجرد ادعاء وتسمية ٠

رابعا : تعريفات سلوكية :

نقصد بالسلوك الطريقة التى يسير عليها الصوفى درب حياته الروحانية لا الجسدية ، من ثم فانهم من هذه الناحية يعرفون أماكنهم فى الدنيا بقلوبهم ، لأن أنماط الحياة المختلفة عند الناس واحدة عندهم ، انهم لايعنون بأكثر من التركيز على الرقى بمنازلهم عند ربهم ، ولذا وُجدت لهم على هذا الجانب تعريفات كثيرة منها:

١ — مراعاة حسن الأدب مع الله :

ذلك لأن الصوفى مقبل عليه ، لايدبر عنه ، أنه أمله المرتجى

ولذا فهو دائم التعلق به جل علاه مع حسن الأدب فى كل الحالات التى يظاهرها الغير أو يخالفها ، يقول ابن خلدون الصوفى هو الذى " يراعى حسن الأدب مع الله ، فى الأعمال الباطنة والظاهرة ، بالوقوف عند حدوده ، مقدما الاهتمام باقفال القلوب ، مراقبا خفاياها ، حريصا بذلك على النجاة ، فهذا هو الرسم الذى يميز هذه الطريقة فى نفسها ، ويعطى تفسيرها على ماكانت عليه عند المتأخرين من السلف ، والصدر الأول " (١) فى الاسلام .

بيد أن مراعاة الأدب مع الله تعالى التزم بها الصوفية فى كل مناحى الحياة ، فهم لايطلبون الا الرضوان ، ولا رجاء لهم الا الغفران ، انهم اذا دعوا الله ففى حياء ، واذا سألوه تعالى فعلى استحياء ، يرونه فى كل حال معهم ، ومع كل الأوقات ، انهم لا يفكرون لحظة فى الانصراف عن وجهه الكريم ، لذلك كانت قلوبهم فى حدود الشرع منطلقة ، وفى هدى منه متطلعة ، لاهم لهم الا ضبط المشاعر حتى ترقى ، والنفس حتى تزكو ، والجوارح حتى تألف الخير ويصير لها عادة .

---

(١) ابن خلدون — شفاء السائل ص ٧٥ تحقيق الطبخى ط ١٩٧٥

٢ — التزام الصدق فى كافة أحواله :

ربما ينظر الناس للصدق نظرة الطامع فى النجاة ، طالما كان الصدق فيه المنجاة ، أما اذا لاح له فى الصدق أمر يضيّق عليه فيه فانه ينقلب على عقبيه ، ويؤثر السلامة فى الكذب عن الهلكة مع الصدق ، فاذا برزت له السلامة فى الصدق مرة أخرى عاد سيرته الأولى ، وربما أقسم معقدا ايمانه ، ومقعدا لما يرنو أو يتطلع ، وليس ذلك الشأن مع الصوفى ، انه يلتزم الصدق فى كافة أحواله ، أما لماذا ؟ فلأن الصدق له واجهة واحدة .

بل ان الصدق من سمات الصوفى ، سواء مع نفسه أو مع الآخرين ، لأنه يرى الصدق علاقة تنشأ بين العبد وربه وان كانت تجرى بين الناس ، يقول ابن تيمية : " ولهذا كان بعض المشايخ اذا أمر متبعيه بالتوبة ، وأحب أن لاينفره ، ولايشعب قلبه ، أمره بالصدق ، ولهذا كان يكثر فى كلام مشائخ الدين وأئمته ذكر الصدق والاخلاص ، حتى يقولون : قل لمن لايَصْدُق لايتبعنى ، ويقولون : الصدق سيف الله فى الأرض ، وما وضع على شىء الا قطعه " (١) .

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — الفتاوى — علم السلوك مجلد رقم ١ ص ١١ .

وابن تيمية — رحمه الله — صوفى من رأسه حتى أخمص قدميه ، لكنه يفرق بين التصوف الذى يراه حقا ويحبه ، وتدعوا اليه نصوص الذكر الحكيم فى الزهد والصدق والرحمة وغيرها ، وبين المتصوف الذى لايعرف عن التصوف حتى صحة الاسم ، ولذا رأينا شيخ الاسلام يمتدح الصوفية ، ويتحدث عنهم باحترام شديد ، ويذكر أن علماءهم من جملة علماء السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

بل ويذكر الجنيد ، والكرخى ، والدارانى وغيرهم ممن لهم فى التصوف ذكر عال ، وهمة كبيرة ، ويكاد الشيخ عبد القادر أن يستحوذ على نصيب كبير من فكر ابن تيمية رحمه الله ، وكذلك جلة علماء السلف من المتقدمين والمتأخرين (١) ، مما لامجال لاحصائه ههنا وان كانت الاشارة تغنى أحيانا عن ألف عبارة .

لكن اشارتنا ههنا ستكون قول شيخ الاسلام ابن تيمية نفسه حيث يتحدث مبينا الفرق بين الصوفية والمتصوفة ، وأن الصوفية هم أهل الفضل والخير ، فيقول : " فأما المستقيمون

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — الفتاوى — علم السلوك مجلد رقم ١٠ ص ٥١٦ وما بعدها .

من السالكين كجمهور مشائخ السلف ، مثل الفضيل بن عياض وابراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخى ، والسرى السقطى ، والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين .

ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ أبى البيان وغيرهم من المتأخرين ، فهم لايسوغون للسالك ولو طار فى الهواء ، أو مشى على الماء ، أن يخرج عن الأمر والنهى الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ، ويدع المحظور ، الى أن يموت ، وهذا هو الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة ، واجماع السلف" (١) .

وليس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وحده ، بل ان ابن الجوزى ـ المشهور عنه لدى متوسطى القراءة أنه من ألد أعداء التصوف ـ تراه يزكى التصوف ، ويمتدح الصوفية ، بل ويسم التصوف الحق بمعيار الثبات والشمول ، مع الصدق والتقدير ، ويصف الصوفية الحقيقيين بأنهم أهل شجاعة واقدام فى سبيل الله " انهم يؤثرون الموت على الحياة ، ويقدمون للبطولات صورا عديدة" (٢) ،

---

(١) المصدر السابق ص ٥١٦ ، ٥١٧
(٢) ابن الجوزى ـ تلبيس ابليس ص ١٨٤ وما بعدها .

كل ذلك فى سبيل الله جل علاه ، ورفعة دينه بين العالمين .

ولأن الصدق سلوك ايجابى قائم على ممارسة المرء السيطرة على داخله ، والحكم الذاتى من نفسه ، ومباشرة سلطات النفس المطمئنة على الجوانح المفزعة ، والجوارح المنطلقة ، والعواطف المتباينة ، لكن هذه الممارسة لابد أن تكون مستمدة من نص معصوم ، ولذلك التزم الصوفية النقل المنزل ، الذى كشف الفوارق بين الصدق والكذب ، وبين أن النفاق أقرب الى الكذب ، وأبعد عن الصدق .

كما سجل النقل المنزل حقيقة الكذب ، وأنه موصل للفجور حتى اذا ما حاول العقل الملبد بالغيوم فرض ضميره الساذج على قوى النفس أفزعه الضمير الحى ، وصرخ فى أعماقه : اياك والكذب ، فانه حتما سيؤدى الى النار ، من ثم يرجع مبكرا وترسو سفنه المفزعة عند شواطىء الصدق ، حتى يعمقه فى نفسه ، رغبة فى تخطى الكذب ، وحتى يكتب عند الله صديقا ، بدل أن يكون كذابا .

بل لانغالي اذا قلنا : " ان التزام الصدق يجعل صاحبه في نور مستمر ، ورصيد من الحسنات لايقف عند حد ، قال ابن عباس : " ان للحسنة لنورا في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البدن ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق ، وان للسيئة لظلمة في القلب ، وسوادا في الوجه ، ووهنا في البدن ، وضيقا في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق " (١) ٠

وأهل الحق هم أهل الصدق ، أهل البر ، أهل الجنة ، هم الصديقون الذين جعل الله أجرهم ونورهم فوق أجر من دونهم وأعلى من نورهم ، ولانبتعد عن الحق ان قلنا بدلالة الحديث الشريف ومنطوقه في قوله صلى الله عليه وسلم " عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا " ٠

واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا " (٢) ٠ واتيان الحديث الشريف بلفظى صديق

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية ـ الفتاوى ـ علم السلوك ص ٦٣٠
(٢) متفق عليه من رواية الصحيحين ٠

وكذاب ، على صيغة المبالغة فيه اشارة نبوية بأن الذى تكرر معه الصدق يتكرر معه الأجر ، والذى تكرر منه الكذب يتكرر معه الوزر ولايظلم ربك أحدا .

فضلا عن أن الجو الصوفى العام يشيع فى نفس الصوفى نوعا من الرغبة المستمرة فى الاتباع ، والانسلاخ من الابتداع ، انهم يحاولون التزام آداب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبخاصة أنه قد رسخ فى أعماقهم أن اتباع المرسلين خير وسيلة لبلوغ الطريق القويم ، أما لماذا ؟

فلأن الرسل جميعا " قوم غمر الايمان أفئدتهم ، وغمر اليقين أرواحهم ، فهم يتمثلون أهدافهم التى يسعون اليها ، مجسمة محققة ، لايساورهم فى ذلك شك ، ولاتخالج أنفسهم ريبة ، وهم لهذا يقدمون نحوها فى ثقة المشاهد المشارق ، وتأكد الموافى للظفر الملامس للنصر ، لايثنى عزمهم عما يطلبون أى شئ ، لأنه دان منهم ، وعلى منال أيديهم فى رأى العين ، واطمئنان القلب...

ملكهم اليقين النفسى ، وفاض على كل ما حولهم من الدنيا نورا يمحو كل ظلام ، واقداما يبدد أى عقبة ، فكل صعب عند الناس هو عند الله هين ، وكل عسير على الناس هو عليهم يسير ،

... انهم فى إقدامهم يفقدون غريزة حفظ الذات ، والمحافظة على النفس ، ويتغلبون على المعروف من شأن الطبيعة البشرية فى الاتجاه الى حماية وجودها ، والولع بصيانة كيانها ...

ينسون ذلك نسيانا ، حتى ليلقى الواحد منهم الأمة المخالفة والجيش المعبأ ، والجماعات العصية الأبية ، وهو فرد وحيد فيرى نفسه عدّ ل ذلك كله ، وكفء ذلك كله ، بل يرى نفسه أقدر من ذلك كله وأظفر ، مايشك طرفة عين فى أن النصر له ، والظفر معقود بلوائه فهو يغامر فى جرأة مدهشة مستهينا بكل شئ ، غير معْنى بما يواجه وجوده من خطر" (١) وقد كان الصوفية يتمثلون ذلك كله ويعتبرونه المثال الحى الذى يجب أن يطبق فى الحياة العامة والخاصة على السواء .

بل ان الصوفية حملوا لواء الدعوة الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، ضاربين الأمثلة الحية فى القدوة المثالية التى فاضت على أرواحهم ، وتشبعت بها عقولهم ، من هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، فكانت لهم جولات فى الجهاد بالنفس والمال ، وصولات فى منازلة الأعداء ، ووقفات لتعليم العلم

---

(١) الاستاذ / أمين الخولى ـ من هدى القرآن ص ٤٨ سلسلة روائع الأدب العربى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م .

وتخريج الأبناء الذين عرفوا الطريق فالتزموه ، وكانت لهم على ثغور البلاد الربط التى عرفت بهم ، والزوايا التى تسمت باسمائهم ، وهم فى كل ذلك يلتزمون الصدق ، ويبتغون الحق ، فكانوا هداة الى ما شرع الله على ألسنة رسله جل علاه ٠

٣ — نزع سلطان الدنيا من قلبه :

كثير من الناس لايعنيه سوى الحياة المعاشة ، انها أمله ونجواه ، حولها يسبح ، ولها يسجد ويذكر ، تراه الى المال مهتما بجمعه ، لايعنيه من أين يجمع ، أو الى شهرة زائلة مقبل ، لاينظر على أكتاف من يركب ، وقس على ذلك سائر شئون الحياة الدنيا ، حتى انه يمكن وصف هؤلاء وأولئك بأن سلطان الدنيا يحرك قلوبهم والمشاعر ، ويسيطر على الجوانح والجوارح ٠

بيد أن الصوفى يشعر أن سلامته فى خلو قلبه من سلطان الدنيا ، انه يقاسم الناس الحياة ، فليس طاقة معطلة ، أو قسوة مهملة ، وانما يعمل فيها بجد وهمة ، ويباشر مهامه فيها على الوجه الأمثل ، لكنها فى كل حالاتها مسألة وقت ، لاتستحوذ على عقله ولاتمس شفافية الايمان من قلبه ، لأنها ان اقبلت عليه فقد ابتلى بها

وان ادبرت عنه فقد ابتلى بها ، وكل منهما لايشغل قلبه ٠

من ثم فان الصوفى على هذه الناحية هو " من أحس قلبه السلامة من الدنيا ، كما أحسها قلب ابراهيم فأطاع أوامر الله ، ومن كان تسليمه كتسليم اسماعيل ، وحزنه كحزن داود ، وفقره كفقر عيسى وشوقه كشوق موسى فى مناجاته ، واخلاصه كاخلاص محمد صلى الله عليه وسلم " (١) ٠

ولذلك فان الصوفية تتوافق أعمالهم الظاهرة مع الباطنة ، وينزعون من قلوبهم التعلق بالدنيا ، حتى يفرغوا لذكر الله والتعلق به ، ان النية والقلب ، والضمير والعواطف ، والمشاعر الراقية ، وكذلك أعمال الجوارح التى تؤدى بها العبادات ، وألوان الطاعات بحيث لايكون فى سلوكه أى لون من ألوان الرياء ، من ثم ٠ فان هذا السلوك ربما لايوجد الا عند من صفى نفسه من كل أثر للدنيا على قلبه ، وأنزلها الى الحديث القدسى " يادنيا من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه " ٠

---

(١) ارنولد — نيكولسون — فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٣ ، ترجمة د / أبو العلا عفيفى ٠

٤ — دوام التصفية :

الصوفي دائم التصفية ، انه يحاسب نفسه بالليل قبل مجيء النهار ، ويزن أعمال نفسه بالنهار قبل أن يجن الليل ، ويبذل في سبيل ذلك ما أمكنه ، فهو " دائم التصفية ، لايزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس ، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه ، ... فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف"(١).

وهو في هذا ينفذ أوامر الملك العلام في قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ " (٢) الذي استجاب له كل من صفى نفسه عن الاكدار ، وتعلق من الآخرة بخير دار ، ولم يطف بذهنه انخراطه في عبدة دار البوار ، وذلك شأن الصوفي ، لأنه دائم التصفية من هذه الأغيار ، والتخلي عنها ، والتعلق بما هو خير وأبقى ، وأعده الله تعالى للقائمين على أوامره ، المتمسكين بشرعه ، الذين يخلصون له وحده .

---

(١) السهروردي — عوارف المعارف ص ٥٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٨ ، وتمام الآية قوله تعالى: "ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون " وفي سورة النساء قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا=

ودوام التصفية ليس مؤقتا ، بمعنى أنه ليس هناك وقت من الأوقات يرى الصوفي نفسه فيه قد اكتملت ، والا بلغ به الأمر مبلغ الكبر ، انه يحاول دائما أن يكون في كل الأوقات ، وتحت كل الظروف ، في خدمة مولاه ، ولايكون ذلك متحققا له الا اذا أدام المجاهدة والطاعة ، وبذل المزيد من تصفية النفس ، وتنقية العمل وانتقاء أفضل الطرق لارضاء مولاه .

ولذا عُرّفوا أيضا بأنهم " الذين أثروا الله تعالى على كل شيء ، فآثرهم الله على كل شيء ، فكان من ايثارهم أن أثروا علم الله على علم نفوسهم ، وارادة الله على ارادة نفوسهم " (١) وهم في هذا الأمر باستمرار ، لاتجد منهم رغبة في التخلي عنه أو التخفي من خلفه ، ان كل حركاتهم مرصودة عليهم من قبل ملائكة رسهم الذين " لَايَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ " (٢) .

= كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهدى أن تعدلوا وان تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا " الآية ١٣٥ .

(١) السهروردي — عوارف المعارف ص ٤٩ .

(٢) سورة التحريم الآية رقم ٦ .

٥ - اختيار الأمثل شرعا :

قد يتوهم بعض قليلي الثقافة ، أو الذين ركنت بهم عقولهم عند منعطف القدح والقبح ، أن الصوفية بلهاء ، فيهم من وهن العقل وضعف الذاكرة ما فيهم ، وماذلك الا لأنهم لم يتعرفوا على الصوفية ولم يعرفوا المتصوفة ، وانما خلطوا بين الأثنين ربما عمدا ، وقد يكون من باب الكيد واللدد ، وبالتالي يصدرون أحكاما على القوم فيها رعونة وتسرع ، وليس فيها شيء من التأني والأناة ، والصبر مع الدقة والتأكيد ·

ومن هذه الأحكام المتسرعة أن الصوفية بلهاء لايميزون بين الأشياء ، فترى فيهم الأبله ، والآبق ، وطريد الفراش ، وهجير الزوج ، وشانيء النعم ، وكذلك ما يشين في حق العقلاء ، ولايلحق الا بالبلهاء ، بل ربما وصلت بهم الحماقة القدر الذى لايمكن ضبط أصوله حتى تسمى بعضهم بالبهلوان ، والأهبل ، والبهلول وخلافه·

والحق أن الدارس المنصف يجد هذه الأحكام بقسوتها لاتنطبق الا على المتصوفة ، أما الصوفية فلا ، والدليل أن شيخ الحنابلة الامام / أحمد رحمه الله - كان يقول : " معروف الكرخي

من الأبدال ، وهو مجاب الدعوة" وذكر في مجلس أحمد أمر معروف الكرخي ، فقال بعض من حضر : هو قصير العلم . فقال أحمد : أمسك عافاك الله ، وهل يراد من العلم الا ما وصل اليه معروف ؟

وقال المعافى بن زكريا الجريري : " حدثت عن عبد الله ابن أحمد بن حنبل أنه قال : قلت لأبي : هل كان مع معروف شيء من العلم ؟ فقال : يابني كان معه رأس العلم خشية الله تعالى " (١) فهل من المعقول أن يشهد أحمد في معروف شهادة في غير موضع ؟ وهو الذي لم يتنازل عن أمر اعتقده حتى بعد ضربه وجلده ، بل وتعرضه للموت ؟! اذن الصوفية كانوا أهل علم ما في ذلك أدنى شك ، ولم يكونوا بلهاء كما يزعم خصوم المتصوفة .

بل ان الصوفية كانوا أهل تميز وعلم ومعرفة حتى قيل : " ان الصوفي هو من اذا استقبله حالان حسنان ، أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن " (٢) فهل يميز الأبله ، أو يختار الغبي ، أو يفرق بين الحسن والأحسن الجهول ؟ وليس هذا وحده ، لكنك ترى

---

(١) أبو اليمن بحير الدين عبد الرحمن العليمي - المنهج الأحمد في تراجم اصحاب الامام احمد جـ ١ ص ٦٠ ، ٦١ ط المدني تحقيق المرحوم الشيخ / محمد محي الدين عبد الحميد .

(٢) السهروردي - عوارف المعارف ص ٥٧ .

الصوفى يلاقى الخُلُقين الحسنين فيزنهما بميزان التقوى حتى اذا انصرف الى أن أحدهما أحسن من الآخر انطلق اليه من غير تكبر أورغبة فى لجج أو عناد ٠

بل تردد أيضا أن الصوفى هو " المستبين الأحسن من عند الله ، بصدق التجائه ، وحسن انابته ، وحظ قربه ، ولطيف الوجه ، وخروجه الى الله تعالى لعلمه بربه ، وحظه من مجادثته ومكالمته (١) من ثم ٠ فان الصوفى دائما فى وفاق مع نفسه ، والآكيف يتمكن من اختيار الأحسن وترك الحسن ، أو اختيار الأفضل وترك الفاضل ، وهذا الموقف يجعل الصوفى يعيش على لغة العلم وبها حتى يتمكن من معرفة ما هو مقبل عليه ، أو مدبر عنه ٠

لكن أين موقف الصوفى من أمرى الخير والشر ، أو من مسألة الضر والخير ؟ والجواب : أن الصوفى فى هذه الناحية أمكن القول بأنه " من لايتعبه طلب ، ولايزعجه سلب" (٢) لكن لماذا لايتعبه طلب ، وطلب الخير أمر فطرى فى الناس ؟ أو دفع الضر وهو أيضا صورة قائمة بين كل الناس ؟

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٥٧

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٧

والجواب أن ذلك راجع للصوفية أنفسهم ، انهم القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيد هم من شر نفوسهم " (١) الواقفون أمام أنفسهم من أنفسهم ، فهم فى كل الأحوال يلتزمون القرآن الكريم ، ويحاولون تطبيق الشرع فى أنفسهم تطبيقا يتناسب مع رغباتهم ، فكلما سمت روح الصوفى ازداد شوقا وقربا وتعلقا ، وهكذا حتى يبلغ فى العبادة أرقاها .

فاذا أضيف الى ما سبق المنهج الذى يعتصم به الصوفى والنمط الذى يحاول تقليده ، واتباعه بعيدا عن عناصر الابتداع ، أمكن القول بأن الصوفى قد تميز بخلال ، واحتفظ بسمات قل أن تجدها فى غيره ، وان لم يعلن عنها هو .

من ثم يمكن القول بأن الصوفية قد انطلقوا فى كل مناحى الحياة طلابا للعلم ، عُبّادا لله ، زهادا فى الحياة ، طلابا للآخرة ، مجاهدين فى سبيل الله ، محافظين على سلوك راق يباشرونه فى شتى حياتهم ، انهم يتاجرون مع الله تجارة ليس لها مثيل ، تجارة الراجى رضوانه ، الآمل غفرانه ، المتطلع الى نعيم

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ .

ورضوان ، مع استمرار وعدم حرمان ٠

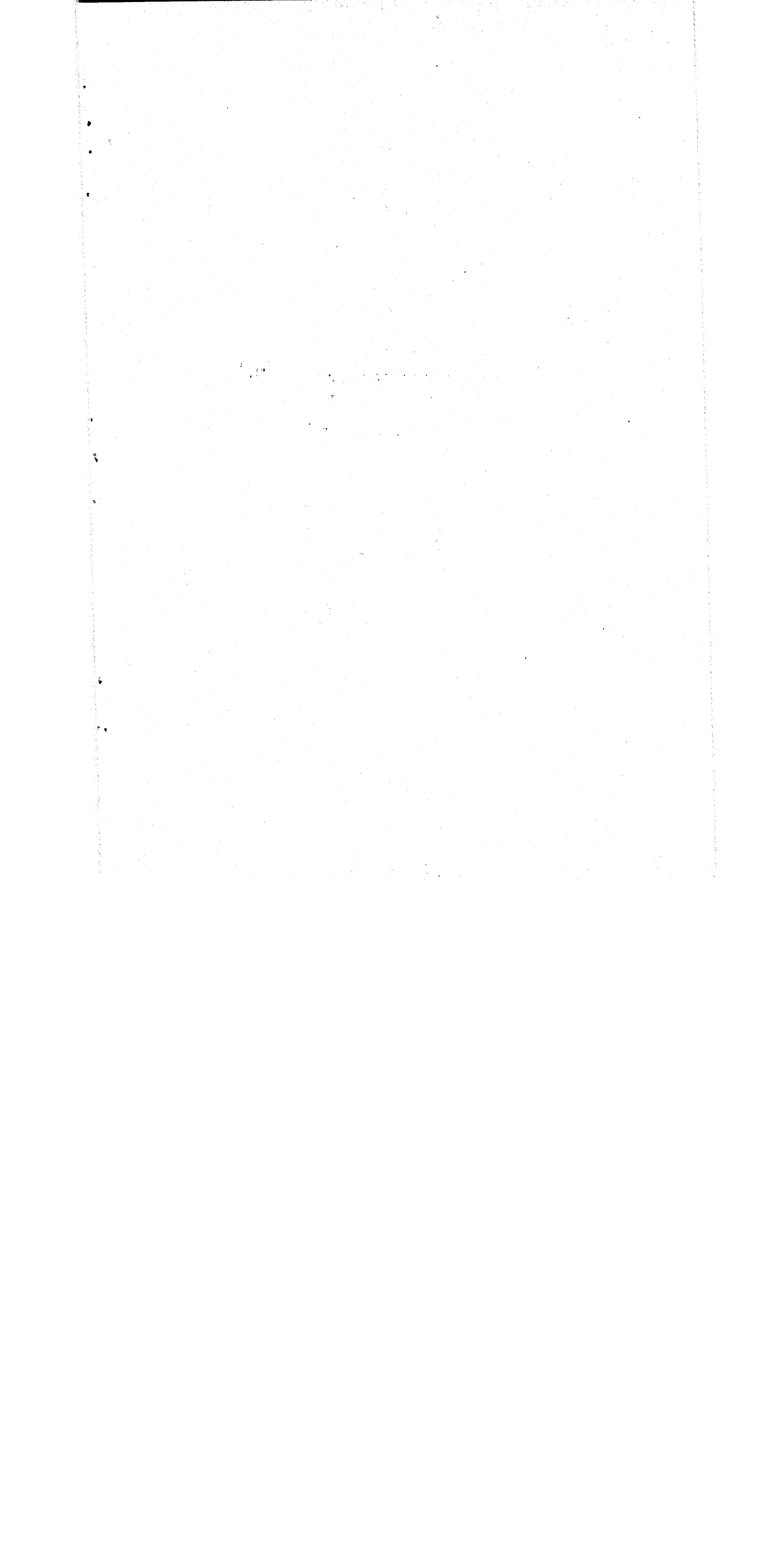
بيد أن الصوفية لم يكونوا فى هذا نمطا واحدا ، أو قالبا لايقع فيه التمايز ، وانما كان فيهم السابقون ، ومنهم المقربون ، ومنهم من على الدرب يسيرون ، وهل بعد صفاء النفس ، واصطفاء الله شئ ؟ !

ذلك مجمل ما يمكن ذكره بالنسبة للصوفية ، فمن هم المتصوفة هذا ما سوف نلتفت اليه بقليل من العناية حسب الظروف التى أحاطت ، والمشاعر التى ألمت ، والله من وراء القصد ٠

الفصل السابع

المنتسبون للصوفية

(المتصوفة)



تمهيـــــد :

كم تمنيت أن أجد مؤلفا تحدث عن المنتسبين للصوفية ، مـــن خلال معايشة كاملة للقوم ، تنقل بينهم ، وعاش بين أفرادهم ، وحل معهم وارتحل ، حتى تمكن من الاطلاع على أنماط حياتهم ، وكيـف تكون سطوتهم على من ينتسبون اليهم ، وما هى مصادر أموالهـــم ، وكيف يعيش الحياة بنوهم والبنات .

بل كم حاولت التنقيب عن هذا الذى تمنيته ، وأن تكون كتاباته عنهم من خلال واقعهم المعاش نفسه ، حتى تكون قراءاتهم مـــن خلاله قراءة أمينة ، فيها الواقعية والصدق والموضوعية ، بعيدا عـن التعصب لهم ، أو الكسر عليهم ، أو أن يكون محبا وَلِهاً ، أو كارهـا مُذِمًّا . ولكن ......

بيد أن هذا قد كَمُنَ فى ذاكرتى ، واختفى بذهنى حتى شب عن الطوق ، وبات من العسير البقاء عليه فى قمقمه ، لذا رحلـــت اليهم ، وجالست بعضهم ، وعايشت بعضا آخر ، كنت بينهم كواحـد منهم ، لكنى لم أخذ لهم أو أخدعهم ، فما كان لى من غـرض الا أن

أكون أمينا فى العرض والأداء .

أجل . بعضهم كان يتخوف التعامل معى ، وكان مريدوه يلحون عليه فى مقابلتى والتعامل معى ، وكان جوابه انه صعب اقناعه ، بل من اليسير أن يقنعك بما يريد ، هو لا بما تريد ، أنت وقال آخر أخشى على نفسى أن تعاملت معه أن يغير موقفى من كافة أنماط حياتى .

وكان بعض آخر يميل الى تحذير اتباعه من التعامل معى وينكر نفسه عند حضورى الى ساحاتهم التى فيها الاقامة ، وفيها الظعن وقد حاولت لقاءه لما تأكد لى أنه موجود بداخل منزله ، فما كان منه الا أن خرج بُعَيْد العصر وقد لف رأسه بعمامة صفراء زاعما أنه كان مختفيا ، وأنه فى هذه الاختفاءة زار الحسين والسيدة فى صلاة الظهر ، وصلى مع السيد البدوى العصر ، وأنه عائد لتوه من مقابلة الشيخة صباح ، وعشاءً سيكون مع الدسوقى بدسوق .

ولما رجوته أن يخبرنى أحوالهم ، وما هم فيه الآن من رضوان ونعيم ، أو مواقف أخرى ، جاء رده ، مثلك لايصدق بالأسرار ، رجوته أن يقص وسوف أصدق أسراره ، فما كان منه الا سرح بخياله

حتى زعم أنه لن يتمكن من الادلاء بأية معلومات لأن الأوامر لم تصدر له بذلك ، ويخشى إن أفشى الأسرار يحرم من الأنوار .

غير أني حاولت الزج به في باب الكرامات ، وكيف وصل اليها حتى صار يتناول افطاره مع الأموات ، ويتناول الغداء مع أموات القرن السابع عشر ، ثم يتوضأ مع موتى القرن التاسع عشر ، ويصلي العشاء في طنطا ، ويوتر في القدس ، ويصلي صلاة الليل بمكة المكرمة ، فما كان منه الا أن أكد على ما دفعته اليه ، حتى شعر بالسخرية من نفسه ، ومع هذا قال : من ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

من ثم . فان الحديث عن المتصوفة سوف يكون ضبطا لأحوالهم ، ورسما لصورة حية تعيش داخل خلواتهم والساحات ، وفي مساجد الطائفة والمزارات ، وبين العاطلين من العمل مع القدرة عليه من المرابضين تحت اسم الشيخ ، أو خدمة السيدة المصون ، كما أنني سأعتبرها مصادر حية ، لأني عايشتها بنفسي ، وسوف لا أذكر أسماء أو طوائف ، لأن القواسم المشتركة بينهم تكاد أن تكون متقاربة .

كما أني قد وعدت بعض القاعدين لهم الستر ، وشأن الحر الوفاء ، والمؤمن الالتزام بالعهد ، حتى لاتضيع مصالح مشتركة ولا تقف أرزاق أو عطايا ، أو تصبح حياتهم كتابا مقروءا يكتب سطوره مريد وهم ، وحينئذ تتغير المواقف ، وتتعثر الخطوات ، وحسبي أن أرسم صورة شبه مفصلة عن المتصوفة وحياتهم ومظاهرهم فمن هم ؟

الحق أن المطالع لكتب الصوفية وخاصة مايتعلق منها بتاريخ الصوفية يجد محاولات متعددة للتعريف بالصوفية والتفريق بينهم وبين المتصوفة ، ولكنها في الأغلب الأعم محاولات لم يقدر لها أن تظهر على شكل واضح ومنظم ، ولكنها على أقل تقدير محاولة .

كما أن من يطالع التراث الصوفي في مدارسه ونظرياته ورجاله ومقاماته وأحواله ويحاول التفرقة بين الثابت الأصيل منها والدخيل عليها الذي صنعه المتصوفة ، سوف يجد فوارق بينة وحدود واضحة يمكنه من خلالها التعريف بالمتصوفة والوقوف مع المنتسبين للصوفية وهو ما سوف نقوم به في تلك المحاولة مع ملاحظة أن الضرورة التي فرضت نفسها ملحة والوقت ضيق فمن هم طبقا لتلك المحاولة :

سلف الحديث عن التصوف والصوفية وعلم التصوف ، وبان لنا أن هنالك فروقا جوهرية بين كل من المصطلحات سالفة الذكر ، كما اتضح أن المسألة على النحو الذى تناوله من سبق كانت بحاجة الى مزيد معالجة ، حتى تتضح الحقائق ، وتظهر الأدلة ، وهو الذى بلغ شأوا فى صدرى من حيث بدأنا الحديث فى هذا الكتاب .

وحيث بلغت الرحلة معنا شواطىء الحديث عن المتصوفة ، فحرى بنا السير طبقا لما استعملناه من المنهج الذى كان لها به عهد ، من تقديم تعريف للمتصوفة يجمع حالاتهم والأحوال ، ويركز على أصولهم والأشتات ، لأن البعض من الدارسين قد اختلف حولهم ، وبات الاختلاف لاتجمع بينه رابطة ، ولايمكن الوقوف به عند حد معين ، فمنهم :

١ — من نسب المتصوفة الى الدجل والخرافات .

٢ — من نسبهم الى التشبه بالصوفية والتقليد .

٣ — من رماهم بالجهل وسوء الطوية .

٤ — من تخليهم أراجوزات تلعب بالأحلام والنهى .

الى غير ذلك من التقسيمات التى ربما صحت كلها أو بعضها أو انطبقت عليهم كلها ، حتى بات التحذير منهم أمرا شرعيا والتنبيه على خطرهم ضرورة دينية ، والنهى عنهم قاعدة ، والاختلاف معهم

شرطا لابد من الوفاء به ، وعهدا لايمكن نصم عراه ٠

أجل يجب " التنبيه الى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة ، الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية ، كدخول النار ، وضرب أنفسهم بالسلاح ، والامساك بالثعابين ، والاخبار بالغيب " (١) ليس الا صورة غير مقبولة فيها الخداع والتمويه ، ما يجعلها تخرج بأصحابها عن دين الله كلية ٠

ولا أعدو الحقيقة فى القول : بأن المتصوفة غير الصوفية ، وأن المتصوفة هم العدو اللدود للتصوف والصوفية ، انهم يمثلون الصديق الغر ، والعدو المتمرس فى العداوة لكل من التصوف والصوفية معا ، ولذا كانت الانتقادات كلها توجه اليهم ، كما أن كافة أنواع الخروج على الشرع الحنيف والمخالفات لم تقع الا منهم ٠

بل ان الدارس المنصف يراهم قد ادخلوا على التصوف كل دخيل ، وعلى الصوفية كل دَعِى ، فأعمالهم فيها الخسران وهى الخسارة بعينها ، وفيها النكران وهى النكارة نفسها ، من ثم اطلاق

---

(١) د / محمد خليل هراس — شرح العقيدة الواسطية ص ١٢٦ ط ٤ مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ٠

الوصف عليهم بأنهم المبتدعة ، أهل البطلان والزندقة ، لأنهم حاولوا تشويه الوجه الجميل للتصوف ، والسلوك الحميد للصوفية .

والمؤسف حقا : أنهم استغلوا فى الناس حسن نية ، فأطالوا اللحى ، وقصروا الثياب ، وطافوا بالأموات ، وتغنوا بالأمجاد ، ورنموا ورتلوا الأوراد ، وربما أفهموا الناس أنهم صُوَّم الدهر ، وقيّم الليالى الطوال ، متذرعين بقصص فيها البطولة وهمية ، والبركة اللسانية ، وربما حاولوا التكمل بمزيد صلاة ليس لها فى الاسلام أصل يقف عنده ، أو سند تعتمد عليه ، لكنهم فى كل الأحوال مجرد متصوفة ، انتسبوا الى القوم وليسوا منهم ، فمن هم المتصوفة ؟

الجواب أن المتصوفة : اختلفت تعبيرات القوم فى تعريفهم طبقا لاختلاف نظرات الدارسين اليهم ، وذلك ما سنكشف عنه على النحو التالى :

(١) تعريفات سلوكية :

يرى البعض أن المتصوفة يعرفون من سلوكياتهم التى لا تتفق مع الشرع الشريف ، فهم الذين لايلتزمون شرعا ، ولا يؤدون عبادة ، المتصوفة هم : " الذين عدوا قلة المبالاة أوثق ذريعة ، ورفضوا

التميز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام واستخفوا بأداء العبادة ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميادين الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة" (١) ٠

المتصوفة هم: الذين انتسبوا الى التصوف ، وانتسب اليهم العديد من طوائف البدع والزندقة ، ولبسوا لكل ليلة ملبس ، وغيروا مع كل موقف سحنة ٠

وليس هذا وحده ، " بل ان المتصوفة المنتسبين الى الصوفية ، منهم ظالم لنفسه ، عاص لربه ، وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم"(٢) ، بل مخالفاتهم القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة لا يمكن حصرها ٠

فمن المتصوفة من يعيش على فضول أموال الناس ، يربى منها أولاده ، ويعلى بنيانه ، ويتركها فيما بعد ميراثا يقسم بين أهله وذويه ، وعقارات يجني عائدها من يخلفه عليها ، أو منقولات يعلو مع الأيام سعرها ، رغم أنها ليس من كد يمينه ، أو عرق جبينه ، انما هي

---

(١) ابن عجيبة — الفتوحات الالهية ص ١٣ ٠

(٢) شيخ الاسلام ابن تيمية — مجموع الفتاوى — التصوف مجلد ١١ ص ١٨ ٠

من طرق النصب والاحتيال ، والخداع والتمويه ، واللعب بعواطف السذج ، وأحلام الغافلين ، وهذا ليس من شريعة الاسلام ، ولا يقره علماء المسلمين ٠

المتصوفة: خليط غريب فيهم مطالب باسقاط التكاليف الشرعية ، منادٍ باستحلال المحرمات الالهية ، مستهين بالأوامر الربانية ، لايجد في نفسه رغبة لعمل شريف ، وان وجدت استعذب عليها السؤال المغلف بلفافات الولي الكاذب ، والصلاح المزعوم ، والولاية التي لم يعرف منها غير ما يردده عوام الناس ٠

انهم ـ في نظري ـ أقرب الاشباه بالمقلد لغيره من غير تفكير عقلي ، وعلى النظائر تقاس الأشباه ، فحامل كتب العلم من غير أن يفقه ما فيها ليس بعالم بها ، فاذا خرج من وصف الجهل بها الى العلم بما فيها وادعاه ، فلا شك أن أقرب الأوصاف انطباقا عليه ، هو وسمه بأنه متعالم وليس بعالم ، والفرق كبير ٠

ثم ان جليس الفقهاء من غير أن يفقه من علمهم شيئا ، أو يفقه هو في الفقه شيئا ، فاذا خرج من بينهم وادعى نسبته اليهم ، وزعم أنه فقيه بالمجالسة ، فقد أخطأ ألف مرة ، والدليل أنه من أكثر الناس عجزا عن الادلاء برأي فقهي في مسألة من المسائل ، ينال

هذا الرأى فى نفوس الفقهاء قبولا .

ومثله يقال عليه متفاقه وليس بفقيه ، كما يقال على سابقه متعالم وليس بعالم ، وأصحاب الفنون والآداب والعلماء ، والفقهاء والصوفية ، وأهل الحديث ، كلهم أخرج المنتسب اليهم ، المحاول الصاق نفسه بهم ، وكشفوا عن باطله ، أما السائر على دربهم ، الناسج على منوالهم ، فهو على الطريق سائر ، وهو فى كل حالاته ليس منتسبا اليهم .

وآية ذلك : أن المراقب لسلوك الصوفية والمنتسبين اليهم ربما اختلطت عنده الأوراق ، أو اهتزت بين يديه الأدلة ، لأن : المسألة عنده قامت على أساس أن الكل سواء ، وليس الأمر كذلك ، بل الفرق كبير ، والخطأ من المراقب الذى لم يعط نفسه الفرصة للتفرقة بين الصوفى والمنتسب .

بل قد يذهب المراقب الى أن الصوفى ربما داخله اعتقاد " أن الصلاة والصوم ، والحج والزكاة هى عبادات العوام " ، أما الصوفى فله عبادة خاصة ، حتى ذهب الى أن فرق الصوفية قد أحرز كل منهم تقدما فشرّع لنفسه شرائع مخصوصة من ذكر مخصوص ، وخلوة وأطعمة وملبس .

وليس هذا وحده ، بل ربما انتهى الى أن الشريعة الصوفية تخالف ظاهر الشريعة المحمدية الاسلامية ، وأتخذ من تدخين الحشيش ، وشرب الخمر ، واختلاط النساء بالرجال فى الموالد ، وحلقات الذكر مظاهر لهذا الذى ادعاه حتى اعتبرها حقائق تنطبق على القوم .

واحسب أن النتائج التى توصل اليها وانتهى الى أن الصوفية يعتقدون " أن شريعة النبى محمد صلى الله عليه وسلم للعوام ، وشريعة الشيخ الصوفى للخواص" (١) نتائج غير صحيحة على الاطلاق بل ان خبرة المراقب لم تصل به الى الحد الذى يجعل رأيه فى مجال الأحكام مقبولا ، وذلك لما يلى :

أولا : أن الصوفية متمسكون بالشرع ، ولايحيدون عنه ، به وصلوا الى معرفة الله ومحبته ، وهم دائما يحاولون بذل المزيد حتى يستمر الحب ، فهل يتخلوا عن غرضهم الأسمى . ذلك فعل المتصوف المنتسب الى الصوفية وليس الصوفية أنفسهم .

ثانيا : هل الصوفية هم الذين يختلطون رجالا ونساء ، ويشربون خمورا ، ويدخنون حشيشا فى الموالد ؟ أم زوار تلك الموالد هم

---

(١) عبد الرحمن عبد الخالق ـ فضائح الصوفية ص ٤٨ ط الرياض .

الذين يفعلون ذلك ، فلماذا نصف قوما بأفعال غيرهم ، أما كان الأولى تقويم المخطىء بدل ألقاء الأحكام على غير مذنب ، ثم هب أن ذلك تم ، فالصواب أن فاعله منتسب الى الصوفية وليس صوفيا .

ثالثا : هل قدم صاحب الرأى دليلا واحدا على مازعم ، وأن يكون من كلام الصوفية أنفسهم ، صحيح النسبة اليهم ، أم أنها الرغبة الطموح فى القاء التهم ، ومحاولة احراز نصر موهوم من غير قتال .

وأركز على أن الصوفية غير المتصوفة ، وأن المنتسبين الى الصوفية كانوا — ومايزالون — خطرا كبيرا على التصوف والصوفية ، وبخاصة حينما يدخلون ميدان التأليف والكتابة ، فهم الذين وضعوا كتبا ذكروا فيها حكايات أقرب ما يكون الى أفعال السحرة والمشعوذين ، كلها تدل "على اتيان المتصوفة المنكر ، وإباحتهم المحظورات ، وتركهم الواجبات ، ومع ذلك فقد — عدهم الغر — من أولياء الله" (١) بينما هم أولياء الشيطان .

من ثم رأينا السهروردى : يقسم القوم الى :

(١) الصوفية .   (٢) المتصوفة .

---

(١) الاستاذ / احسان الهى ظهير — التصوف المنشأ والمصادر ص ٢٦٧ ط ادارة ترجمان السنة باكستان ١٩٨٦م .

ويبين أن المتشبه بالصوفية نوعان :

النوع الأول : المتشبه الحقيقي : " وهو ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف ، الا لمحبته اياهم ، وهو مع تقصير عن القيام بما هم فيه ، يكون معهم لموضع اراداته ومحبته " (١) ، انه أقرب الناس شبها بالمتصوف ، وليس بالصوفي أما لماذا ؟ " فللصوفي شراب صرف ، وللمتصوف من ذلك مزج في شرابه ، وللمتشبه مزج من شراب المتصوف ، والمتصوف بالنسبة الى الصوفي كالمتزهد بالنسبة الى الزاهد " (٢) .

على أن المتصوف ليس صوفيا ، كما أن المتزهد ليس زاهدا ، ان المسألة لاتعدو أن تكون مجرد انتساب وقتي ، ولذا كان المتشبه الحقيقي بالنسبة للصوفية هو المتصوف الذى له مجرد تقليد شكلي ، دون أن يلامس شغاف قلبه ، أو يلاقي مناحي التقوى في فؤاده ، أو تصل الى سويداء نفسه بشاشات النور الالهي فيما يقوم به أو يذر .

النوع الثاني : المتشبه الوهمي ، هو الذى يدخل الى القوم كيدا لهم ، وطعنا عليهم ، فهو مراقب لسلوك لايفهمه ، مقلد لحركات

---

(١) السهروردي — عوارف المعارف ص ٦٦ ط القاهرة .
(٢) المصدر السابق ص ٦٧ .

وسكنات ان قام بها شيء من حواسه فما ذلك الا لغرض في نفسه ان الرسوم والأشكال لاتغريه وان كان يجري بعضها على نفسه في حدود ما يقلب على غيره ، وفي الحقيقة فإن ما يقوم به — ان قام يقع في دائرة المحظور فعله ، المنهي قوله ، الأثم من يجعله وليا من دون الله ٠

وقد بلغ الحذر من المتصوفة والاحتراز عنهم مبلغا جعلهم في مصاف الجبابرة والقراء المداهنين ، فعن سهل بن عبد الله انه قال : " احذر صحبة ثلاثة من اصناف الناس " :

(١) الجبابرة الغافلين ٠

(٢) القراء المداهنين٠

(٣) المتصوفة الجاهلين٠ (1)

فهو قرنهم بأكثر الأصناف سوء ، انهم مع الجبابرة الغافلين ، مع القراء الذين لايعنيهم الا الخداع والمداهنة ، ثم جاؤا في النهاية كنتائج محددة آخرها كان المتصوفة الجاهلين ٠

---

(1) ابن عجيبة — الفتوحات الالهية ص ١٢٢ ٠

كما أن مظاهر الانتساب للصوفية عديدة ، فربما وقع مظهر منها قريبا من عقل " لاقط الساقط " (١) فتاه به وفجر ، أو اعتصم بـــه وافتخر ، حتى صال وجال ، وعلى الآمنين العابدين لنواياهـــم استطال ، تسور عليهم أسوار ضمائرهم رغم أن القلوب بيد الله .

فكم أضاف المنتسب من خياله الى ميراث القوم ما أضـــاف ، وكم حذف من قيمهم ، أو شوّه عن طريق فهمه تراثهم ، أو فاتتـــه آداب التمسها وغابت عنه الرؤيا الصواب لها ، ثم ظنه العوام صوفيـــا فنصبوه زعيما ، حتى اذا بدت منه سلوكيات خاطئة ظنوها آدابـــا اسلامية ، وأخلاقا مرعية ، وربما تناقلوها عنه ، دون نسبتها اليـــه ، وانتشرت بين العوام .

---

(١) هو مصطلح عندي أرى اطلاقه على المتربص بالصوفية وغيرهم لا همّ له الا التركيز على السلبيات التي تقع بينهم سهوا ، أو تكون من المنتسبين اليهم ، ثم يلتقطها على أنها سقطات ، يكبرهـــا ويضخمها حتى يجعل منها هرما كبيرا ، عمدته نيته ، ولا يرجع الى القوم فيها ، ولو رجع ربما استبان له الغرض فسلمت الوجهة حتى صار ما حسبه مثالبا مناقبا ، وآهٍ من هذا اللاقط ، انه نار تحرق ما تصل اليه ، متى كان غرضه الهدم لا البناء ، والتدمير لا التعمير .

(ب) تعريفات ذاتيـــــة :

نقصد بالتعريفات الذاتية هنا أن المتصوفة هم الذين أطلقوها بأنفسهم على أنفسهم ، وكان غرضهم ايهام العامة والتدليـــس أو الدس على الفقهاء ، ورفع مطروحات العلماء بعيدا عن ميـــدان المخالفات التي تقع منهم ، والخلافات التي تنشأ بينهم ، وفـــي ذات الوقت لايقبل على هذه التعريفات الا الدهماء والبسطاء .

بل ان المنتسبين للصوفية لم يكونوا وحدهم في هذا الميـدان بل قد " سبقهم في معظم اعتقاداتهم وعاداتهم متصوفة القـــــرون الوسطى الذين يرتفع اليهم نسبهم ، فان من الحق كذلك أنهـــــم أساؤا الى التصوف وكرامته ، بأن خلقوا حوله سياجا من الرســـــوم الآلية ، وعظموا من شأن الشعوذة بقدر ما أهملوا من أمر المعرفـة وقرنوا أخص أسرار الطريق من الجذب ونحوه بأساليب العربدة والسكر "[1]

من ثم رأينا المنتسبين للصوفية يطلقون على أنفسهم تعريفـــات ذاتية يمكن وصفها بأنها :

(١) من صنيع المتصوفة المنتسبين للتصوف طبقا لما يجرى في مناحي

---

(١) نيكولسون ـ في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٦٥ .

أفئدتهم من أغراض فيها من العوج ما لا يجدى معه طـــول الطريق ، أو صدق الحال ، أو طول المقام .

(٢) فيها من التجاوز ما يقطع لغة التحاور معهم ، لأن تزكيـــة النفس تبدو فى تعريفاتهم سافرة مع أن الله تعالى قـال " فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى " (١) كما أن تزكية النفـــس والاستمرار فى هذا الطريق من غير عاصم أمر غير مقبول ، وقـد أثر أن أبا بكر — رضى الله عنه — كان يقول : لا آمن مكر اللـه ولو كان احدى قدمى فى الجنة .

(٣) تحمل من الأحكام ما يجعل تزكية أنفسهم وحدهم وبنيهـم معهم ، ومن يمتد اليهم بنسب ، أو يَمُدُّ اليهم بســبب وتفضيلهم على من سواهم والتنادى به رغم أن الله تعالى قـال " وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى " (٢) ، وقوله تعالى " كُـلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " (٣) وقوله تعالى : " كُلُّ امْرِئٍ بِمَـا كَسَبَ رَهِينٌ " (٤) وقوله صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء رضـى الله عنها " يافاطمة اعملى فانى لن أغنى عنك من الله شيئا " (٥) .

---

(١) سورة النجم الآية رقم ٣٢
(٢) سورة النجم الآية رقم ٣٩
(٣) سورة المدثر الآية ٣٨
(٤) سورة الطور الآية رقم ٢١
(٥) حديث شـــريف ...

(٤) تحمل فى ثناياها نوعا من الخليط الذى لايمكن فصل أجزائه عنه بسهولة ويسر ، بل بصعوبة وفى غاية العسر .

(٥) أنها وصف لأصحابها بالولاية المطلقة والكرامات التى لارابط بينها ، بل العقل يرفضها والدين يندد بأصحابها .

(٦) أنها تضع أصحابها فى درجات أعلى من درجة النبى ، بل ان بعضهم تصور شيخه أفضل من النبى نفسه مدعيا أن النبى مات بينما الشيخ مايزال حيا بينهم ، والحى أفضل من الميت وهو جدل محرم شرعا .

(٧) تمنح أصحابها حق فرض الرأى — ولو كان ساذجا — على أفهام الآخرين بغض النظر عن أيهما على صواب ، بل ربما جعلوا القائم بعمله متهما ، والقائم بعلمه مقصرا .

(٨) فيها من خواء الفكر ، وتفريغ المضامين ، إنها أقرب ما يكون الى التعاريف الانشائية المرسلة الخالية من كل دليل علمى وعلى أو شبهة دليل يقف القوم عنده ، أو يستندون اليه .

(٩) فيها من الخيال المسرف ما يهبط بأصحابه عند حدود البهيمة

المتوحشة ، والحيوانية المغرقة فى الغرائز ، النائمة تحت جناح الرغبات .

ثم انها فى الغالب الأعم امتداد لطوائف سبقت فى الأمم السالفة فأمة اليونان فيها متصوفة المظاهر ، دعاة التقشف ، والهنود فى ماضيهم السحيق عرفت الطوائف المتصوفة بلباسهم الغريب ، وخلواتهم التى تحمل العزلة الجسدية ، والانقطاع عن مصالح الحياة ، ونفس الشىء تناقلته الأخبار عن أمة الصين ، وما أمر " متصوفة الفرس المتأخرين " (١) ببعيد ، وفى كل أمة منهم خلف .

وربما أكون فيما عرضت قد حاولت تقديم صورة ـ تحتاج لبيان ـ عن المتصوفة المنتسبين الى الصوفية ، تمثل فى ذات الوقت اشارة حمراء لمن يتعاطون هذا الفن بالدراسة من غير تمهل أو كشف الفوارق بين المتشابهات حتى وقعت منهم فى أهل الفضل السقطات.

بيد أنى أنوه الى أن بعض الأغرار قد وقعوا فى زيف وانخدعوا بمظاهر ، وسلكوا دروبا ليست لأصحابها ، ونسبوا مؤلفات وطقوسا

---

(١) نيكولسون ـ فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ١٩

وشعارات لغير ذويها ، تقود هم العجلة والتسرع ، ويأخذ ببعضهم د افع التشفى والانتقام لينالوا من الصوفية أى منال وهم فى كل ما فعلوا غير عابئين بالنص المنزل " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ " (١) .

بل انهم حاولوا ايهام غيرهم بأن تكفير الصوفية مسألة شرعية ،وأن رجمهم أمر دينى، فيه توقير للحدود الاسلامية،حتى رأينا مؤلفات كثيرة تخرج عن الحد المحصور فى ذم القوم وطرائقهم ، وتوشى بهم للحكام بل وربما نفذت أحكام اعدام،وحرق مؤلفات،واخراج من ديار،وتمزيق أبناء ، وتفريق بين زوجات كان الحاكم فيها على القوم هو الضمير الساذج والعقل البعيد عن التفكير السليم .

أجل نفذت الأحكام ، وذهب كل الى عالم الحساب الأخروى ، ليلقى كل جزاء ما اقترفت يداه ، لكن ما تزال خيوط العناكب تحاول الالتفاف ببقايا ضوء صوفى شفيق تريد حجبه وحتفه " وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (٢) وها أنذا أجدد النداء

---

(١) سورة الحجرات الآية رقم ١٢
(٢) سورة العنكبوت الاية رقم ٤١

واكرره : فَرِّقُوا بين الصوفية والمنتسبين كما فعل شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من شيوخ المذهب أهل العلم والمعرفة ٠

فَرِّقُوا بين المتصوف وادعاء التصوف ، وفرقوا بين الصوفية أهل السلف الصالح ـ كما سماهم شيخ الاسلام ابن تيمية ٠ وبين دعاة التصوف ، لأن المسألة لم تعد تحتمل التأجيل ، كما أن الأحكام المزيفة يجب أن يعاد النظر فى أدلتها من جديد ، وبخاصة أن التعمية ، وطمس الحقائق التى حاول المغرضون الصاقها بالفكر الاسلامى قد عاشت فترة تعمل فى داخله محاولة تحطيمه من أساسه مع أنها غير مقبولة ، وقد استهلكت منذ فترة طويلة ٠

خذ مثالا مما وقع فيه المنتسبون واحْتَكِمْ للشرع فسترى الأمر جليا ، نقل الشعرانى أن أحد أولياء الهند سأله أحد المريدين ، من أين عرفت أحمد البدوى وانتم بالهند ؟



فأجاب " ياالله يالعجب أطفالنا الصغار لايحلفون الا ببركة سيدى أحمد رضى الله عنه ، وهو من أعظم أيمانهم وهل أحد يجهل سيدى أحمد رضى الله عنه ، ان أولياء ما وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده رضى الله عنه " (١) ٠

---

(١) الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ـ لواقح الأنوار جـ ١ صـ ٢٠٧ ٠

فانظر كيف سرح به خياله حتى جعل الأيمان المنعقدة بالله تتضاءل أمام الأيمان التى تنعقد بالسيد البدوى ، وهذا من أفكار المنتسبين للصوفية ، ولاتقف هذه المسألة عند الصوفية ، انهم لايذكرون كراماتهم ، ولايوافقون على أن يحلف الناس بهم ، انهم يحاولون تطبيق قوله صلى الله عليه وسلم " من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت" .

خذ مثالا آخر :

وردت قصص اسطورية حاكية عن الصوفية وليست لهم ، منها ما حكى أن أحدهم ابتنى بزوجه لكن لم يوفق اليها فقال : " لما دخلت بزوجتى وهى بكر مكث خمس شهور لم أقرب منها ، فجاءنى — السيد احمد البدوى — وأخذنى وهى معى ، وفرش لى فرشا فوق ركن القبة — بالمسجد — التى على يسار الداخل ، وطبخ لى حلوا ، ودعا الأحياء والأموات اليه ، وقال : أزل بكارتها هنا ، فكان الأمر تلك الليلة" (١)

لكن كيف للعقل أن يمسك بهذه الأفكار التى لاقدم لها ولاساق أو يقبلها وهى مخالفة تماما للشريعة الاسلامية والصوفية يقررون أن :

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٦ .

" الشريعة أصل والحقيقة فرع ، فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفي ، وجميع المقامات مندرجة فيهما " (١)
فهل يرضى الصوفية اندراج المتصوفة فيهم ، وانخلاطهم بهم ؟ .

ان الأساطير التي حكيت ، وان السيدة التي عاشت شهورا بكرا مع زوجها لم تكن الا قصة هزلية لشيء هزيل ، ثم كيف يقبل الصوفي الحق القول بأن السيد البدوي بعد وفاته يمارس واجباته البدنية ، ان هذا لايقول به الصوفي الصحيح وانما يردده المتصوفة المنتسبون للصوفية ليس الا ، لأن الشريعة " هي ما تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه منذ بعث حتى لقي الرفيق الأعلى (٢) وليس فيها أن البدوي أو غيره يمارس واجباته الدنيوية وهو في الحياة البرزخية .

ثم متى كان السيد البدوي قادرا على احياء الموتى ، حتى يدعوهم والأحياء لتناول الطعام الحلو الذي صنعه لهم ، حسب الرواية التي سلف نقلها ، ان فاقد الشيء لايعطيه ، اذ البدوي ـ رحمه الله ـ قد مات ، فما بالك بغيره من فاقدي الحياة الذين انطوى عليهم الثرى ، واختلطت بأجسادهم ذراته ؟ !!

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٤
(٢) د / محمد مصطفى امبابي ـ الحركة الفقهية الاسلامية ص ٥ مطبعة الساعي ج١ سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤م .

كما أن الرواية لم تخبر من الذى حضر هذا الطعام من الأحياء من هم بأشخاصهم والأسماء ؟ من هم بالعدد الحسابى ؟ من هم بالسمات التى عرفوا بها ؟

كما لم تقص علينا من الأموات خبرا يمكن التأكد منه أو التأكيد عليه ، هل يحى ميت ميتا ، ان الله جعل الأسباب والمسببات قائمة والعلاقة بينهما ما جرت به العادة ، حتى اذا انخرقت كانت لنبى من أنبيائه جل علاه ، وعلماء الاسلام قد فرقوا بين الخوارق للعادات ومع من تقع ، ونوع الخارق .

بل ان هذه الغيبيات جعل الله تعالى لها ضوابط ، حتى لايقف المهرجون يلوحون بألاعيبهم التى لاتنطلى الا على السذج ومن يتمتعون بقدر كبير من البلاهة ، أو يغمسون عقولهم فى محابر غيرهم فلا ينطبع فيها الا فكر هزيل ، وأمانٍ كاذبة .

والمعلوم الثابت أن احياء الموتى ومثله من كبريات الخوارق لايكون الا مع النبى ، وقد قص القرآن الكريم علينا ان الله تعالى أحيا الموتى لابراهيم الخليل ، وموسى الكليم ، وعيسى ابن مريم ، وسيدنا محمد الخاتم صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، وكانت فى

كل حالاتها رجاء من النبى واجابة من الله تعالى ، أو كشفا لسر مكنون كما وقع فى الذراع المسمومة بالنسبة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

بيد أن المغرق فى الضحك هو نقل الشعرانى نفسه ، اذ كم تمنيت أن يفصل العواصف عن العواطف ، ويفرق بين الأصول الثابتة والزوائد الساقطة ، ولئن كان ذاكرا لها فليكن من قبيل الحكاية مع الاشارة اليها ، والتأكيد على أنها مجرد حكاية ، ثم يبين جوانب الضعف فيها ، أو يحدد المصدر الذى نقل عنه ، حتى يعرف الناس صاحبه .

والحق أن المنتسبين للصوفية كانوا عبئا ثقيلا ، وضيفا غير مقبول على الفكر الاسلامى بصفة خاصة ، وعلى التصوف والصوفية بوجه أخص . ولذا فان القصص الخرافية والتجاوزات التى وقعت لايمكن قبول نسبتها الى التصوف والصوفية ، بل هى تحمل أدلة تهافتها معها ، وسنشير الى بعض هذه المؤلفات(١) التى تحمل

---

(١) كان بودى أن أقدم حصرا كاملا لهذه المؤلفات التى امتلأت بالخرافات والأساطير ، وتحمل أسماء لامعة لعلماء كبار ، ولكن غيرت اتجاهى ، وقررت وضع أمثلة لشىء منها فى المناسبات التى =

أسماء شيوخ كبار نعتز بهم ، وليس فيها الا السم القاتل ٠

كيف لا ٠ وقد حكى عن الشيخ ابراهيم الدسوقى أنه قال " أهل الخصوصية جعلوا زواياهم قلوبهم ، ولبسهم تقواهم ، وخوفهم من ربهم ومولاهم ، وقد رفضوا الكرامات ، ولم يرضوا بها ، وخرجوا عنها لعلمهم أنها من ثمرة أعمالهم ، فلم يطيروا فى الهواء ، ولم يمشوا على ماء ، ولم تسخر لهم الهوام ، ولم تبصص لهم الأسود ، ولم يضربوا أرجلهم بالأرض فتنفجر ماء ، ولامسوا أجزم ولا أبرص فبرى ، ولاغير ذلك فخرجوا من الدنيا وأجورهم موفورة " (١) ٠

اذن التعريفات التى أطلقها المنتسبون للصوفية لاتجد مرتقى تصعد بين التعاريف عليه ، ولا سندا قويا تعتمد عليه ، وماهى إلا خيالات وأحلام ، وضلالات وأوهام ، وأمور منكرة لايرتضيها الواحد العلام ٠

= أجدنى فى حاجة لضرب أمثلة لها ، تخفيفا على القارىء ، وتيسيرا على نفسى التى تأبى ذكر أحد بما يشينه ٠

(١) الشيخ / عبد الوهاب الشعرانى — لواقح الأنوار جـ ١ ص ١٩٨

الفصل الثامن

((سمات المنتسبين للصوفية))

تمهيـد :

انتسب الى الصوفية أقوام ، وتعلقت بهم طوائف ، لكن السلوك مغاير ، والهدف مختلف مما يجعل ابراز مظاهر الانتساب أمرا ضروريا حتى لاينقدح فى صفوفهم الأغرار ، ولاتندفع سلوكياتهم الى الاغترار ، والحق أن مظاهر الانتساب الى الصوفية عديدة منها :

١ - محاولة الاحتماء بالشرع :

الصوفى الحق يحتمى بشرع الله من نزوات الشيطان ، انه قائم بشرع الله على نفسه فى سلوكه وعقيدته ، أخلاقه ومعاملاته ، لكن على وجه الفهم الصحيح للنقل المنزل ، فهو عند الأمر الألهى مأمـــور ، وأمام النهى الالهى منتهٍ ، لاتفارقه التعاليم الالهية ، ولاتبعـــد عنها ، انها الوسيلة لاستمرار علاقة قلبه بربه ، ولايدعى الولاية وان وصل اليها ، بل انه يستحى من الكرامة التى تجرى عليه فلا يذكرهـا وانما يحاول سترها .

أما المتصوف فانه يحاول الاحتماء بالشرع فى حدود فهمه ومافيه مصالحه الدنيوية ، انه يحاول القفز فوق أعناق الناس باسم الشرع ،

فهو يصف نفسه بأنه ولى حقيقى من أولياء الله ، ثم يستشهد بقوله تعالى " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۔ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۔ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (١) .

فالمنتسب يصرخ فى الناس بأنه ولى ، ويطالب الناس اشاعة كراماته الكاذبة ونشرها بين العالمين ، ولا يستحى من قصصه التى حملت بطولاته الوهمية ، بل انه يرويها بنفسه ويحاول التكرار فيحكى أنه التقى به الأسد ليلا بعيدا عن أعين الرقباء ، فاذا الأسد قابع تحت قدميه يناديه أطلقنى ياولى الله ، فقد عرفتك منذ كنت نطفة فى صلب أبى .

وركب البحر من غير فلك طار على وجه الماء ، لأنه رأى طائرا خطف رضيعا أودعته أمه الشاطىء الآخر من اليم ، فلما رأت الأم الطائر خطف وليدها صرخت أنقذنى ياشيخ فلان ، فأنت ولى الله حقا ، لم يجد بدا من ارجاع الطفل لوالدته وقد استغاثت به فقفز الى الماء الذى حمله على وجهه دون أن تلامسه قطراته حتى أعاد

---

(١) سورة يونس الآيات ٦٢ — ٦٤

الوليد الى صدر أمه ، بل ربما أضفى خياله على القصة مزيدا من الأوهام حتى ليقص أن الماء ناداه أن أركب اليم فانك من الناجين ٠

فالمنتسب يدعى صلاح نفسه ، ويزعم ولاية خاصة تتعلق به ، ويقص على الناس البسطاء روايات أقرب ما يكون راويها الى الأسطورة منه الى صاحب عقل ، وروي جاهل من مفكر له لب يتحرك في نفسه ويتجول بخاطره ، أليس قد اعتبر نفسه وليا ؟ ثم ألم يذكر النقل المنزل أن" أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " ، وهو يتمسك بالولاية ويدافع عنها ، ويلصق نفسه بها ، بينما الولي الحق يخفي كراماته ويختفي منها ٠

بيد أنك اذا قلت له : أولياء الله هم الذين آمنوا وفي نفس الوقت هم أهل تقوى وصلاح فأين أنت منهم ؟ جاء جوابه : أنا مؤمن ومن أهل التقوى بل أنا التقوى نفسها ، ثم يحاول الاستشهاد بآخرين من أتباعه انه صاحب كرامة بل كرامات ، وذو ولاية ان لم تكن ولايات ، وماهم الا شهود زور ، وجهالة وبهتان ، قبضوا أجورهم الفانية من أيدى عابثين بقيم باقية ، ومثل هذا يعجز القلم عن حصره ٠

٢ — ادعاء التزام الخلوة :

الصوفي الحق يخلو قلبه من كل ماسوى الله ، فهي خلــوة ذاتية وان كان مع كل الناس ، لايشغله من أمور الدنيا الا مايؤدى غرضه ، وفي وقت محدد اذا انتهى انقضت معه شواغله ، بحيث لاتكون الخلوة انعزالا عن شئون الحياة ، وانقطاعا عن مسيرتها ، وانتلافا لما أمر الله اصلاحه ، وتدميرا لما حكم الله باعماره ، انهـا خلوة الصوفي الحق ، خلوة خاصة من نوع خاص ، لقوم مخصوصين ٠

أما المنتسب : فان خلوته فيها مشاعر الطمع ، ومظاهر الجشع ، والرغبة في المخالفة ، انه يختلي بجسمه في مكان بعيد عن النـاس بحيث تحيطه المسائل من كل جانب ، انه يذيع بين الناس عن خلواته وانقطاعاته للطاعة ، بل ربما بحث الناس عنه هنا وهناك فلم يجدوه انه اختار لنفسه مكانا منعزلا عن معارفه يعج بغيرهم ، فاذا وصلته أخبار انخداع القوم به ، وتصديقهم خلوته وغيبته ، وتعلقهم به عـاد سيرته الأولى بينهم ٠

لغة الأمر الناهي ، المتمتم بعبارات غير مفهومة ، الصـارخ بينهم صرخة المريض ، بل ربما اصطنع السقوط بينهم وتصنعه ، حتى

يتكرر هذا الموقف بينهم ، فتدلي مشاعرهم المهيأة لمثل هذه المظاهر بأحاديث باطنية فيها من الوهم والدجل والخرافات والأساطير ما يعلو عن كل الأفهام ، ولاتقبله الا جهالة عقول الحالمين ، حتى يتحول هو نفسه الى صورة فيها الخداع والدجل وسفساف القول ٠

أضف اليه : أن بطانة المنتسب — الذين يعيشون علــى أرزاق الناس ، وفضول أموالهم ، من صدقات ، ونذور ، وهبات ، أو عطايا تحت اسم ديون الشيخ ، أو ريع الكرامات — لاهم لهم الا تزيين تلــك الصورة الرذيلة ، وتكبيرها حتى تبلغ فى الناس مبلغا كبيرا ، وتحــوز لديهم قبولا من نوع خاص ، يحول بين معاصى ذلك المنتسب للصوفية وبين مؤاخذته عليها ٠

ان أخطاء، ومخالفاته الشرعية ، يحاول المبطنون له صبغهـــا بلون شرعى ، وماهى منه بشئ ، انها تبتعد عن الشرع الشريف بــل وتخالفه تمام المخالفة ، وربما بلغوا فى الخداع مبلغا بعيدا ، حين يقومون بالتأليف سواء بواسطتهم أنفسهم ، أو بواسطة من يتـــم استئجارهم لهذه المهمة ، وبعد التأليف الملفق ، تقوم نفـــس البطانة باختيار عنوان براق ، واسم عالم كبير مشهود له بالكفـاءة فى العلم ، والقدم الراسخة فى الفهم ، فيوضع اسمه على الغــلاف

وما هو له بتأليف ٠

وربما تسألني لماذا يهمل المؤلف الأصلي ويذكر مؤلف انقضى عليه في قبره ألف عام ؟ والجواب : أن ذلك يحقق أمرين :

الأول : يحوز في الناس قبولا ، لأن الاسم الكبير يقبل عليه أغلب الناس ويقرأ الناس المؤلفات على أنها له ، ولا يفكر واحد منهم في عملية اختبار لهذه المؤلفات وما اذا كانت صحيحة النسبة لصاحبها أم لا ؟ انه يستقبلها على أنها مؤلفاته ، ويصدق كل ما جاء بها على أنها أفكار ذلك العالم الكبير ، رغم أنها تحمل أفكارا في ميزان الاسلام ناقصة ، وعلى قواعد الشرع مردودة ٠

الثاني : القيام باختبار حقيقي للتابعين له ، وما اذا كانوا سيعملون على الغاء عقولهم والسعي خلفه ، أم أنهم سيفكرون في الخروج عليه ، والتعامل الجاد مع الفكر الاسلامي الصحيح ، كما أن هذا المسلك يجلب نوعا من الثقافة التلفيقية التي لا تحقق أية منافع ، أو ترفع عن حد التقليد أي عقل ٠

كما أن التأليف في هذه الأمور يهيء صاحبه الى القفز في عالم النشاط الفكري ، ولا يعنيه ان كان النشاط موافقا أو مخالفا ، انه

يحاول تجربة الكتابة والتأليف ، وربما انغمس بعضهم فى الكتب الحكمية ، فسمى هذه المؤلفات باسم المباحث الحكمية ، ويلقن من الآخرين علم الطلاسم والنجوم ، وربما اعتبر السحر وسيلة كريمة فقام بها دون انتظار للمساوىء التى تترى عقبها .

(٣) التظاهر بترك الدنيا وفى داخله الاقبال عليها :

الصوفى الحق لايرفض الدنيا لأنها قَدَرٌ وفيه حياته الأولى ، ولكنه يرفض التكاسل والتقاعس ، فلا نجد صوفيا على الحقيقة ، الا وهو ضارب فى الارض بسهم طالب اصلاح ما كلفه الله تعالى باصلاحه والقيام عليه على النحو الذى يرضى الله سبحانه وتعالى .

غير أن قلبه لاينطق بحب الدنيا ، ولو سألته لماذا ؟ لكان جوابه : إنها زائلة ، وحبى منصب على ناحية ارضاء الخالق العظيم جل علاه ، انه الباقى ، ولايجتمع فى قلب المؤمن حبان ، حب الله تعالى وحب الدنيا ، فحب الدنيا يفسد العلاقة بين الانسان وخالقه .

كما أن الصوفى الحق يقف أمام الحديث القدسى " يادنيا من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه " ، مفكرا أنه يُدْبِرُ عنها

فتقبل عليه ، ويصدها فتديم طرق أبوابه ، انها فتنة وهو يعرف كيفية التخلص من سلطانها على قلبه ، أو محاولة التمكين لها فى صدره .

اذن هو لايعطل أحكام الله فى إعمار الأرض ، ولايفكر فى تعطيل نظام الحياة ، كما لايجعلها همه الأول ، ولاحبه الأخير ، فاذا تلاقى معها كانت له وسيلة لطاعة مولاه ، وليست غاية أو هدفا يركن تحت أقدامه ، بل ربما هجر لذيذ طعامها ، وفاخر رياشها ، وناعم سترها ، مؤدبا نفسه حتى لاتنخدع بالمظاهر ، أو تلقى به فى أحضان ماهو زائل .

أما المنتسبون للصوفية فغرضهم واضح ، انه يحاول ايهام الناس بتركه للدنيا ، وادباره عنها ، لكنها هى التى تقبل وماذا هو صانع ولو سألت ما وجه اقبالها عليه لرأيت عجبا ، انه يجمع المال من كافة الشبهات ، يقبل الهبة والهدية والنذر والصدقة بل ويأكل الكفارات والزكاة ويحاول ايهام الناس أنه يجمعها ليوزعها نيابة عن أصحابها وما هو بفاعل .

من ثم رأينا فارقا كبيرا بين الصوفى والمنتسب حتى صح القول بأن الصوفى الحق ملك وانسان ، انه ملك لايعصى الله عز وجل ، وانسان من بنى آدم ، يأكل ويشرب ، وينكح وينجب له ، ويفلح

الأرض ، أو يقرأ كتب العلم ، أو يجوس خلال أنظمة الحياة بالسعي الصالح ، والعمل الشريف ٠

" أما المتشبهون بالقوم وليسوا منهم فأغلاطهم كثيرة ٠٠٠ حتى أن جماعة من أشياخهم يجمعون المال من الشبهات ٠٠ بل كافة أنواع الشبهات ساقطون فيها ٠

فمنهم : من يدعي الزهد مع كثرة المال وحرصه على الجمع وهذه الدعوى مضادة للحال ، ومنهم : من يظهر الفقر مع جمعه المال ، وأكثر هؤلاء يضيقون على الفقراء بأخذهم الزكاة ، ولا يجوز لهم ذلك[1] لأنهم ليسوا في حاجة اليه ، بل ولا من الأنواع التي تجب لها ٠

ان المنتسب للصوفية يستغل في الناس الوازع الديني ، والضمير الحي اليقظ عندهم ، وفقدان دائرة التوجيه الديني على النفوس حيث توجد منطقة فارغة تحتاج الى تعبئتها وحسن توجيهها ، وهنا يقفز المنتسب للصوفية ، مدعيا أنه قد خُوِّل اليه هذا الأمر ، وها هو يقوم به ، أو يحاول ولابد من أن يعينه الناس على تحقيق ما ينيط به ٠

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي البغدادي — تلبيس ابليس ص ١٧٩ تحقيق السيد العربي مكتبة الايمان والكتاب حتى نهايته منصب على أغلاط المنتسبين الى الصوفية ، ومعدد بينهم المساوئ التي كانت موجودة في زمانه ، فما باله لو رأى ما هو موجود في أيامنا هذه بالاضافة الى ما سبق ٠

ويختلق في سبيل ذلك ألف رواية كلها هابطة ، وحتى ينفذ مراد ، تراه واقفا بين الناس آمرا ، ناهيا ، بلغة الحسم ، كأنه قبس من نور الوحي، أو هو بديل للنبوة ، وقد يعينه على المسألة بعض زويه فتراهم يعلنون طاعته المطلقة ولو كان أصغرهم سنا ، حتى ينظر السذج اليه على أنه المشرع ، وتحل تعاليمه في قلوبهم محل الاعتقاد حتى تبلغ تلك التعاليم في صدورهم أمر العقيدة ، وتصير طاعته شريعة والاستلقاء بين يديه ، أو تحت أقدامه أخلاقا حميدة .

اذن الصوفي الحق زاهد في الدنيا ، أما المنتسب فمقبل عليها وان تظاهر بالزهد ، الصوفي يراها زائلة والمنتسب يراها أمله الوحيد، على أن الصوفي ربما اتته بخيلائها فتعامل معها كضيف نزل بسوق بلدة غريبة عنه ، لايدري عن سلعها الا ما يوصله لبلد آخر يطمئن اليه ، فهو في أسواقها غريب ، وعن سلعها عازف ، يعرف أنها فاقدة الجودة .

بل ان الصوفي لاتغريه زخارف الأسواق فيها ، وتصل الى مسامعه أصوات الباعة المضللين من تجار فشلوا في التعامل مع الحق وارتضوا زيف الباطل ، ان هذه وتلك لاتصل دعواتها الى شيء من نفسه ، لأنها تطير بأجنحة الخفافيش ، فهو لا يأخذ من السوق

الا ما يكون وسيلة لغرضه الأسمى فالسوق — الدنيا — وسيلة من وسائله ، وليست هدفا من أهدافه ، أو غاية من غاياته ، انه جمع كل غاياته فى محاولة ارضاء رب العالمين .

أما المنتسب فهو مزيف علة ، يقبل على الدنيا فى خلوته ، مزيدا أنصاف الطعام ، انه لايقنع الا بكل ما تصل اليه مطامعه وأتى له ، بل ربما وجدته يخاطب داخله ، مشبعا تلك النزعة الدنيوية ، ملتمسا — بجهله وكذبه — دليلا قرآنيا على ما يفعل من مثل قوله تعالى : " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ " (١) ثم يفسر الرزق على أنه الطعام ، وبالتالى يقبل على كافة ألوان الطعام اقبال الجائع الطامع ، لا اقبال المتزود للسفر .

كما لم يفت المنتسب للصوفية الاستمتاع بكافة ألوان التمتع ، فكما أقبل بِشَرَهٍ على الطعام ، فهو كذلك فيما يتعلق بالنساء ، انه يحاول اشباع رغباته فيهن من تملك ، الى تمتع بجمال وجاه وسلطان وربما حاول التماس دليل شرعى على ما يزعمه ، من مثل قوله تعالى: " فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ " (٢) مفسرا الأمر

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ٣٢
(٢) سورة النساء الآية رقم ٣

الالهى فى الآية بأنه اتاحة الفرصة للرجل حتى ينكح ماطاب في حدود الأربع ، متناسيا أن الأمر للإباحة وهى ليست تمتعا بقدر ماهى ايجاد حلول لمشاكل لو لم تحل عن طريق الزواج لكان البديل الزنا ، أو تراكم المشكلات الاجتماعية الى الحد الذى يمثل عبئا على حياة الأسر وأمن أفرادها .

ولايقف المنتسب عند هذا الحد بل انه يسرف فى التعامل معه الى أبعد حد ممكن ، فهو متعلق بالدنيا على كافة نواحيها ، واذا سألته عن السبب كان جوابه ان الله تعالى قال : " وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا " (١) متجاهلا أن القرآن الكريم يؤخذ بالسياق واللحاق خاصة فيما يتعلق بالقصص القرآنى الكريم ، ولو ابتدأ قراءة الآيات لوجد أنها تُحَدِّثُ عن قارون وكيف كان بغيه الذى انتهى بأن خسف الله به الأرض ، ثم ان صدر الآية هو قوله تعالى "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ " لأن طلب الآخرة أمر غاية الأهمية .

كما أن الآية الكريمة فيها توجيه نحو الآخرة ، وتوجيه نحو ترشيد المال حتى يكون معينا لصاحبه على أمور الآخرة " كقضاء

---

(١) سورة القصص الآية رقم ٧٧

الدين ، والصدقة ، واطعام الجائع ، وغير ذلك فلا بأس به ، لأنه انفاق فى طاعة الله كصلة الرحم ، والصدقة وغير ذلك" ، ولاتنسى نصيبك من الدنيا " بأن تصرف عمرك فى مرضاة ربك ، ولاتدع نفسك من غير خير فتصير يوم القيامة مفلسا .

لما فى الحديث " أغتنم خمسا قبل خمس " :

١ — شبابك قبل هَرَمِك .

٢ — وصحتك قبل مرضك .

٣ — وفراغك قبل شغلك .

٤ — وغناك قبل فقرك .

٥ — وحياتك قبل موتك(١) .

أضف الى ما سبق أن المنتسب يقف من العبادة موقف العابد على حرف ، حتى انه ليطالب باسقاط التكاليف الشرعية عن نفسه ، مدعيا أنه خدم الاله الأعظم سنى عمره الماضية ، وأنه بلغ شأوا فى العبادة يسمح له بالتخلى عنها فيما بقى له من عمر ، واهمًا أن عبادته التى أداها تغطى عمر غيره ، بل أعماركم هائل من المخالفين ، وبالتالى

---

(١) العلامة : أحمد الصاوى — حاشية الصاوى على تفسير الجلالين مجلد ٣ ص ٢٢٦ ط دار الفكر العربى .

فهو ليس بحاجة الى الاستمرار فى أداء تلك التكاليف حتى يقف الناس معه على قدم واحدة ٠

من ثم : فلا الصلاة المكتوبة يؤديها ، ولا الزكاة المفروضة يخرجها ، ولا الصوم المشروع يجد فى صدره رغبة للقيام به ، بل ان قام به فهو على ناحية شكلية ، حتى يحرز فى صدور السذج مكانا عاليا وينزل من قلوبهم المنزل الرفيع ، ويتبوأ القدر الذى لايبلغه أحد ٠

أما الحج التجارى فحدث ولا حرج ، أنه يتذرع برغبته فى الحج كل عام ، ولكنه حج من نوع خاص ، حيث يقود قافلة من الحجاج فى كل عام ، وهو لايعرف عن المناسك الا ما يعرف السائح اذا نزل بلدا بها أثار كثيرة ، يعرف عددها ، وتاريخ اقامة المنشآت حولها ، أما هى من حيث حقيقتها فلا هَمَّ له بها ٠

ان المنتسب لايعرف عن مناسك الحج الا أنه يزور جبالا ممتدة ، ومزارات مختلفة ، ويؤدى أعمالا متفاوتة ، كلها تعطيه فى النهاية مصالح متبادلة ، يعقبها مال وفير ، أما أن تكون المناسك ممثلة لشعائر من دين الله فهذا مما لايلتفت اليه المنتسب ، وان التفت فلا يعدو أن تكون التفاتة الجسم ، لا العقل والوجدان ٠

بيد أن أعمال الحج لاتبلغ من صدره أى مبلغ ، انه يستغل الأنشطة الاجتماعية ، والجمعيات الدينية ، وتعاون الجمعيات الخيرية ، ومساهمات المجلس الصوفى الأعلى ، أو الطرق الصوفية فى الاستفادة من رحلات الحجاج ، من ثم تراه مسرعا بتدوين نفسه وتثبيت أوضاعه على النحو الذى يحقق له ما هدف اليه .

وكم من منتسب ساهم فى اقامة شركات سياحية باسم أحد أقاربه ، أو مريديه ـ ان كان له مريدون ـ أو أحد أولاده القصر ، ويديرها جيش جرار من المنتسبين اليه ، ويفلت من كافة القوانين ، ويتخطى كل الحواجز التى يمكن أن تعوق مسيرته ، أو تقلل من فرص نجاحاته الدنيوية .

انه يعدل أوضاعه لتلائم الظروف التى يتحقق له بعدها مزيد من الآلاف التى ستدخل حسابه الدنيوى ، أما الأخروى فأمر آخر ، وحين يأتى ربما تكون الظروف قد تحسنت ، والأوضاع تغيرت ، والأحوال استقرت ، ثم يتوب بلسانه طامعا فى قوله تعالى " تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ" (١) ولو

---

(١) سورة غافر الآية رقم ٣

كان حصيفا لقرأ الآيات حتى قوله تعالى " شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ " (١) لكنه لا يفعل حتى لا يصطدم حق اللـه بباطـل اعتقاد يقوم في اعماقه كمنتسب ٠

اذ ن المنتسب لاقيمة له ، ولاحاجة لتقليده ، أو السعى خلفـه أو مصادقته ، انه يظهر غير ما يبطن ، ويسر بما لا يحب الاعلان عنه ، فيظلم نفسه بادعاء الزهد ، ويظلم الآخرين لأنه سيكون عبئا عليهـم ، وعالة يتكاتفون في حملها ٠ بل هو مرض خطير يجب بتره من جسـم المجتمع المسلم الذى لم يعرف الا الحق والعدل والتزام شريعة رب العالمين ٠

(٤) مصادقة الأمـراء :

الصوفي يجد لذته في مصادقة أولياء الرحمن ، لأنه يعلـم أن المرء يحشر مع من يحب ، وأولياء الله في الآخرة لايقع بينهم التـلاؤم على تقصير ، أما المنتسب فيركز صداقاته في الأمراء والرؤسـاء ، والسلاطين ، انه يحاول ايجاد مكان له في نفوس رئيس البلدة ورئيـس المدينة ومحافظ الأقليم ، ومدير أمنه ، وكم من الوزراء ، بل يسـعى

(١) سورة غافر الآية رقم ٣

لتحقيق الوصول الى قلب رئيس الدولة ٠

وربما تسألنى ، وهل صداقة أمثال هؤلاء تعد جناية حتـــى نعتبرها زلة سقط فيها المنتسب ، أو عثرة يحتاج الى اقالة منها ؟

والجواب : أن الصوفى يصادق هؤلاء وأولئك شريطة أن يكونوا من أهل العبادة ، ومحبة الله ، والطاعة له ، فشرط الصوفـــــى مصاحبة الاتقياء لا الرؤساء ، أما المنتسب فشرطه مصادقة الرؤســـاء لايعنيه أن يكونوا اتقياء أو اشقياء ، انما يعنيه أن يجد فى صدورهم مكانا ٠

كما أن المنتسب عادة يلجأ الى محاولة التخفى عن مواجهـــة الحقيقة ولايستطيع التخفى الا تحت ستارات متعددة ، ومن هـذه الستارات مصادقة الرؤساء والأمراء ، وأصحاب المراكز القياديـــة حتى لايقترب الشك من ساحته فيفتضح أمره ، ولذا كانت لهم مـــع هؤلاء صداقات وصلات ابتدأت من الزيارات حتى الهدايا والهبات وكان المنتسبون للصوفية هم الزاحفون اليهم ٠

بل ان بعض المنتسبين كان يعمل عينا على تلاميذه ومريديـه الذين خدعوا فيه — لرجال الضبطيات القضائية ، وبوليس الآداب ،

ضحية لأقدار ليس هو طرفا فيها فيتم الافراج عنه ، وهنا تعلو في نفوس السذج كرامات الشيخ الكاذب ، الذى وقف له المأمور منتصبا وافرج عن السجين لمجرد زيارته له ، ويالها من سذاجة ، وما أكثر السذج في عصر يعم فيه الظلام .

ومن مظاهر الانتساب أنهم اذا " لقوا الجبابرة ، وأبناء الدنيا أخذوا معهم بحسهم " (١) لأنهم راضوا أنفسهم على التلون لكل موقف بما يناسبه ، فاذا كان ارضاء الأمراء في النفاق نافقوا ، واذا كانت بيوتهم لاتنال الا بالرشوة قدموها وليكن تحت اسم الهدايا والعطايا والهبات ، أو المنح والنفحات .

والخواطر تتداعي فأذكر أحد المسئولين كان في مجال الأمن العام ، مسئوليته حفظ النظام والسهر عليه ، والضرب بيد من حديد على أيدى الخارجين ، وكان لواحد من المنتسبين أمر يحتاج فيه الى ذلك المسئول ، فما كان منه الا أن اشترى جنيها ذهبا من أحد تجار الذهب فأهداه لذلك المسئول ، ولم يمض وقت

---

(١) ابن الجوزى — تلبيس ابليس ص ٢٠١

غير ضحوة النهار حتى جاء أحد العسس إلى تاجر الذهب نفسه يعرض عليه شراء ذلك الجنيه بحجة أن الباشا عنده منه كثير وأنه ذاهب للعمرة ومحتاج لهذه المبالغ الآن ، والغريب أن الرجل المسؤول موظف عام أيضا ، مهمته البحث عن الجرائم فى الخفاء ، فماذا هو صانع وقد رأى رئيسه منغمسا فى الرشوة حتى أذنيه ٠

يا الله ٠ منتسب ، ومرتشى ، ومال حرام ، وعمرة يراد بهما التجارة والسفر والترحال ، وحقوق بين المنتسب والمرتشى تضيع ، وأموال تهدر ، واعراض تنتهك ، وأيتام تضيع حقوقهم ، والسبيل الى ذلك فى كل من الأمرين بَيّن جدا ، انه الانتساب لأهل الصلاح ، مجرد الانتساب ، وموظف حكومى يقبل الرشوة ، ويطعم أولاده حراما مهملا الآداب الشرعية ومنها قوله صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " (١)

وربما أفتى المنتسب الجاهل بحل محرم ، أو بتحريم حلال استكبارا فى الأرض ، ومكر السىء " وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ " فهو يلبث عمامة خضراء ، ولحية مخضبة بالحناء ، وربما احنى ظهره وارتدى

---

(١) / مختصر الزبيدى

لباس أهل التقوى ، أو أهل الفساد ، لاهم له الا بلوغ مأربه لدى السلطة المدنية ، ولو كان على حساب الناحية الدينية ٠

خذ مثالا يقرب المراد :

صاحبهم الذى أدعى التصوف وانتسب للصوفية ، وجده مع والده وأعمامه فى الطريق، فرض على اتباعه جمع شعر رأسه الذى تم حلقه عن طريق الحلاق ، ثم فرض عليهم ثانية أن يغسلوه ويضعوه فى ملابس خاصة ، زاعما أنه شعر مبارك ، وأنه نفسه من نسل النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتعامل بغطرسة شديدة مع الفقراء لكنه تابع هزيل خلف أذيال الأمراء ٠

خذ مثالا آخر :

أحد المنتسبين بنى لنفسه زاوية ومزارا ، وأحاط نفسه بالكثير من مظاهر العظمة ، ومناحى الثراء الفاحش ، وما كان يعوزه السير فى ركب أحد لو كانت الخشية من الله هى المتربعة على عرش فؤاده ، أو كان هو صوفيا على المعنى الشرعى ، قام أحد ذوى النفوذ بعرض نفسه على أهل الدائرة ليكون ممثلا عنهم فى البرلمان ٠

هم ذلك المنتسب يجمع أموالا ، ويفرض أتاوات ، ويقيم سرادقات يدعو فيها بتأييد ذلك المسئول ، والوقوف بجانبه ، ومن كثرة مزاعمه - حتى يفوز هذا المرشح - أعلن المنتسب أن هذا قطب ربانى ، وعالم روحانى ، وفيض نورانى ، لو وَلِيَ وزارة لكان هو بدرها ، ولو أنه رأس حكومة لكان ليلها ونهارها ، رغم أن المسئول نفسه قد أقيل من وزارة سبقت لجرائم استوجبت حجبه من الوزارة ، وكأن المنتسب يطبق الحديث الشريف " ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، اذا لم تستح فاصنع ما شئت " .

ويبدو أن المنتسب لايعرف الحياء الشرعى ، من ثم فهو يفعل ما يشاء دون مراعاة لحقوق الله تعالى ، وبالتالى فلا مراعاة لحقوق المخلوقين ، إنه مخادع كذاب ، وان أشاع عنه رجاله المستفيدون منه الصدق والأمانة والوفاء ، بينما هو كذاب ، خائن ، ناكث كل عهد .

خذ مثالا ثالثا :

منتسب كان أول أمره صعلوكا ، ولم تكن الحياة له ميسرة حتى أصيب بمرض التحف له الثوب الأبيض ، وأطال لحيته ، وعدّ على

ساقط من الأصل

(٥) مفارقـــة الفقـــراء :

المنتسب لايحب الفقراء الا لخدمته ، أما أن يكاتفوه فى العبادة فهذا أمر آخر ، لأنه يقرر أن فقير الدنيا فقير الآخرة ، والفقراء انما يطلبون ما يعينهم على أمور الحياة ، ولو كان لدى المنتسب كنز مـــن مال ، وحوله هؤلاء الفقراء فلا شك أن ماله سوف يتضاءل حتـــــى يتلاشى ، اذن الفقراء عالة ليس المنتسب فى حاجة اليها ، ولاترضـى نفسه بحملهم أو الاحتمال .

كما أن الفقراء مرضى ، وأصحاب أعذار ، ولا خير فيهم يعـــوض ما ينفق عليهم ، والمنتسب يحسب كل شىء بمقدار الربح أو الخســارة الدنيوية ، ان الآخرة للفقراء ، أما الدنيا فللأقوياء ، والأغنيــــاء ، والأمراء والسلاطين ، وأصحاب المراكز الكبيرة كلهم أقوياء ، تتحـقق من خلالهم المصالح ، أما الفقراء فلا مصلحة وراءهم ، ولاخير يرجى منهم ، وبالتالى فهم يفارقون الفقراء وان تعاملوا معهم فبشــــىء من التأفف والتعالى .

(٦) التدخين والحشيش :

كثيرا ما زعم المنتسبون - ومن يجرى فى فلكهم - أن التدخين مباح ، حتى وصل بعضهم الأمر الى القول : بأن الدخان حرام ونحن حين ندخنه انما نحرقه ، ولاقيمة لتدخينه ، لأنه لايعتبر أمرا منهيا عنه ، كما أن أضراره بالمال والصحة ، أو بهما معا انما هى أمور نسبية ، ولاتمثل قاعدة يمكن الاحتكام اليها ، بل صرح بعضهم بأنه كيف وأنه حلال .

غير أن هذا القول قد فقد أهم مقوماته " لأن من تأمل أدنى تأمل فى قواعد الشريعة ، وآدابها ، علم يقينا أن تناول هذه العشبة حرام ، لأنها من الخبائث التى حرمها الله تعالى على هذه الأمة المطهرة " (١) وكل الفقهاء الذين تناولوا المسألة أفتوا بأنها حرام ، لأنها ضارة بالمال والصحة ، أو ضارة بهما معا ، ولم يقل واحد ممن يعتد بفقههم أنها حلال .

---

(١) دكتور / دانيال هـ - كرسى - الدخينة فى نظر طبيب ص ١٣٨ ترجمة الزهرة مكتبة المعارف بالطائف .

كما أن علماء الطب قد صرحوا بأن الله خلق فى المخ غدة تفرز مادة " الأندروفين " وأن هذه المادة يطلقون عليها " أفيونة المخ " لأنها المايسترو الفعال فى تذوق الطعام ، والرغبة فى الحيـــاة ، والشعور بالحاجة للراحة وسائر الأمور الأخرى ، وان التدخين يفقد هذه المادة فعاليتها بحيث تصبح موجودة بدون قيمة .

كما أن " دخان التبغ يحتوى على ما لايقل عن تسعة عشر نوعا من السموم ، وأن كلا منها له مفعول قتال ، ولايخفى أن طائفة منها كالنيكوتين ، وحامض البروسيك ، وأوكسيد الكربون الأول ، والبريدين يقضى على الحياة لو أخذت من أحداها جرعة صغيرة جدا ، ولـــذا لايمكن لمدخن أن ينجو من مفعولها السام " (١) .

والدكتور ولترا باستيد و يقرر أن التبغ مخدر ، وأنه يسبب خمولا ، ونوما ، لأن به النيكوتين ، ولأنه " مسمم فان المدخنين لايأخـــذون ما يكفى دفعة واحدة حتى يحصلوا على تأثير المخدر التام ،والتدخين يخفض النشاط العقلى ، وتلبية نداء الأعصاب ، فيجعل الشخص أقـل يقظة ، ويسهل الميل للراحة والاسترخاء. "

---

(١) دكتور — دانيال هـ . كرس — الدخينة فى نظر طبيب ص ٣٢

أما السبب فى أن المدخن يشعر بأن سيجارته تعطيه نشاطا نوعا ما ، ذلك لأن سكر دمه قد ازداد ، وشهوته الى الدخان استجيبت حالا ، وهكذا يتسر لحظة من الزمن" (١) لكنه سرور مؤقت ما يلبث أن يزول ، ثم يتحول من السرور الى الغضب ، ومن الانبساط الى الانقباض ، بل من السهولة الى العسر ، وبخاصة متى زال الأثر الذى احدثه التدخين فى دم المدخن ·

والتدخين حرام لأنه يهلك البدن ، ويدمر خلايا المخ ، بحيث تصير عاجزة عن التعامل بشكل كامل مع أنماط الحياة وبخاصة اذا علمنا أن الله الذى خلق الغدة التى تفرز مادة الاندروفين قد أمر بصيانتها والمحافظة عليها ، قال تعالى " أفلا يعقلون " "لقوم يفقهون "،" لأولى الألباب"، الى غير ذلك من الآيات التى تتحدث عن هذه الجوهرة التى خلقها للانسان ، وأمره بالمحافظة عليها ·

ودعاة الصوفية لايفقهون شيئا من ذلك ، بل أن بعضهم يحاول المجادلة بأن دخان التبغ الأخضر يحرق الشيطان ، ومن

---

(١) د / هارلد شراياك – هل لك فى سيجارة ص ٥٦ دار الشرق الأوسط للطبع والنشر ببيروت ·

ثم فهم حين يحرقون التبغ انما يحرقون الشيطان ، متناسين أن الشيطان من نار ، وأن احراقه فى الدنيا يكون بمخالفة أمره ، وعدم الامتثال لوساوسه ، والابتعاد عن مناطق تواجده ٠

أما فى الآخرة ، فان احراقه سيكون من عقاب الله له ، بالنار التى يشعر معها بالألم الشديد ، وان كنت أتصور أن العدل الالهى فيه ألوان شتى من النعيم ، وكذلك ألوان شتى من العقاب الأليم ، وقد ورد الأثر بأن الجنة درجات ، وأن النار دركات ٠

اذن فما المانع أن يكون عقاب الشيطان بنوع من الزمهرير الذى يعقبه انفجار فى جدران الخلية ، وتفجير فى أجزائها ويتحقق للشيطان عذاب أليم عن طريق تفجر الخلية بالزمهرير ، كما يكون عذاب الانسان باذابة الخلية عن طريق نار الجحيم ، والمعروف أن انفجار الخلية يكون أشد ألما من اذابتها ، وفى العدل الالهى ما فيه ٠

وربما تغنى المنتسبون بإباحة التدخين – رغم أضراره الكبيرة – وأثبتوا ذلك نثرا ، كما أفاضوا فى الحديث عنه شعرا ، من ذلك قولهم :

قالوا تعاطى الدخان قُبْحٌ فقلنا : لا ما به قباحة
ولم يرد بالحرام نص والأصل فى شربه الاباحة (١)

ولم يسلم الرجل وبيتاه ، بل قد جاء الرد المبكر عليهما معا وعلى نفس الناحية الشرعية فقال :

قالوا : تعاطى الدخان حُسْنٌ فقلت : لا كله قباحة
يميتُ جسما يَضُرُّ صدرا كريه ريح عديم راحة
أبعد ذا لم يكن حراما ؟! أبعد ذا أصله الاباحة ؟!(٢)

وتشيع للشيخ سلامة الراضى ابنه محمود ، الذى حاول تأييد والده بأن التدخين مباح ، حتى ألف كتابا فى اباحة الدخان بسماه " تأييد الاعلان بعدم تحريم الدخان " حاول فيه القفز فوق النصوص

---

(١) الشيخ سلامة حسن الراضى – الاعلان بعدم تحريم الدخان نقلا عن الدخينة فى نظر طبيب ص ١٢٧ .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٢٨ وألف الشيخ على محمد سالم كتابه السلاح الماضى فى نحر دعوى سلامة حسن الراضى ، وقد أورد فيه الكثير من النقول الدينية والعلمية التى تثبت أن التدخين حرام مطلقا .

الشرعية التي تحرمه ، واضافة نصوص لم تثبت صحتها علها تؤيده ، في الدفع عن الكتاب الأول السقطات التي وقع فيها ، ولكنه لم يوفق لغرضه ، لأن التدخين حرام وليس مباحا ٠

من ثم وجدنا الشيخ" علي محمد سالم" يهاجم محمود سلامة الراضي وكتابه ، كما فعل قبل ذلك مع والده الشيخ سلامة الراضي وكتابه ، وجاء رد الشيخ علي محمد سالم في كتاب سماه " الشدة والصرامة في الرد على محمود سلامة " ومما استشهد به الشيخ سالم حديث أم سلمة رضي الله عنها ، وهو نهي النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر ، ونقل جماع أهل العلم على أن الدخان مفتر ، ثم قال : والمشاهدة أصدق شاهد " (١)

وقال الشاعر المعروف " معروف الرصافي في مضار التدخين :

كل ابن آدم مقهور بعـــادات	لهن ينقاد في كل الارادات
لو لم تكن هذه العادات قاهـرة	لما أسيغت بحال بنت حانات
ولا رأيت سجارات يدخنهـــا	قوم بوقت انفراد واجتماعات٠
ان الدخان لثان في البلاء اذ ا	ماعدت الخمر أولى في البليات

---

(١) الدخينة في نظر طبيب ص ١٢١

ورب بيضاء قيد الأصبع احترقت في الكف وهي احتراق في الحشاشات
ان مر بين شفاه القوم أسود هبا الق أصفرارا على بيض الثنيات
وليتها كان هذا حظ شاربها بل قد تفت بكفيه المرارات
لو لم يك الدهر سوقا راج باطلها ماراجت الخمر في سوق التجارات
ولا استمر دخان التبغ منتشرا بين الورى وهو مطلوب كأقوات
لو استطعت جعلت التبغ محتكرا فوق احتكار له أضعاف مرات
وزدت أضعاف أضعاف ضريبته حتى يبيعوه قيراطا ببدرات
فيستريح فقير القوم منه ولا يبلى به غير مثرذ ى سفاهات(١).

اذن التدخين لم يقف معه أصحاب عقل ونهى ، وانما رفضه كل العقلاء ، كما أن الشرع الشريف سبق الى تحريمه ، حتى أن الكثيرين من فقهاء المذاهب ألفوا رسائل في تحريم الدخان ، بكافة أنواعه ، وكن دونوا فيه رسائل ، وأفتوا فيها بتحريمه جمهرة كبيرة نقتطف منها :

(١) الشيخ صالح الحنفي ― فيض الرحيم الرحمن في تحريم شرب الدخان " جاء فيه أن الشيخ العصامي المالكي قال : " أعلم أن شرب الدخان حرام ، وغير جائز ، وتجويز شربه أخذا بالاباحة الأصلية ، تجويز غير مشروع " كما أفتى الشيخ حسين بن علي الحسيني

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٩٢٥ في ٢٦ مارس ١٩٥١ قصيدة للشاعر معروف الرصافي بعنوان " العادات قاهرات " .

مفتى مكة المكرمة بتحريمها ، ونسب الى اجلاء المالكية القول بتحريم هذه الحشيشة التبغية ٠

ومثل المالكية أفتى جمهور علماء الظاهر ، والشافعية على أنه من الأمور المبتدعة ، وأنه مذموم منكر ، كما يشهد بذلك مؤلفات الأئمة الموثوق بهم فى مذمته ، وذم شاربه ، حتى ترقى كثير منهم عن التقبيح والتذميم الى التحريم والتأثيم ٠

وأفتى المحققون من الفقهاء بتحريمه منهم الأئمة الشرنبلانى والبهوتى الحنبلى ، محمد بن فتح المالكى ، وعامر شرف الدين الشبراوى الشافعى ، وذكر الشيخ الكندى تسعة عشر وجها كلها تدل على أن الدخان حرام ، لأنه عام البلية ، شامل الفتنة ، وما يكون كذلك فهو محكوم عليه بالحرمة ٠

(٢) الشيخ محمد الوالى الغلانى – غاية البيان فى تحريم الدخان

(٣) الشيخ محمد جمال المالكى – تنبيه الغفلان فى منع شرب الدخان ٠

(٤) الشيخ عبد الملك العصامى المالكى – رسالة تحريم الدخان ٠

(٥) الشيخ / ابراهيم اللقانى – نصيحة الأخوان فى اجتناب الدخان ٠

(٦) الشيخ / محمد عبد الحى الكندى - ترويح الجنان بتشريح حكم شارب الدخان .

(٧) الشيخ / محمد عبد المطلب - منهل الظمآن فى كل ما يتعلق بالدخان .

الى غير ذلك من الأبحاث التى تعلقت بتحريم شرب الدخان وتأثيم المدخنين ، واحصاؤها يحتاج مجهودا لسنا بحاجة اليه ، لكن لطالب المزيد الرجوع الى المصادر بأسفل الصفحات ففيها الى المطلوب اشارات .

ومع كل هذا فقد رأينا المنتسبين للتصوف يدخنون ويطالبون مريديهم بالتدخين ، متعللين بأنها لم تثبت حرمتها ، وأنها تنشط الذهن ، وتساعد المعدة على الهضم ، وتحرق الشيطان ، وما هى بشئ من ذلك ، بل العكس صحيح بأن الأدلة على أنها حرام ، وأنها تسبب خمول الذهن ، وتقلل من كفاءة المعدة ، ويستخدمها الشيطان وسيلة من وسائله لمحاربة المتقين ، والأخذ من التابعين فى الشهوات ، الراكضين بين أحضان المخالفات .

كما لم يفتهم أن يمتدحوا الآلة التى تحمل التبغ اليهم فتارة يسمونها التفاحة ، وأخرى الموزة ، وثالثة الريحان ، الى غير ذلك

من المسميات التى ظاهرها المدح بينما هى لاتحمل سوى القدح ، حتى قرنها كثير من العلماء بآلة الخمر ، فالزجاجة التى يوضع فيها الخمر حرام لأنها استهلاك مال فى شىء حرام ، والمتوصل به الى الحرام حرام أيضا .

بيد أن المتسببين فى استعمالهم للحشيش او السيجارة ، أو السيجار ، أو المبسم ، أو البايب ، الى غير ذلك من الأدوات التى يحاولون الاتقان فيها ، والتفنن وتحويلها من قطعة خشبية الى غيرها ، حتى أن بعضهم يجعلها مطلاة بالذهب كدليل على الثراء الفاحش ، وما هى الا دليل محادة الله ، ومحاربة رسوله والخروج على تعاليم رب العالمين ، وليس ذلك الا من شئون المنتسبين للتصوف ، الذين بغضهم كل العلماء ، وافتى بخطئهم سائر الفقهاء .

وحسنا فعل بعض ولاة الأمور فى سائر البلاد الاسلامية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر بل والعشرين حين كانت السيادة لعلماء الدين حتى أن الوالى محمد البدقجى الذى تولى امارة مصر ١٧٤٣م أصدر أمرا بمنع التدخين فى الشوارع والدكاكين وعند أبواب البيوت ، بل واصدر أوامره الى رجال الشرطة بالمرور ثلاث

مرات فى كل يوم بجميع أنحاء القاهرة ٠

وكذلك سائر البلاد ، وكان رجال الشرطة اذا ضبطوا أحدا يدخن نكلوا به ، وساقوه العذاب ، لأنه يضر بنفسه والآخرين ، ويضر بدينه وأمن دولته ، وكانت لديهم التعليمات التى منها اجبار المدخن على التهام حجر غليونه ، بمحتوياته المشتعلة ، طالما ضبط وهو يدخن ٠

كما أن اقامة الشريعة فى البلاد الاسلامية سمحت للفقهاء بالوصول مع المدخن الى حد التعذير ، وجلده وحبسه وربما تغريبه عن بلده مدة من الزمان حتى ينصلح له حاله ، ويستوى على الخير أمره ، فما بالك بمن ينتسبون للتصوف ، وفى ذات الوقت يرتكبون كل هذه المخالفات ، أراك تشد على يدى بأنهم ليسوا صوفية ، ولاعلم لهم بشئ من التصوف أبدا ٠

تدخين الحشيش :

الحشيشة نبات سئ سام تؤثر فى الكبد والصدر ، وتدخينها حرام مطلقا ، والأصل فى تحريمها مارواه الامام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه ، بسند صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها

قالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر"، وقد فهم العلماء المفتر والمسكر وعرفوا كلا منهما .

وإذا كان المسكر هو الذى يذهب العقل ولو مؤقتا ، فإن المفتر هو كل ما يورث الفتور ، والخدر فى الأطراف ، وانه لاينبغى لذى مروءة ، أو دين سليم ، أو ورع منضبط ، أو زهد قام على أساس صحيح ، أو لديه تطلع الى نوع من الكمالات أن يقع فى تدخين الحشيش ، أو الدخان أو ما كان من هذا القبيل .

وسواء ورد فيها النص ، أو جاءت مع القياس ، أو من باب اتقاء الشبهات ، لقوله صلى الله عليه وسلم " من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه " (١) وقوله صلى الله عليه وسلم " لايبلغ عبد درجة اليقين حتى يدع ما لا بأس به ، مخافة ما به بأس" (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : دع ما يريبك الى ما لا يريبك" (٣) فانها حرام على كافة الأنحاء ، بل قد رمى مدخنها بارتكاب الحرام ، والجهل والخسة ، ومخالفة الشريعة ، والوقوع فى كافة المناقص

---

(١) حديث صحيح .
(٢) رواه ابن ماجة .
(٣) رواه النسائى والترمذى وصححه الحاكم .

البشرية وجاءت هذه وتلك نظما ونثرا ، حكمة أو خبرا ، مما يصعب معه الاحصاء على الوجه الأكمل ، وان كنت أقتنص منها هذين البيتين ، مما ورد على طريق النظم :

قل لمن يأكل الحشيشة جهلا   ياخسيسا قد عشت شر معيشة
دية العقل بدرة فلماذا   ياسفيها قد بعتها بحشيشة (١)

غير أن المنتسبين للصوفية يدخنون الحشيش والدخان ، بل أن بعضهم لجا الى اثبات أن التدخين حلال ، فاذا ثبت حله فقد ثبت حل الحشيش ، وها هو كتاب " الصلح بين الأخوان في اباحة الدخان (٢) يتحدث عن الدخان والحشيش وان كان ضمنا ، ثم يحاول / بقدر الامكان / الاستشهاد بالشعر والأقوال التي لم يقف معها سند صريح ، أو دليل صحيح ، وانما هي تلفيقات لاتصل لغرض يمكن قبوله ٠

كما أنه حاول التركيز على المسحة الأدبية ، في صياغة مطلوبه سواء دفاعا عن الدخان والتبغ والغليون والبايب ، أو ما يعقبه

---

(١) د / دانيال ٠ هـ ـ كرسي ـ الدخينة في نظر طبيب ص ١٣٥
(٢) للشيخ / عبد الغني بن اسماعيل النابلسي المتوفى ١١٤٢ هـ نشر المكتبة السلفية بدمشق ١٣٤٣ هـ ويقع في ١٠٤ صفحة ٠

كآلة . قال القائل ، مدافعا عن شرب التدخين :

وما شربنا للتبغ عـار وانمـــا ... لأمر قصدناه فقـوا وتأمــــلوا
أردناه فيما بيننا فلعلنــــا ... الى ثغـر من نهوى به نتوصـل

ومن ذلك ما يصف به الدخان المحترق من الغليون . فيقول :

كأنما دخـــان غليونـــــه ... لمـا بدا من ثغــره الـدرى
غيـم نشـا من شـفق أحمـر ... مرتفعا غطى ســنا البـدرى

وثالث يطالب بجلسات الأنس ، مع الخل الوفي ، الرفيـــق الذى يجلس والشيطان على فمه وفي مناخره ، وينهى عن أن يكـون التدخين عادة تُؤدّى ، انه يريده مزاجا خاصا ، يقول :

لاتشرب التبــــغ الا ... مع الرفيق الرفيــــــق
لو لم يكـــن فيــه الا ... تمزيج ريـــق بريـــــق

ورابع يلتمس علة لتدخينه ، وأنه بهذا التدخين يحاول مداراة نار قلبه ، ويضرب لذلك مثالا بشارب الخمر الذى يتداوى بالخمر ، متجاهلا أن هذين النوعين وأمثالهما ضلال مبين ، وفعل شائـن حرام . يقول :

رشفت دخان التبغ لا عن سفاهة ولا عبث يزرى بقدرى ولا يزرى
ولكن اداوى نار قلبى بمثلها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وكثيرا ما كان المنتسب يجمع بين مريديه بعضا من مدمنى المخدرات الذين تسقط مروءتهم فيلبسون الممزق والمرقع ، ويسقطون على الأرض من كثرة الأعياء ، وربما فاه بعضهم بعبارات الألم فظنها الغِرُّ حالات الوجد والهيام ، أو صرخ من أعماقه توجعا ، فحسبه الجاهل الى الرحمن تشوقا ، وهكذا تختلط الأمور ، ولا تظهر الحقائق على ما هى عليه ٠

كما أن بعض المنتسبين مارس التدخين بأنواعه ، وساهم فى تجارته باخفاء المتاجرين به فى صومعته أو خلوته ، وكم سمعنا عن منتسبين استغلوا الغطاء الدينى لهم ، فكونوا صداقات مع تجار المخدرات ، وكانت لهم من أموال الحرام عوائد ، وعندهم المنح والعطايا ، والكثير من الهبات ٠

على أن بعض تجار المخدرات كان يقدم عوائد على الدوام للشيخ ، وكانا يتزاوان طمعا فى اضفاء الشرعية على تصرفهما الحرام فتاجر المخدرات رأس ماله حرام ، وأصل تجارته حرام ، وغرضه الذى يسعى اليه حرام ، وكذلك المنتسب للصوفية جاهل بكل شىء حتى

فى أنه يفعل الحرام ، ويطعم أولاده من مال الفقراء والأيتام ، والصدقات والذكوات ، وهو كله عليه حرام ، اذن تلاقى الشيطانان وتعاون الأليفان ٠

على أن صداقتهما لها غرض دنى ، وغاية غير سوية ، انهما المتاجرة بما يغضب الرحمن ، ويرضى الشيطان ، ويدخل النيران ، ويباعد عن الجنان ، وليس ذلك بشأن للصوفى الحق ، ولا هى سمة من سماته ، انها احدى سمات المنتسب للقوم ، والله عز وجل قال : " وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ " (١) ٠

وخامس: يبهيم بدعواه الكذوب ، فيشيع أن الدخان عادة مقبولة وأمر مباح ، ويكفى أن كل من فى الكون نام له وأن الحشيش من الدخان طيب فى طيب ، بل هما معا العالى وما سواهما السافل ، وأن مرارته وحلاوته تكون لذائقيه لا لغيرهم ٠ يقول :

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٣٦ — ٣٨ ٠

دخان التبغ هام به البرايا　　فطيب العود سفل وهو علو
مرارته حلاوة ذائقيه　　ألا فاعجب لمر وهو حلو (١)

وهكذا وجدنا الزلات يقع فيها المنتسبون للصوفية دون استثناء انهم لايفكرون فى الخروج من هذه المصائب ، أو التخلى عن هذه الأرجاس ، بل ان بعضهم قد سولت له نفسه اخضاع تدخين الحشيش المحرم شرعا الى دائرة الكرامات وان الله لم يتخلى عنه أثناء تدخينه الحشيش ، مما يجعل المسألة فى دائرة الحل وليس الحرمة والاباحة .

يقص منتسب أن شيخه كان يدخن الحشيش بشراهة ، وقد نقم عليه صاحب قلب مكلوم ، فوشى به الى الحاكم الذى أرسل رجال الشرطة اليه ، وكان يتمنى ضبطه مع حشيشه والشيشة ، غير أن رجال الشرطة ما أن دخلوا مجلسه ، وأتموا القبض عليه ، حتى بدّل الله الحشيش الذى بيده ، الى نبات أخضر تحول هذا النبات أعواد ذرة ، وبعضه تحول الى أوراق ريحان .

---

(١) الشيخ / عبد الغنى النابلسى - الصلح بين الاخوان فى اباحة الدخان فيها كثير من هذه الأشعار والنوادر التى لايمكن قبولها على وجه شرعى أبداً ، ولطالب المزيد الرجوع اليها ففيها أمثلة عديدة غشيت صفحاتها .

حتى أن رجال الشرطة فزعوا من الموقف انهم يشتمون رائحة الحشيش الذى يدخنه ، لكنهم لايرون الا نباتا أخضر ترعاه الماشية وتأكله الأرانب ، انه حشيش من الأرض الذى ينمو على ضفاف الأنهار ، وليس الحشيش الذى يحرمه القانون ، وهكذا تحول الحرام حلالا ، والخارج على الدين وليا ، والمهلك نفسه واخوانه صاحب كرامات لاحدود لها ، وماذلك الا من صنع أولئك المنتسبين للصوفية ، الذين لايحجمهم عن الكذب ضمير حى ، ولايوقف خروجهم شرع يخاف ٠

انهم لايفكرون الا فى شىء واحد ، هو اسباغ انفسهم بالكثير من الكرامات ، واحاطة شيوخهم بالعديد من الأساطير والخرافات حتى يقع فعلهم فى غيرهم محل القبول ، وتحوز تصرفاتهم الفاجرة من الآخرين "وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ " (١) ٠

قد عبدوا شهوة البطن ، وشهوة الجنس ، وشهوة الخروج على الشرع ، وحاولوا استيلاد شواهد لاباحتها ، رغم سقوط

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨١

شواهدهم ، وتهاوى أدلتهم ، وكشف عوراتهم التى حاولوا سترها بأوراق الخريف التى تسقط يابسة ولن يجديهم ذلك عند مواجهة الحق ، كما لاينفعهم أمام موجات العدل المتلاحقة ٠

أجل ٠ تهاوى المنتسبون للصوفية تحت أقدام الدخان والحشيش بل ربما كان لبعضهم مزاج خاص فأكلوا الأفيون ، ومضغوا القات ، واستنشقوا الكفتة ، وعصروا الزبيب ، والتمر والعنب ، حتى شربوا الحشيش والدخان ، وأغضبوا الرحمن ، وسايروا الشيطان ٠

وربما أفتى بعضهم بأن شرب الخمر يدر البول ، ويعالج المثانة ، ويزيل الحصوات ، فاندفع الناس إليهم بكل ما معهم من مال أو لديهم من قوة ، طامعين فى الشفاء الموهوم ، راجين الأمل الكذوب ، معتقدين أن شيخهم صادق ، وماهو الا كذاب ضال افتقد الضمير الحى ، واليقين الصادق ، والنية الصافية ، والقلب المرتبط بالله رب العالمين ٠

من ثم ٠ كانت لهم مساوئ ، وعليهم مثالب ، وفيهم معايب ومنهم مناقص ، ومهما التحفوا ملابس الرهبان ، أو افترشوا مسوك الضأن ، أو أطالوا اللحى ، وأفاضوا المسابح ، وصغروا العمائم ،

أو أطالوا وقصروا ، ومهما حجوا واعتمروا ، فما هم الا شياطين آدمية ، تتحرك في أجساد بشرية .

وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ، ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا " (١) .

(٧) الابتداع بدل الاتباع :

أهل التصوف الحق تراهم على الحق يسيرون ، انهم متبعون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رائدهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، منهجهم الاتباع ، موافقة ماجاء في كتاب الله وسنة رسوله ، بحيث يمكن اعتبارهم السلف الصالح على امتداد الزمان ، لأن السلف الصالح هم الملتزمون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والصوفي الحق تراه يطبق النقل المنزل على نفسه ، بحيث ينزل نفسه وهواه الى أوامر الشرع ونواهيه ، لقوله صلى الله عليه

(١) سورة الكهف الآيات ١٠٢ — ١٠٦

وسلم " تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا . كتاب الله وسنتى " وقوله صلى الله عليه وسلم " أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار " .

لذا رأينا الصوفى الحق يضع خطا يلزم نفسه بالوقوف عنده ، ولايحاول تجاوزه أبدا ، بل ان كافة الضرورات ينزلها من نفسه منزلة العزائم ، حتى اذا استعمل الرخصة كان ذلك فى أضيق نطاق ، رغم أن الرخص مشروعة لقوله صلى الله عليه وسلم "ان الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه " من ثم كان منهجه الاتباع .

بيد أن المنتسب للصوفية لايعرف الاتباع ، انه حذفه من قاموسه الشخصى فليس له الا الابتداع . واذا اتبع فلا يتبع الا مبتدعا ، هو مصر على أن يخرق القواعد الثابتة ، وتجاوز الحدود الآمنة ، والرغبة فى القفز فوق الأسوار المحصنة ، ثم تراه ينسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقله حتى عرفوا وأمثالهم بالوضاعين فى الحديث الشريف .

وكثيرا ما ساقوا قصصا من الخيال ، ونسبوها الى الصحابة الأعلام رضوان الله عليهم أجمعين ، وكان نسيجهم القصصى يفتقد الى أهم مقوماته الأساسية ، وهو تطور الحدث بالقدر المساوى للوقائع ، من ثم رأينا منهم قصصا هى الخيال المسرف ، والشطط والغلو ، والتأسى بهذه الخيالات ، بل والتسبيح بحمدها والتركيز على ذكرها .

خذ مثلا : ما حكى من أن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه ، مر على امرأة فنظر اليها ، وتأمل محاسنها ، ثم دخل بعد ذلك على سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال سيدنا عثمان لسيدنا أنس ، يدخل أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، فقال أنس لسيدنا عثمان . أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عثمان رضى الله عنه ، انها فراسة المؤمن ، انه يرى بنور الله " .

وهذه القصة تراها فى الرسالة القشيرية (١) ، وفى غيرها من كتب التصوف التى يتعجل أصحابها التأليف ، والقفز السريع فوق عالم الثقافة (٢) ، وأبسط القواعد العلمية تؤتى ثمارها بأن أنس بن مالك ليس ممن يتأمل محاسن امرأة ، أيا كانت هى ، ان الرسول صلى الله عليه

(١) وأظنها مدسوسة على الامام القشيرى ، وانها وضعت فى كتاب يحمل اسمه ليفقد الناس الثقة فيه .

(٢) لانحسب الامام القشيرى منهم ، ولانعده فيهم ، ولكنا نقصد وضع المنتسبين وخطره على كتب التصوف .

وسلم دعا لأنس بالبركة ، وسأله أنس أين يلقاه ، فدله الرسول الكريم على مواطن ثلاثة آخرها عند الحوض المورود .

أضف الى ذلك أن أنس كان صاحب دعوة مجابة ، وحملت كتب السنة والآثار ما وقع لأنس بن مالك رضى الله عنه ، وكلها تؤكد أنه ولى صالح ، فهل أولياء الله تعالى يقع منهم ما يغضب الله (١) ، ما أظنك توافق هؤلاء على الوقوع فى سيدنا أنس بن مالك أو غيره وأراك ترفع صوتك صادحا بأن هذه أنهام المتصوفة لا قواعد الصوفية

بيد أن مسألة الاتباع أمر مقرر لدى الصوفية أهل السنة والجماعة امتداد السلف الصالح ، انهم لايفكرون فى الخروج عنه ، أو الانفلات منه ، أما الابتداع فأمر قائم فى أنهام المتصوفة ، والمنتسبين للصوفية ، وهم يحاولون التزامه ، والتمسك به ، وهم يميتون السنة ليقيموا مليون بدعة ، وما علموا أن أماتة السنة ضياع للسند الدينى واقامة البدعة اسراع باهلاك الأمة كلها .

---

(١) راجع كتابنا : الايمان بالغيب وأثره على الفكر الاسلامى الباب الثانى — الفصل الثانى — علاقة الغيب بالكرامة .

من ثم رأينا منهم اختلاط الرجال بالنساء ، والأولاد بالبنات والرقص على ايقاعات موسيقية منغمة ، وان اختلفت درجات سلمها الموسيقى الا أنها فى النهاية تحرك مشاعر ساكنة ، وتدغدغ عواطف حقها أن تصان ، وكم رأينا منهم المنشدين للشعر ، الراوين للقصص التى تتسم بطابع بعيد عن الدين ، ومع هذا يحاول هؤلاء أدخالها الى الدين ، وربما أوهموا تابعيهم بأنها نصوص دينية .

وقد سقط فى أيديهم حينما واجهتهم الوقائع الدينية سافرة واضحة المصدر ، موثقة الدليل ، بينما غفل عن هذا الدور الواضح أناس كثير ، منها قصص " صالحة وصالح ، الزير سالم ، وأبو زيد الهلالى ، الولى الأنور ، وغير ذلك من القصص التى تحمل على عاتقها نقل الكذب ، وابلاغه للعالمين ، على أنه من أمور الدين ، مبتدعين لامقنعين .

كما يفسرون القرآن الكريم بالهوى ، حتى أنه لتقع فى صدورهم الرغبة القوية فى اضافات تذهب ببهاء القرآن وجلاله ، كما أضافوا لفهم القرآن الكريم ، والأمر عندهم سواء بسواء ، قصص القرآن وأخباره ، مكنونه وأسراره ، أحكامه ونوازله حتى عرفوا بالقصص الاسرائيلية ، والروايات المكذوبة فى التفسير .

والغريب أنهم فى ابتداء عصاتهم لم يكونوا نمطا واحدا ، وانما كانوا أمشاجا مختلفة ، ورموزا لاتوجد بينها رابطة ، حتى أن بعضهم فسر القرآن الكريم بما تدلى به حوافظهم الفارغة من قواعد التفسير وأصوله ، متذرعين بأن التفسير ذوق ، وأن القواعد التى وضعها علماء التفسير ما هى الا قيود لاتقوم على سند شرعى ، من ثم طعنوا فى كل كتب التفسير تقريبا ، ولم يستثنوا منها الا من كان على نمطهم يسيره من أن للقرآن الكريم ظاهرا وباطنا ، وان علماء التفسير لم يفهموا منه حتى الآن الا الغلاف والعنوان فقط .

وبعضهم أول آيات القرآن الكريم حتى خرج بها عن المعانى المرادة لها ، وربما ادعى وجود نسخ فيما هو محكم ، أو عدم نسخ فيما استقر عليه العلماء أن فيه نسخا ، أو تصور المطلق مقيدا ، أو حكى عن العام بأنه خاص ، أو توهم فى قصص القرآن الكريم وأخباره ، أو جادل فى قطعية دلالته أو وروده ، وكل هذا من غير أن تكون له به معرفة ، أو يسبق له به علم .

ناهيك عمن يفسر بما لايعرف له أصل ، كالتفسير بالحروف العددية والطلاسم النجمية ، كما فعل أصحاب النجوم والبهائية ، أو رشاد خليفة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكثير من الطوائف التى

تنسب نفسها للتصوف ، وتزعم أنها صوفية ، وقد ذمها علماء التفسير وعلوم القرآن الكريم ، وكشفوا النقاب عنها ، وأنها لاتخرج عن مجرد تكهنات لاترقى الى التسمية بأنها علوم فى التفسير أو علوم القرآن ..

وأذكر فى طفولتى أنى شاهدت واحدا من هؤلاء ، فدفعتنى نفسى الى سؤاله — وكنت مازلت صبيا — هرولت اليه — لأنه كان يقرأ مولد البرزنجى فى بيت أحد أقاربى — وسألته :

— هل كان قارون نبيا أم رسولا ؟

— عليه الصلاة والسلام .

— ان الله خسف به وبداره الأرض فكيف تقول عليه الصلاة والسلام ؟

— لأن الله قال فيه " وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه — هكذا نطقها — وصحيح الآية ما إن مفتاحه — لتنوء بالعصبة أولى القوة .

— كيف تصلى وتسلم على قارون ، وهو من المفسدين ، وباغ ومجرم أيضا ؟

— لأن الله قال فيه " انه لذو حظ عظيم " .

ذهبت أجرى الى أحد العلماء العاملين المرحوم الشيخ رضوان الفقى وكان من الحاصلين على العالمية من الأزهر القديم ، فشكوت اليه ماقاله الشيخ السابق ، فضحك وقال :

- يابنى كان الشيخ يقصد كليم الله موسى ، بأنه نبى ، وأن عليه الصلاة والسلام ، وحاول العالم الكبير صرف وجهتى عن الشيخ المتدروش الذى لم يفرق بين نبى وطاغية ، حتى يصلى ويسلم على كليهما معا ، وكبرت معى المسألة فما صرت أسأله عن أى مسألة الا العليم بها ، متوجها من تعليمات العلام جل علاه ، فى قوله تعالى ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ .

وهكذا فان الاتباع كان يقتضى من الشيخ المتدروش ويفرض عليه ان يسأل اهل الذكر ان كان له فى الأمر نصيب ، أما أن يبادر بالاجابة على مالايعرف فتلك سمة المنتسبين للصوفية ، الذين يستنكفون أن يقال عليهم أنهم غير علماء " كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا " فالعلم لايعرف الكلمة الأخيرة ، وسبحان من أحاط بكل شىء علما .

= خذ مثالا آخر :

والدتي أطال الله في عمرها ، نامت من غير صلاة العشاء في ليلة من شتاء مضى عليه أربعون عاما ، وكانت مجهدة ، فاذا بها تقع في دائرة اضغاث الأحلام ، حتى رأت أن بعيرا يطاردها وأنها تهرب منه من غرفة الى غرفة ، حتى استيقظت مذعورة ، وفي نفس اليوم مر علينا أحد المنتسبين — وكانت أمي أمد الله في عمرها تثق فيهم وتظنهم علماء — فسألته تأويل رؤياها ، حيث كانت تظن ماوقع لها من أضغاث أحلام رؤى ٠

فقال الشيخ :

— قد اقترب مولد سيدنا السيد البدوي ، ولابد أن عليك نذرا له ، وقد جاء يطالبك به ٠

— ماكان عليّ من نذر أبدا وتأخرت في الوفاء به ، لأنه عهد بيني وبين ربي ٠

— البدوي زعلان منك ، واذا لم تذهبي اليه ، وتقومي بزيارته وتضعي في الصندوق نقودا ، سوف يخطف منك ابنك — وكنت وحيد أبوي لفترة طويلة تجاوزت الخمس سنوات ٠

— أعمل معروف خذ النذر الذي يرضيه ، فليس لي سواه ٠

— ان النذر لابد أن تقومي به أنت ، هو يريد أن يراك أنت٠

— ظروفى لاتسمح بالذهاب اليه فى المولد ، وسأذهب فيما بعد
— هات النذر وزيادة أجرة القطار ، وسوف أذهب اليه وأكلمه فى شأنك ، وأرجوه أن يتقبل النذر منى بدلا عنك .

وحقق الشيخ ماأراد وحمل النذر الذى فرضه هو ، ودفعته أمى مكرهة ، فقد أخافها الشيخ ، ولمس منها الوتر الحساس حتى أرعبها من منظر البدوى الذى سوف يخطف وحيدها أن هى وقفت عن الوفاء بنذره .

واستغل الشيخ طيبة أمى — أمد الله فى عمرها — فكان يأتى الينا كل عام مطالبا بالنذر الذى يفرضه وتدفعه أمى خوفا من سلطة السيد البدوى — رحمه الله — رغم أنه لايوجد شئ من ذلك على الاطلاق ، هل تحول انسان الى حيوان — البعير — الا اذا كان مسخا ؟

واذا كان البدوى صالحا وهو المفروض فيه ، فهل يمسخ الله هيئته حتى يتحول الى بعير فيرفض الاستقرار ويفضل الترحال ؟

— هل يستفيد البدوى وأمثاله من هذه النذور ؟ أم تقع لهم الاستفادة فى شكل خدمى يقوم بهم نيابة عنهم بعض من يخدمون الضريح ، أو يقومون على تقديم القربات لمرتادى المكان نفسه وقس

على ذلك كل تفكير غير سوى ، وفكر غير رشيد ، وصورة منكرة لأمور لاوجود لها الا فى عقول امتد اليها الصدأ .

لقد ابتدعوا بكل ما ملكت أيديهم ، ابتدعوا صلاة التوبة ، وطالبوا الناس أن يقوموا هم بها نيابة عنهم ، فالشيخ يصلى بدلا عن مريديه ، وكأنها سيارة يقودها نيابة عنه ، أو ثوبا يرتديه بدلا منه ، وصلاة الغفران ، والصلاة السبعينية ، الى غير ذلك من الابتداعات التى لم يعرفها العلماء المحققون ، ولم يقل بها نص معصوم .

كما ابتدعوا صلاة الدخول للخلوة والمشهد والمزار ، وكأنها مساجد تقدم لها تحية ، وليس عندهم على ذلك شئ من دليل ، بل الوهم الذى غلب كل شئ فى حياتهم ، والرغبة فى الابتداع التى غطت كل مساحة فى وجداناتهم ، بل ان البعض ضم الى الخلوة المسجد ، وجعلهما معا شيئا واحدا ، فالمسجد هو الخلوة والخلوة جزؤها المسجد .

من ثم فقد المسجد هيبته فى النفوس ، وخفت احترامه فى القلوب ، حتى ان صبيا لم يتجاوز السابعة من عمره ، وقد عاد لتوه من المدرسة ، فصعد الى المسجد متجاوزا المدخل الى الفرش

والمحراب ، يقطع على المعتكفين خلواتهم ، ويمر أمام المصلين كل هذا وما يزال حذاؤه في قدميه بما فيه من بلل وتراب أو نجاسة .

حاولت توجيه الصبي الى أن هذا الأمر لايكون ، وأن للمسجد حرمته التي يخضع لها كل كبير وصغير ، وكان توجيهي للصبي مهذبا ، فاذا بشقيق والده شيخ الطريقة — يصرخ في وجهي : من أنت حتى توجه هذا ؟ !

سألته :

— من هذا ؟

— انه ابن الشيخ ...

— أما كان الأولى أن تعلماه الصواب من الخطأ .

— أي خطأ انه شريف لايخطىء .

— أي شريف تقصد ونحن لم نتهمه .

— ان جده في الضريح ، ونحن أهل علم وفضل وكرامة .

— ليس لي من دعواكم .

— كان الواجب عليك أن تضع ساترا أمامك .

— هل أضع ساترا وأنا بالمسجد ؟ ان الساتر يكون في غير

المسجد ، أو عند ازدحام المصلين كالحال فى المسجد الحرام.

— لست تعلم أن السترة يجب اتخاذها فى المساجد ؟

— يا أيهـا الشيخ الكريم . كان الأولى أن تعلم الصغير احتـرام المسجد ، بدل أن تحاول ايذائى لأنى أسديت للصبى نصحا.

— نحن نطعم الجوعى ، ونسقى العطشى ، ونعلم الجهلة ، ولنا أتباع ومريدون نغطى بهم محافظة بأكملها لو شئنا .

استغربت الموقف من هذا الشيخ ولم أقنع بمقولته ، وان كنت فى الداخل بدأت تلاحقنى ثورة لأن الصبى راح يتجول فى المسجد حيث يعتكف الناس أو يصلون ، ومايزال الصبى وحذاؤه فى قدميه ، وكأنه يطالبنى الخروج من المسجد ، أو الرضوخ لهذا الخروج عن المألوف .

دلفت الى قريب من دورة مياه المسجد حيث يوجد مبرد الماء ، فاذا بى التقى بشيخ مكتمل البنية ، سليم العضلات مفتولها ، أنست له وأستأنس بى ، وتبادلنا الحوار فعرفت أنه يعمل فى خدمة الدعوة ويشغل وظيفة عامة ، ولأنه من بلد آخر ، وغير متزوج ، فقد أخذ العهد مع هؤلاء ، وصار واحدا من مريديهم ، يأكل ويشرب وينام

دون أن يساهم بشيء من النفقات ·

سألته : لماذا تفعل ذلك ؟

لقد فرضوا عليّ حمايتهم ، فصرت لا أذهب للعمل الا قليلاً ، ولا احد يستطيع أن يتهمني بالتقصير لأن الشيخ الكبير صاحب شهرة واسعة ، وصيت ذائع ، كما أني أدخر كل دخلي للأيام ، والكل يرزق ، ولست وحدي ، بل كلناهنا ذلك الرجل ، ونفس النوايا والأفكار ·

– هل تثق في تعليمات هؤلاء ·

– دعنا من الثقة أنها المصلحة ، والشيوخ هنا متعددون الشيخ الأكبر والد للجميع ، والشيخ الأبن الأكبر وغيره من الشيوخ كلهم هذا النمط المتغطرس العجريف ، لكنا نتحمل لأنها المصلحة ، كما أنهم يقولون لنا : كن مع شيخك كالميت بين يدي مغسله ، وحين تنتهي مصالحنا سوف تتلاشى كل أوهامهم بالنسبة لنا ·

– أتعرف أنها أوهام ؟

– نعم · وكل عاقل حصيف يدركها لكن من الخطأ الاعلان عنها ·

— ألا ترى أنك تنافق هؤلاء ؟

— دعني من هذه المسائل ، النفاق ، الكذب ، الخداع ، ان الكل هنا يتصف بتلك الصفات ، ولست وحدى فى المسألة .

— الا ترى أن هذه بدع منكرة .

— نعم . بل عندهم ألف بدعة .

وظل يحكى لى من بدعهم الكثير ، سواء فى محيط أسرهم الخاصة ، أو محيط الطائفة ، أو محيط السلوكيات بين الطوائف الأخرى ، حتى ايقنت أنه كلما دخلت أمة لعنت أختها ، ولا واحدة من هذه الطوائف محل قبول الطوائف الباقية .

— أذكر لى بعض البدع ولن أخبرهم أمرك .

— تقديس تعليمات الشيخ الكبير والأكبر ، والصغير والأصغر ، حتى أنهم ركزوا على أن تعليمات الشيوخ أوجب تنفيذا من تعليمات الله ورسوله ، لأن الشيخ — على حد قوله — خليفة الله فى الأرض لاصلاحها ، وشأن الخليفة أن يهابه الكل ، ويخشى سطوته الجميع ، وينزل على رأيه جميع الناس .

— يا الله أين هى تعليمات الشيخ بل الشيوخ جميعا ؟ وماهو موقفها من العقيدة ، والشريعة والأخلاق ؟ انها تعليمات

مشوهة لانبض فيها ، ولا حركة لها ، بل ولا جدوى من ورائها انها تعليمات بشرية ينقض بعضها الآخر ، وهى فى الأغلب شفهية ، والمدون منها لايصلح للتعامل معه بشكل جيد .

— قس على ذلك سائر الأمور من صلاة ، وزكاة ، وحج ، واعتمار وصدقات وخلافه ، وكلها ابتداع وليس فيها شىء من الاتباع فأين هم من دعواهم ، بل أين دعواهم من الدليل الذى أنتصب لها ، وانعكست أمورهم على حياتهم ، فصار الواحد منهم يتحدث عن كراماته المفزعة ، وأوهامه الكبيرة التى هى نسيج مختلط من الابتداع المنصب على ناحية أمر الشرع بالابتعاد عنها .

= خذ مثالا آخر :

الشيخ الذى يجعل فوق رأسه قبعة الخواجات ، وفى فمه البايب ، يشعل دخانه آنا بعد آن ، ويقطع أرحام الزملاء ويقف فى طريقهم ما وجد الى ذلك من سبيل ، انه يقطع الصلات ويسقط فى اعراض الزملاء ، يتناول عقيدتهم ، وينهض فى وجه كل منهم بعصابة السوء ، التى كانت تستفيد من علاقاته المتعددة

بمسؤلين فى مواقع متعددة ٠

لم يعرف لغة العلم ، والموضوعية ، بل لم يفقه شيئا عن الحيدة وكيف يقام العدل بين الناس ، حصيلته أنه صاحب طريق ، وعائلته كلها متصوفة ، وهو خليفة لشيوخ سبقوه فى المسألة ، هل نقب فى كتب العلم ؟ هل فتش فى الأحكام الشرعية ؟ هل طبق أول أدب شرعى على نفسه ؟ هل قرأ قول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ " (١) هل قرأ قوله صلى الله عليه وسلم فى حديثه المشهور " كل المسلم على المسلم حرام ماله ، وعرضه ، ودمه " (٢) هل هذا صوفى أم منتسب للصوفية ؟ أراك تعلى الصوت بأنه للصوفية منتسب وليس صوفيا على الاطلاق ٠

لقد دخن التبغ ، وأشعل العداوة بين الزملاء ، وحارب فى الرزق الفقراء ، وحسد على الصابرين فى جدهم ، وعلى العلماء فى فهمهم ، وليته قلدهم فى البحث والدرس ، أو عرف

---

(١) سورة الحجرات الآية رقم ١٢

(٢) حديث صحيح ٠

طريقه الى اكتساب الحلال من الرزق ، بدل أن يعيش على نفقات الأغنياء ، وصدقات المريدين ، وفضول أموال الاخوان .

ناهيك عن افتعاله الرؤى بأنواعها ، والفأل الحسن ما وسعه فكم زعم أنه رأى فى منامه خيرًا لشقى ، وامتداد العمر لِعَيِيٍّ ، ومال قارون لذى متربة ، بل كم حاول اصباغ أحلامه الكاذبة بلون الصدق والواقعية ، فجاءت الأيام حثيثة حتى أثبتت كذب رؤياه ، وضلال مدعاه .

ولا أتجاوز القول : اذا ماذكرت من أنبائه التى طافت بأحلام مريض أخبره بطول العمر ، فما هى الا أيام ثلاثة حتى ودع الرجل الحياة ، وراحت أنباؤه الكذوب تشهد على أنه لم يكن صادقا فى نبأ أبدا ، وذلك الذى ادعى له معرفة ما فى ذاكرته من رغبة فى الوليد والحفدة ، وكان الرجل عقيما ، ودفع به الى طبيب لاجراء جراحة لهذا الغرض ، فما انتهت الجراحة الا والرجل فقد رجولته كاملا ، وليس العقم وحده .

لذا كانت غضبة ابن الجوزى من هؤلاء كبيرة (١) ، وكان عنف ابن تيمية فى مواجهتهم مزلزلا (٢) انه مبتدعون على الشرع متسورون

(١) راجع تلبيس ابليس — ابن الجوزى .
(٢) راجع التصوف ، علم السلوك من مجموع الفتاوى لابن تيمية .

لأوامره كارهون ، ونواهيه مقترفون ، وهم في كل ما يأتون أو يذرون مبتدعون ، انهم كذبة مضلون ، وقد أفاض في فضائحهم وبيان أنواعها المحققون (١) ، وكشف زيغها العلماء العاملون (٢) وما الله بغافل عما يعملون ·

شرعوا لأخوانهم من الدين مالم يأذن به الله ، وسنوا لهم مالم يقم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوهم التخلق بما يعيش في أفئدة السوقة ، ويتباد له الأفاكون ، حتى كان الاختلاط غير المشروع عادة ، والرقص والاهتزاز والمبيت في العراء للرجال والنساء مكرمة ، وهكذا أحدثوا بدعا لم تقف عند حد معين ·

لقد تعاملوا مع البخور والورق المحروق ، والأرواح الأرضية ـ كما يسمونها ـ وأوهموا العامة والسذج ، وحاولوا الدخول الى قلوب أصحاب الثقافة الهامشية ، وكل ذلك وغيره من البدع التي تحتاج جهود الكثيرين من العلماء حتى تجتث من جذورها ، وتباد عن آخرها ، والله المستعان على ما تصفون ·

---

(١) فضائح الصوفية ·
(٢) فضائح الباطنية ـ للامام الغزالي ·

(٨) اختلاق الرؤى والتهويل فيها :

الصوفى الحق يقر بالحديث الشريف " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة " ولذا فهو لايحاول الكذب فى الرؤيا ، ولايفتعل رؤيا من عنده حتى لايحرم الرؤيا الصحيحة التى تمثل الهاما للشخص يتحقق له فى منامه ، لذا تراهم يلتزمون آداب الرؤى فلايتحدثون الا بما يقع لهم من غير زيادة عليه أو نقصان منه ، كما أنهم لايطلبون التعبير عنها الا ممن هو أهل لها .

اما المنتسبون للصوفية فلم يقفوا عند حد الأحلام المجردة ، والتعبير عن الرؤى المقصوصة عليهم ، وانما بدأوا عملية كبيرة عماد هذا التطوع باختلاق رؤى كاذبة من عندياتهم حتى صارت من سماتهم المميزة لهم ، بل قد تبلغ تلك الرؤى منهم مبلغ الاختلاق والتهويل ، واضافة زوائد لايمكن قبولها على وجه صحيح .

فربما يطلب من أحدهم صلاة الاستخارة لشئ معين ويكون طالب الحاجة قد وثق فى امكانيات هؤلاء المنتسبين فما أن يبلغ الأمر فى صدره حتى يعبأ نفسه بصلاة مطلوبه ، وقد يؤديها من غير وضوء ، ودون أن ينتهى منها تحدثه نفسه باختلاق نتائج

استقرأها فى وجه طالب صلاة الاستخارة ، أو يكون من قبيل الفراسات البدنية ، فيتطوع بتشكيل رؤيا خاصة تتناسب مع شخص طالب الحاجة نفسه .

وكم انبأتنا حوادث الدهر عن هذه الرؤى المزعومة ومنها ماحكاه أحد أولئك المنتسبين ، كانت له عند وكيل الأزهر الأسبق حاجة ، وابن عم الوكيل من أهل الفضل والعلم والنور ، بل هو صوفى ملتزم ، ابتلاه الله بمرض حبس به صوته الى الحد الذى لازمه حتى لقى ربه - جل علاه - راضيا بما قسم له المولى الكريم دون أن يثير ضجة ، أو ينال من هدوء أهله وذويه .

وفى ظل أزمته الشديدة ، جاء المنتسب الى وكيل الأزهر وأخبره أنه رأى فى منامه رؤيا عظيمة مؤداها : أن الشيخ المريض عاد صحيحا كما كان ، وأنه يزيح الظلام بكلتا يديه من اتجاهين ، وحتى يلبس رؤياه ثوب الصدق وهى كذب أقسم بالله أنه صادق فيما رأى .

بيد أن تقارير الأطباء المعالجين للشيخ - رحمه الله - أكدوا أن الظروف الصحية تسير فى غير الاتجاه المنشود ، بل أن

الآلام التى يعانى منها الشيخ سوف تزداد حدة وضراوة ، وحاول أحد الحاضرين ازابة هذا الجليد العلمى بالرؤى الروحانية التى رآها الناس للشيخ حتى يدخل الاطمئنان ، ويتسلل بصيص من الأمل الى صدور الأطباء المعالجين .

ومن المفارقات العجيبة أن هذا المنتسب حضر لزيارة الشيخ وكان جمع من الأطباء فى مرحلة متقدمة من اعداد التقرير العلمى عن الحالة ذاتها ، الا أن الصوفى المدعى ابتدر الأطباء بقوله :

اتركوا علمكم الدنيوى فالعلم الربانى أخبرنى أن الشيخ سيبرأ من علته ، والظروف لصالحه ، والأدوية التى تعطونه اياها تمثل عائقا فى تقدم العلاج ، فسأله احد الأطباء الحاضرين قائلا :

— هل أنت صاحب الرؤيا ؟ أم أن أحداً رآها وأنت تعبر عنها ؟

— أقسم بالله أنى الذى رأيتها ، ولى رؤى مجربة ؟!

— لعلك هجعت الى فراشك وأنت مشغول بظروف الشيخ الصحية فترجمت مشاعرك النبيلة ، ما تأمله للشيخ الكبير !!

— لا : أقسم أنى رأيتها فى منامى ، ولم يكن الشيخ قد دار بخلدى فى اليقظة أو فى النوم من شهور طوال !!

— بعد كَمْ أسبوع نتوقع شفاء الشيخ حسب ما تدعيه من رؤيا ؟

— لن تطول المدة عن ثلاثة أيام من الآن !!

والغريب أن الحالة اشتدت بالشيخ المريض ، ووصلت الى الظروف غير المحببة صحيا ، وبخاصة حينما وصل المرض جسم المخ وما هي الا فترة قليلة لاتجاوز شهرا ، حتى انتقل الشيخ الى جوار ربه ، ولم تكن حالته الصحية قد تحسنت أبدا .

ولم يكن المنتسب الا ضالا ، أوهم الأبرياء برؤياه المزعومة التي تناقلها أحباب الشيخ ومريدوه آنها ، على أن صاحبها ولي وأنه لايكذب ، بل قد تهيأت الصدور ، وزفرت النفوس ، وراحت ترقب الأمل البعيد مع اطلالة كل شمس للأيام الثلاثة ، وتودع مع الغروب لكنها فوجئت بالحقيقة التي أفصحت عن نفسها وان المنتسب ولي للشيطان وليس وليا للرحمن ، ولو كان على صدق ما كذب في رؤياه ولا ادعى ما لم يره في منامه .

بل اختلف الناس في صاحب الرؤيا وقوله وسلوكه ، وكل أدلى فيه بدلو ، وكان الواجب * على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام ومنها الرؤيا وأما اذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق

قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول هذا خالف الشرع" (١) ٠

وصاحب الرؤيا المختلقة لايبحث عن قبول الناس لها ، وتصديقهم بها من عدمه، ولذا فان سقوطه بين الناس يكون مروعا ، انه لايكذب فى رؤياه فقط حتى يتوب ، بل هو على استعداد لتكرار هذا الموقف ، والكذب فيه من كل النواحى ٠

انه اشبه ما يكون بصاحب محلات أحذية ، يفصل رؤياه للسذج حسب أمزجتهم وما يتناسب مع مطالبهم الشخصية ويشبع رغباتهم الطموح ، انه يتقلب معهم تقلب المزاج وهو قدير على اختلاق الرؤى والتهويل فيها دون استعصاء ، بل هو يدرب نفسه ويوطنها على النجاح أيا كان وجهة هذا النجاح ٠

فاذا أقبل على طالب العلم قص عليه أنه رأى له فيما يرى النائم الخير الكثير ، فسوف ينجح رغم أنه لم يذاكر ، وأن أعلى الدرجات ستنحنى بجلالها لاسمه وقلمه ، فاذا سأله التلميذ عن سبب ذلك جاء جوابه : انها رؤياى الصادقة التى هى جزء من ستة وأربعين

---

(١) الامام ابن تيمية / التصوف ص ٢٠٤ مجموع الفتاوى م ١١

جزءًا من النبوة ، بينما هى فى الحقيقة رؤيا كذوب لم يتق الله فيما قصه ، أو يرحم عباد الله مما أزلهم فيه .

واذا تلاقى مع عقيم أخبره الأطباء بأن ظروفه الطبيعية يتلاشى فيها أمل أن يصبح أبا ، أو تصير أما طبيعية ، تجد المنتسب يغرقه فى أحلامه ، ويوقعه فى رؤياه ومنامه ، حتى ربما قص عليه أنه رأى له رؤيا كان فيها واضعا يديه على كتفى غلامين كأبناء الملوك ، بل وأنه — أى المنتسب — سأل صاحب الغلامين أبناء من هؤلاء ؟

— أنهما ابناى ، وقد رزقت بهما مع بلوغى من الكبر عتيا .

— وهل لهما أخوة ؟

— نعم : ان ظهرى فتق عن داخله فاذا بى أنجب بنين وبنات يزيدون على العشرة .

— هل هم بنات أم أولاد .

— الحمد لله رزقت بالأثنين على كبر .

وهكذا يفرح العقيم لرؤيا المنتسب التى فصلها لتوه كثوب خلق جمع أطرافه من كل داهية ، وما درى أنه ثوب بلى لاينفع الا الغبى وأنه ضلال مبين لايرتضى به الا العيي .

كما أن بعض هذه الرؤى المختلفة ، قد تحمل الفأل الحسن ، وربما نذير شؤم ٠

خذ مثالا :

قص أحد المنتسبين : أن مريدا حاوره بشأن سوء عشرة زوجه له ، وأن المريد يريد الانفصال عنها تفاديا لسوء أخلاقها ، فكان رد الشيخ سريعا : لقد رأيت فى منامى أنك تطلقها ، وأنها أغلظت لك القول فضربتها بيد قوية ، ومازلت تضربها حتى انكشف شعر رأسها ، وبالتالى فما رأيته أنا جئت تفسره لى ، ولأنى من أهل الخطوة ، ومن رجال الحظوة ، وأصحاب السر المكشوف فلم أحدثك به حتى تقوله أنت ٠

ويكذب هذا المنتسب ورؤياه الكذوب أن الرؤيا لاتكون الا حسنة وأنها لاتكون الا بخير ، اذ كيف تكون رؤيا صالحة وفيها تخريب بيوت وتدمير أسر ، وسرابات وخيالات وأحلام ، مما لايقوم الا فى حنايا الأضغاث ، وأحضان الكوابيس ٠

والرؤيا الحسنة لاتكون الا بخير ، ومن الخير التأليف بين قلوب أهل الأسرة الواحدة ، بين الرجل وزوجه ، أما التفرقة بين المرء

وأهله ، والوالد وبنيه فلا أحسبها الا من قبيل الكر والفر لقــوى النفس المقهورة ، التى تعجز عن تلبية احتياجاتها الفعلية فى ظل تواجد قوى لقوى النفس الطبيعية ، والمنتسب ليس الا مقهــــور الجوانح مهدر الكرامة .

وكثيرا ما اختلق المنتسبون رؤى ، وصنعوا من ضلالاتهم احلاما ، حتى كانت نتائجها من الجسامة والخطر الفادح مالايمكن قبولـه ، أو التسليم به ، غير أنهم فى كل ما يفعلون كانوا يحملون لافتــة ضالة ظاهرها التسليم وباطنها الافتراء والتأويل ، وهى أن كــل ما يجرى فى الكون بأمر الله .

ناهيك عن المعنى المراد فكل شيء فى الكون يجرى بأمر الله ، لكن أليســت هناك أسباب ومسببات جعلها الله متلاحقة تجــرى بأمره ؟ فاذا لامهم الناس على رؤياهم الكذوب ، وأخبارهم الضالة تزرعوا بالصبر ، وحبسوا أنفسهم على مالامهم الناس فيه ، مع أنـه مما يغضب الله تعالى .

من ثم كان الامام ابن تيمية عنيفا فى مواجهتهم والرد عليهـم ، وبخاصة حين فرق بين نوعى السلام ، وأن منهما مقبول والآخــر

مردود ، لذا جعل الملام نوعين :

- النوع الأول : الملام على فعل ما يكرهه الله - تعالى - أو ترك ما أحبه الله - تعالى - فهو لوم يحق بحق ، وليس من المحمود الصبر على الملام ، بل الرجوع الى الخير ، خير من التمادى فى الباطل ، وهو أمر مشروع ، والله يفرح بتوبة عبده الصادقة .

- النوع الثانى : الملام على فعل ما يبغضه الله ورسوله مع الصبر عليه وعدم الرجوع المباشر عنه ، وهو منهى عنه شرعا ، لأنه محاربة لله ورسوله وتكذيب للشريعة الغراء .

" وبهذا يحصل الفرق بين الملامة على ما يحبه الله ورسوله ، ولايخافون لومة لائم فى ذلك ، وبين الملامتية الذين يفعلون ما يبغض الله ورسوله ، ويصبرون على الملام فى ذلك" (١)

ولذا فان أغلب المنتسبين الى الصوفية لايعرفون شيئا عن التصوف ، انها مجرد لافتات كبيرة خاوية من المضامين والمعانى ، مجرد انتسابات فقط لقوم صالحين ، مما حدا بالسابقين لتناولها وبيان المبادئ والأسس التى تقوم عليها ويتغنى بها اتباعها .

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية / التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص ٤٥

وكان التعرض لتلك الفرق المنتسبة ، من خلال رؤية موضوعية بعيدة عن التعصب لهم أو الكسر عليهم، من ثم حُكِم على الملامتية وأمثالها بأنها عامة فى نظرتها الى النفس الانسانية ، وأنها مجرد " نظرة رجال متشائمين تحمل طابعا غير اسلامى " (١) .

ثم إنى آخذ بذلك المنتسب الى نفسه أسالها :

هب أنه اختلق رؤى ، وكذب فيها ، أليس السبيل الى التوبة منها هو الاعتراف لمن غُرر به بأنها كانت مجرد أكاذيب جرى بها اللسان فى غيبة من العقل والجنان ؟

ثم ان التوبة عن هذه الضلالات أمر مشروع ، وهى تَجُب ما قبلها متى كانت نصوحا ، وتم فيها الاقلاع ، اذ المعروف أن : الاسلام يَجُبّ ما قبله من أنواع الكفر ، والتوبة النصوح تجب ما قبلها من الخطايا .

من ثم انكشف أمر المنتسب ، وأنه ليس صوفيا ، وانما هو طفيلى يقع به بطنه عند موائد كل قوم ، أو فضولى يسوقه هواه المريض الى تسمع الأخبار ولو كانت مصادرها عطن البرك ، أو ثالثة الأثافى ، أو مخلفات الفكر العفن ، والصوفى الحق يعلو على

---

(١) د / أبو العلا عفيفى / رسالة الملامتية والصوفية ص ٤٤

هذه ، ويرفض تلك .

وربما تسألنى : لماذا يقع المنتسب بين هذه السقطات . وتكون له تلك الشطحات ؟

- والجواب : أنه غير مثقف دينى ، انه مجرد ملقن ، أو مقلد لايدرى عاقبة مايقوم به ، كل ما فى الأمر أنه رأى شيخه صنع ذلك فقلده ، لأنه كم تردد على أسماعه " كن مع شيخك كالميت بين يدى مغسله " وهو يطالب مريديه أن يكونوا معه كذلك ويظل الأمر دواليك يتناقله خلف عن سلف .

ويبدو هنك الأمر حين تنظر للمنتسب متفحصا موقفه من الاله الأعظم - جل علاه - ، انه يتصوره مشخصا لايمكنه التعرف عليه الا من خلال النفس الانسانية ، التى تحقق له فى داخله أمرا غريبا ، يقوم على انه ماجه هو فى النور الأقدس .

وحينئذ يمكنه " كشف ماوراء الحجب السميكه ، واضاءة ما فى البرازخ الكثيفة ، من أرواح علوية هبطت الى تلك الأجسام فغشاها الظلام ، وأحاط بها القتام ردحا من الزمن " (١) .

---

(١) الدكتور / محمد غلاب - التصوف المقارن ص ٢٠

وهكذا يكبر المنتسب وفى صدره قواعد يحسبها الظمآن مـــاء ، وماهى الا كبوات ، وهل هناك كبوة أكبر من أن يتصور الـــذات الالهية مجسمة مشخصة يمكنه أن يغافلها لحظة من الزمان ، حتى يفعل ما تدعوه اليه نفسه ومنها الكذب فى الرؤى ، والاختـــلاق فى الأحلام ، ثم يعود بعد المغافلة سيرته الأولى .

والذى يجب الالتفات اليه : هو أن مدعى الصوفية المنتســبين الى التصوف لايعرفون :

— معنى التصـــــوف .

— ماهى واجبات الصوفى ؟

— من هو الصـــــوفى ؟

— لماذا كان صوفيـــا ؟

— ما الغاية من التصـوف ؟

ان مخيلته — كمنتسب للصوفية — قد ألهمته مشاعر كاذبة منها : أن التصوف مجرد عباءة مزركشة ، وعمامة تتلون مع الظروف ، وعصـــا غليظة سواء من الخيرزان ، أو السلطان ، ودابة قوية ، وزمبيـــل تجمع فيه العوائد ، ومخازن تكمن بين أركانها الزكوات ، من ثــم

كانت الرؤى المختلفة احدى السبل لجمع هذه ، والحصول على تلك .

ولا أعدو الحقيقة أن أخبرتك نبأ عايشته فترة طويلة ، فكم من امرأة حسبت الأيام منتظرة اهلال ذلك المنتسب فى جولاته السنوية أو نصفها ، حتى يخبرها بما رآه من مستقبل لأولادها وكيفية سير حياتها مع زوجها ، واليك المثال :

= أسرة ثرية كان لها فى ماضيها حول وطول ، وكان لها منتسب معين يأتى كل عام مرتين مع جنى المحاصيل الحقلية ، يجلونه فى أنفسهم وينزلونه أعلى البيت ، ثم يغدقون عليه من الأموال والعطايا ، بل الأكثر من ذلك أن بناتهم اللاتى كن يحتجبن عن عيون طالبى الزواج للعفاف وكن يخرجن له ، يجلسن معه يستمعن الى رؤياه التى اختزنها فى عقله الباطن يقص عليهن ما فى أمور المستقبل حسب ما يراه هو .

والأكثر من هذا أنهم لايزوجون البنات الا اذا استشير ذلك المغفال الذى ارتدى ثوب التقوى وليس بتقى ، انه لايعرف من أين تسطع الشمس ؟ ولا فى أى مكان تغيب ؟ بل كان يظن أن

الشمس تغرب خائفة من الليل الطويل .

وكان رب البيت المكرام سليل العراقة ، تليد الوقار ، يناديه بلقب : عمى ، ويقدمه للناس على أنه عمه ، وكان يسر بهذا التبجيل ويفرح بهذا الاجلال .

وذات مرة — وكنت صبيا — سألت زوج صاحب البيت : — حيث كانت القرابة تسمح لى بدخول هذا البيت العامر وسؤال أصحابه عما يعن لى — عن هذا العم ؟ ومن أين جاء ؟ فكان الجواب:

— أنه والده فى الطريق يعنى عمه .

— ما معنى والده فى الطريق أو عمه ؟

— الطريق هو : طريق الله ، وعمه : لأنه اخذ عليه العهد .

— ما معنى العهد ؟

— يابنى أنت صغير ، وأسئلتك كبيرة ولاتعترض ، لأن الشيخ صاحب كرامات كثيرة .

وظلت تحكى لى عن كرامات لم تر واحدة منها ، كل ما فى الأمر أنها أقوال تم نقلها اليها ، ونسبت فى أغلبها الى أهل الثقة حتى تحوز فى الناس قبولا ، وتظفر لديهم بقربان .

وأذكر أننى كنت أصاب بشىء من الفزع كلما تذكرت ما قالته لى زوج صاحب الدار حتى أن الخوف من هذا الشيخ كان يتسلل الىّ فى ضحوة الشمس وغيبة القمر ، حتى جاءت ليلة أنست فيها بأصحاب البيت واستغرقت فى مراقبة هذا الضيف الذى يُنفق عليه ببذخ ، ويستقبل كأنه بطل مغوار يحمل فى يده اليمنى سيف صلاح الدين ، وفى اليسرى سوط عمر بن الخطاب .

وهالنى الموقف ، فما رأيت منه الا آكالاً لكل أنواع الطعام مع شهية كبيرة تجاوز شهية النهيم للشراب ، كأنه لم يتناول طعاما منذ ولد ، انه لايفرق بين ألوان الطعام ، ولاكيف يتناولها ، توشك يداه أن تصطدما حاملة الطعام الى ذلك الفم الذى حسبته فم بعير .

أما الشراب فقد كان يتعامل معه كبعير عاش فى الصحراء أياما طوالا ، ثم التدخين الذى لم يتوقف عنه طيلة الليل ، وصاحب الدار يجلس فى خدمته ، بل والندامى الذين يحرصون على قضاء بعض الوقت فى ضيافة صاحب الدار .

وظل الفتية ومعهم ذلك المنتسب يغنون ويضحكون ويشربون فيسكرون حتى اذا هلت بشاير الفجر ، ولاحت فى الأفق معالم يوم

جديد ، وهب المؤذن الى ظهر المسجد لينادى : الله أكبر ، فاذا بالشيخ المنتسب يهرع للنوم ، ولم يصل عشاء ، ولم يصل فجرا ولم يتوضأ ، بل أغلق باب الغرفة على نفسه وقال مفاخرا : دعونى فانى ذاهب لصلاة الفجر مع الامام الحسين . وراح الرجل يغط فى نوم عميق لم يستيقظ الا مع آذان الظهر ، حتى اذا انتهى المؤذن من الآذان وجدت الشيخ فزعا يقول بعبارة فيها شىء من السكرة وكثير من العنف :

" لولا أنى ضيف عندكم لا أرغب فى اثارة مشاكل لكم لطلبت من خدامى الأرضيين حبس صوت هذا المؤذن وهو على ظهر المسجد أو قطع نفسه ، لقد رأيتنى الليلة فى المنام وأنا أطارد شيطانا وقد تحقق الحلم فى ذلك المؤذن .

فأنظر اليه وهو الكذوب كيف يصف مؤذنا ينادى للصلاة ، بل كيف يهدد ويتوعد ، ثم ما هى الجريمة التى أرتكبها المؤذن حتى يعاقب بحبس الصوت ، أو قطع النفس ، أو الوصف بأنه شيطان ، ولو علم ذلك المغفال أن الحديث الشريف نص على " أن المؤذنين أطول الناس أعناقا يوم القيامة " لعرف أنه قد هوى من علٍ ، وسقط

فى جب عميق وقادته اليه نفس لئيمة واتجه فى طريق خاسر ، ولم يتبع الا شيطانا كان فى النهاية هو القرين ، والله عز وجل قال " وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ " (١) .

(٩) الغطرسة والتعالى (٢) :

الصوفى الحق يعرف بالتواضع ، لأنه يكره الكبر وقد وقر فى نفسه قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – " من تواضع لله رفعه ومن تكبر أزله وخفضه " ، كما أن التعالى من صفات الله – جل علاه – أنه المتعالى عن كافة الخلائق بقدرته وعظمته ، وسلطانه وارادته " عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ " (٣) .

والغطرسة من صفات المطرودين من رحمات الله ، الذين هتف بهم أبليس من أعماقه فتنادوا اليه بكل مشاعرهم ، واجتمعوا معه حول كل منتدى ، وقد جاء الحديث القدسى كاشفا موقفهم ، مبينا أن العزة المتفردة لاتكون الا لله ، فقد ورد الحديث القدسى :

---

(١) سورة الزخرف الآية :

(٢) الغطرسة : هى التطاول والتكبر على الأقران " المعجم الوجيز / باب الغين ص ٤٥١ .

(٣) سورة الرعد الآية رقم : ٩

" العـزة أزارى ، والكبريـاء ردائى ، فمن نازعنى واحدا منهمـا القيته فى النار ولا أبالى " (١) .

والصوفى الحق يدرك أن الغطرسة والشموخ بالأنوف ، والاحتكام الى الأحساب ، والاحتماء بالأنساب أمر مرفوض شرعا ، ممقوت عرفـا ، وقد بين الحديث الشريف هذه الأعماق فى قوله صلى الله عليه وسلـم : " ان من أقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، أحاسـنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفـون " (٢) .

كما أن التواضع سمة أهل التقوى ، من ثم تراهم بين أهل الله ، وتعرفهم بسيماهم من أثر السجود ، لايسألون الناس الحافا " انهـم يدركون أن التواضع يرفعهم ، وأن التمايز لايكون الا فى الاجتهـاد والطاعة ، من ثم كانوا كالريح المرسلة ، رهبانا بالليل فرسانا بالنهار حتى فتح الله عليهم ما أغلق على غيرهم .

أما المنتسب الى الصوفية فما أشقاه ، انه يظن فى نفسه القرب من الله ، بل ربما زعم لنفسه القرب الشديد ، من غير أن تكون لديـه

---

(١) الاتحاف السنية فى الأحاديث القدسية .

(٢) حديث صـحيح .

مقومات ذلك القرب ، من ثم تراه ينظر الى الناس بعين بعيدة عن الواقع الموضوعي ، ويقفز على اكتاف الأحداث كأنه قرد ممسوخ ، يتخيل نفسه أعلى من خلق الله تدينا ، وأكثر منهم صلاة ، وزكاة ، وحجا ، وصياما ٠

بيد أنه يتعامل مع الآخرين على أنه الأعلى وهم الأدنيون ، وهو الأغنى وهم الأفقرون ، وهو الأكثر وجاهة وهم المقبحون ، لذا تراه يقبل عليهم اقبال كاره ، ويدبر عنهم ادبار مفزوع ، يود لو أنه كان الحي الوحيد وهم الأموات ، يصيخ السمع عنهم ، ويتفادى النظر اليهم ، ويتأفف من مقابلة خلق الله ، والجلوس اليهم والاجتماع بهم والنصح اليهم ٠

وهؤلاء المنتسبون لهم سلف ، وفيهم ألف خلف ، وكم أنبأت احداث التاريخ أن مشركي مكة استنكفوا أن يقف الفقراء بجوار الأغنياء ، أو ينعم الفقراء بعبادة يقوم بها الأغنياء ، وكم دفعت بهم أهواؤهم اللئيمة ، الى القفز فوق تعاليم الله حتى أن نفوسهم المريضة تعبأت بالشعور العدائي ، فلبثت أثواب الغطرسة ، والتحفت أغطية التعالي ٠

وكان ذلك مدعاة في نفوسهم للمطالبة بأن يترك الرسول الفقراء وينحاز للأغنياء ، لأنهم كانوا يكرهون مكاتفتهم العبادة ، ومؤازرتهم في الصلاة ، حتى قالوا لنبينا — صلى الله عليه وسلم — أجعل لنا يوما ولهم يوم ، حتى لاتكون عبادتنا وعباداتهم على قدم سواء فأنزل الله قوله تعالى " وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ " (١) .

" روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن مسعود — رضي الله عنه — قال : مر الملأ من قريش على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يامحمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ أطردهم فلعلك ان طردتهم نتبعك ، فنزلت هذه الآية " (٢) .

اذًا المشركون نفخ فيهم ابليس ، حتى زعموا أنهم الأقوياء وغيرهم الضعفاء ، انهم يشتمون من الفقراء رائحة لاتتناسب معهم ؟

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٢
(٢) الامام ابن كثير / تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ١٣٤

لأن الانسان الذى تشعب فى أعماقهم هو قرين الشيطان وليس هداية الرحمن ، لذا كانت تعبيراتهم خشنة ، وأنوفهم غير كريمة .

بيد أن فريقا منهم ألحوا على هذا المطلب حتى قالوا : " يارسول الله : لو جلست فى صدر المسجد وأبعدت عنا هؤلاء ، ورائحة جبابهم — وكانت عليهم جبب من صوف ولها رائحة كريهة لمداومة لبسها لعدم غيرها — لجالسناك واخذنا عنك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما أنا بطارد المؤمنين !!

ولم يقف هذا الخيال الماجن والتعالى المصطنع عند هذا الحد ، بل كشفوا أنفسهم وعروا ايمانهم الزائف فقالوا : " انا نحب أن تجعل لنا مجلسا تعرف به العرب فضلنا ، فان وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا مع هؤلاء الأَعْبُد ، فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت" .

ويبدو أن النفس اللئيمة دائما تطمع مورد السوء ، وتتطلع اليه ، حتى تخيلوا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد يجيبهم الى طلبهم المجحف ، وأرادوا الاستيثاق من هذا الطلب فقالوا " فاكتب

لنا عليك بذلك كتابا ، فنزل قول الله تعالى : " ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى .. الآية" (١) .

والمتأمل فى الآية الكريمة يجد فيها حكما عادلا ، وقاعدة عامة ، حيث جاءت توجيها لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى لايطرد الضعفاء من مجلسه تأليفا لقلوب الأقوياء لينال الاسلام بقوتهم قوة ، لأن الله تعالى بيّن لرسوله — صلى الله عليه وسلم — " أن القوة فى الايمان والعمل الصالح ، وأن هؤلاء الضعفاء من المؤمنين قد وصفهم خالقهم بأنهم يتضرعون اليه فى كل أوقاتهم ، ولايقصدون بعباداتهم الا وجه الله ، فكيف يطردون عن مجالس الخير" (٢) .

والمنتسب للصوفية الذى يتعالى على المسلمين ، ويترفع عن الحديث معهم ، وينفخ من نفسه اللئيمة نفخة سوء على أصحاب الوجوه الكريمة لايكون أبدا من أهل التقوى ، ولايمكن وصفه الا بأنه قرين الشيطان .

---

(١) العلامة احمد الصاوى / حاشية العلامة الصاوى على تفسير الجلالين م ٢ ص ١٧ ط دار الفكر ببيروت .

(٢) الدكتور/ احمد السيد الكومى ، الدكتور / محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام ص ١٠٩ طبعة ١٩٧٢م .

وهكذا كان التوجيه القرآنى الحكيم قاطعا آمال هؤلاء الطغام راجما صنيع أولئك الطغاة ، دافعا بأمانيهم الكاذبة الى التعلة المرفوضة ، والشعوبية القاتلة ، والنظرة السوداء ، اذ الفرق لايكون بالحسب او النسب ، ولاتدرك الجنة بالمال والسلطان ولادخل للألوان أو البلدان ، يبدو ذلك فى قوله - صلى الله عليه وسلم - " ان الله لاينظر الى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم " (١) .

وقوله - صلى الله عليه وسلم - " لافضل لعربى على اعجمى ولا لأبيض على أسود ، الا بالتقوى والعمل الصالح " ثم تلا قول الله تعالى" إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (٢) .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية زاخرة بهذه المعانى الجليلة ، وثرية بتلك الأمور التى تسقط أقنعة التعالى ، وتثبت زيف الغطرسة ، وتأخذ المؤمن بالله رب العالمين الى رحابة الدين الاسلامى ، الدين الحق الذى لم يفرق بين الناس الا بالتقوى والعمل الصالح .

---

(١) حديث صحيح .
(٢) سورة الحجرات الآية رقم ١٢

ولما كان " التصوف الاسلامى هو توجه بالقلب والروح الى بارىء النسم ، والجهاد فى سبيل ذلك ، والتوجه بالمقامات والأحوال حتى يشرق صبح الحقيقة ، ويجلىّ الى البصيرة سر الخليقة " (١) فان غيره لايمكن نسبته اليه ، وهو الفرق بين الصوفى الحق والمنتسب اليهم الذين كم أعلنوا أنهم منه براء .

وربما تسألنى ما الدليل على أن الغطرسة والتعالى من سمات هؤلاء المنتسبين ، ألا يمكن أن يكون التعالى من السفاسف هو طريقهم ؟

والجواب : أن الدليل على غطرستهم بيّن فى عدم سماعهم نصح الناصح مهما كان أمينا، وعدم استجابتهم لوعظ الواعظ مهما كان عالما ، وتمردهم على الشرع مهما كانت أدلته قطعية ، ونصوصه محكمة ، انهم لايسمعون الا صدى الأصوات المخزونة فى ضمائرهم ، والأحكام التى تنطلق من أهوائهم ، وتعيش فى مناحى أفئدتهم .

كما أن لغة الأمر الخارجة من أفواههم موجهة الى أتباعهم ، فى شىء من الحدة والصرامة وعدم قبول الرأى الآخر ، والتمزيق

---

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفى / التصوف الاسلامى الخالص ص ٢٠٨ ط نهضة مصر سنة ١٩٧٩م .

بين النصوص الدينية وطرق فهمها ، كل هذه وأمثالها من أقرب الأدلة على أن القوم تعيش الغطرسة فى أعماقهم ، ويقود هم التعالى البغيض من أعلى هام لهم .

وربما يداخل آحاد الناس سؤال شبه برىء يقوم على :

أن التعالى والغطرسة من قبل المتصوفة أمر تفرضه طبيعة الحياة التى يعيشونها ، ولو لم تكن الغطرسة يؤازرها التعالى من سماتهم لسقطت حصونهم ؟

والجواب : ان هذا السؤال وأمثاله مما يعشش فى عقول خربة ، لأن الصوفى الحق يقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الرسول الكريم وهو أشرف الخلق فى يوم ما متكبرا أو متجبرا بل انه — صلى الله عليه وسلم — علمه ربه كيف ينزل الخصوم منزلته استدراجا لهم واسقاطا لما يزعمونه علوا وارتفاعا ، وكان هذا التوجيه الالهى للرسول — صلى الله عليه وسلم — حصن الأمان له — صلى الله عليه وسلم — ولمن سار على نهجه .

ألم يقل الله لرسوله — صلى الله عليه وسلم — وهو يحاور المشركين " قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ الله وانا أو اياكم

لَعَلَى هُدَىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (١) ، فانظر كيف جعل القرآن الكريم الرسول الكريم فريقا ، وجعل المشركين فريقا آخر ، وأن احد الفريقين لابد واقع فى الهداية ، وثانيهما نصيبه الضلال المبين ، وهل أبلغ من هذا بلاغ ، أو أوضح من هذا تصريح ؟ .

كما أن الرسول الكريم —صلى الله عليه وسلم — جعله الله قدوة ، وفيه الأسوة مالان لظالم قط ، وما حنى هاما الا لله ، ومع هذا كان أقرب الناس الى الفقراء ، وأرحم الناس بالأيتام ، وأشد على أهل الباطل ، فهل لنا فى رسول الله الأسوة وفيه لأولئك القدوة ؟ أم أننا نرفع يدينا ملوحين بأننا أمة الاسلام وهم — المنتسبون للصوفية — يرفعون أصواتهم كالبوم فى حديقة خربة لم يبق فيها الا الصوت الأجش ، والنغم الحزين .

أم يرتدى المنتسبون أثواب البطولة الزائفة ، وأقنعة الايمان الضالة ، ويزعمون وجود أرصدة من العقيدة والتوحيد ولاتجد غطاء ايمانيا لها عند رب العالمين ، أراك ترفع صوتك قَرُبَ او بَعُدَ بأن أهل التقوى هم أهل المغفرة ، وأهل الذكر هم اهل الشكر ، وأهل التسامح

---

(١)سورة سبأ الآية رقم : ٢٤

هم أهل الغفران ، وهؤلاء جميعا من عباد الرحمن ، أما المنتسبون فليس لهم فيما مضى مكان !!

وحتما سيأتي الوقت الذي تغطيهم فيه الندامة ، ويحيط بهم العذاب ، وتعلق الأغلال في أعناقهم ، ثم يسحبون الى السعير ، وذلك لأنهم اتخذوا أعمالهم الخاسرة مطايا للآخرة ، والجزاء من جنس العمل ، فتبارك الله رب العالمين .

(١٠) دوام الاعلان عن كرامات وهمية :

الصوفي الحق تأتي اليه الكرامات طواعية ، انه صاحب كرامة لقد عاش ومايزال في ثوب التقوى يمارسه علما وعملا ، حتى صارت له الولاية التي تمثل حصنا له من غضب الله ، انه في معية ربه يتقلب كما شاء له ربه القائل " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ "(1)

وهو في ذات الوقت تجري عليه الكرامات ، وتأتيه خوارق العادات ، ومع هذا يستحي من ذكرها ، أو ذكر جريانها عليه حتى قيل أن أهل الكرامة يستحيون من ذكرها كما تستحي المرأة

---

(1) سورة يونس الآيات رقم : ٦٢/٦٤

من حيضها ، لأن الصوفي الحق ولي من أولياء الله ، تولى اللـــه بالطاعة وتولاه الله بالكرامة ، فهو محب لله ، ومحبوب من الله ، وهل بين المحب والمحبوب فواصل ؟

المعروف أنه " اذا كان القلب مستغرقا في نور معرفة اللــه ، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله ، وان سمع ، سمع آيات الله ، وان نطق نطق بالثناء على الله ، وان تحرك تحرك في خدمة الله ، وان اجتهد في طاعة الله ، فهنالك يكون في غاية القرب من الله وحينئذ يكـــون وليا " (١) .

والصوفي الحق يشعر دائما بوجود علاقة تشده الى خالقـه ، وتقوده الى نوره ، ولذلك كان وليا ، وقد عرف الولي بأنه " من كـــان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ، ويكون آتيا بالأعمـــال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة ، واليه الاشارة بقوله تعالـــى " ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ " (٢) .

والصوفي الحق عالم عامل بعلمه فاذا لم يكن عالما فلن يكـــون وليا ، لأن شرط الولي أن يكون محفوظا من الجهل ، كما أن شـــرط

(١) الامام سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل / الفتوحـــات الالهية جـ ٢ صـ ٣٥٩ دار المنار للنشر والتوزيع .
(٢) المصدر السابق نفسه .

النبى أن يكون معصوما من الأخطاء ، وبالتالى فكل من كان للشرع عليه اعتراض ، أو هو على الشرع معترض فلا يكون الا مغرورا مخادعا ، شيطانا يمشى بين الناس ، توالت أعماله السيئة ففصلت بين واقعه المعاش وما يدعيه .

أما الولى الحق فهو الذى توالت أفعاله الصالحة موافقة لايمانه الصحيح على وفق أمر الشرع الشريف ، من ثم كانت البشرى للولى فى الدنيا بالرؤى الصالحة ، والرضا بما قسم الله ، والثناء الحسن من الناس ، للأثر القائل " ألسنة الخلق أقلام الحق" .

وربما يدعم ماذهبنا اليه " ماروى عن أبى زر الغفارى رضى الله عنه - قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ، ويحمده الناس عليه ، قال تلك عاجل بشرى المؤمن" (١) .

كما أن ولى الله تأتيه بشريات عدة ، انه يوضع له القبول ، والمحبة من الله حين يحمدونه فى أفعاله الصالحة ، ويذكرونه بثنائه الجميل دون أن يطلب اليهم ذلك ، أما اذا طلب ذلك اليهم فلا شك أنه مذموم ، وأن عمله سيكون عليه وبالا ، لأن ما دفع

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم .

الناس الى حمده ، الا الأجر الذى قد وعدهم به وليس هذا من شأن ولى الله الصوفى الحق .

" قال بعض المحققين اذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه ، وامتلأ نورا ، فيفيض من ذلك النور الذى فى قلبه على وجهه ، فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، فيحبه الناس ويثنوا عليه ، فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه " (١) .

والصوفى الحق تنبعث من داخله أنوار الطمأنينة ، وتجوس فى ديار أفكاره الآخرة ، حتى انها لتكون همه الأول ، وتصير أمله الذى يتناجى بحنينه يقترب من محبوبه الذى أحبه وهو الله رب العالمين ، وكذا فان ولى الله تتنزل عليه ملائك الرحمن منادية ايا ، لاتخافوا فى الدنيا ، ولاتحزنوا فى الآخرة ، بل تهيؤا لبشريات أخر انها الجنة ورؤية رب العالمين ولذا كان الصوفى أكثر الناس تأكيدا على هذا المعنى واقترابا منه .

أما المنتسب فصاحب حظ شر ، لاتقع له كرامة ، بل ربما وقع له الخارق اهانة فحسبه كرامة ، أو وقع استدراجا ، فظنه فراسة ، والمأساة أن المنتسب جاهل حتى بتلك المصطلحات لايعرف معنى

(١) حاشية الجمل / ج ٢ ص ٣٦٠

الكرامة ولا ماهي الفراسة ، بل ان قاموسه وضع فيه هذه المفردات مجردة عن معانيها ، ومن ثم فاذا سألته عن الكرامة لاتجد منه اجابة مقبولة ، وان سألته عن الاهانة ظنها بجهله ديانة ، ما أشبهه بلاعب السيرك ، أو راقص الحلبة ، انه لايجيد الا الزيف والباطل.

وهو يحاول تعويض ما خسره في طريق الطاعة والرضوان ، فيزعم لنفسه كرامات ربما يعجز اللسان عن ذكرها كلها ، بل ربما اكتفى بمطالعتها ، وقد يكون ترديدها اثما مبينا وجناية كبيرة ، وان ذكرت في كتب كثيرة ، وسأضرب لك مثالا :

= يحكى أن الشيخ على المليجي كان صديقا للشيخ عبد العزيز الدريني ، وكانا يتزاوران ، فزار الدريني المليجي ، فما كان من المليجي الا أن ذبح للدريني فرخا فأكله ، وقال الشيخ الدريني : لابد أني أكافئك على استضافتك لي ، فزرني كما زرتك .

ذهب المليجي لزيارة الدريني ، كما اتفقا ، فذبح الدريني للمليجي فرخة ، ونهض الطاهي لها حتى صارت بين مرق ولحم فدخلت امرأة الدريني وعلمت بالأمر فحزنت على الفرخة وأظهرت غضبها على صنيع الدريني ، فما كان من المليجي الا أن قال للفرخة

" هش" فقامت الفرخة تجرى ، وقال لها : يكفينا المرق لاتتشوشى[1] .

ورغم أن هذه الأقصوصة تنقصها حبكتها الفنية وتطور الحدث الفنى ، وسريان الحوار مسرى المولوج النفسى ، الا أنها تفتقد أهم عناصر الكرامة ، ألا وهو الاستحياء من ذكرها وليس الاشاعة لها ، كما أن فى القصة المذكورة احياء الموتى ، بين يدى مدعى الكرامة ، ولم تقع تلك الا لنبى ، فهل قال أحد أن من ذكر القصة أو جرت على لسانه أنه نبى ؟ كلا وما أظنه الا من مدسوسات اليد الغريبة التى استطاعت فى غيبة من الرقابة أن تدخل على المسلمين فى ثقافتهم كل دخيل ، بل وأى دخيل !!

= خذ مثالا آخر :

حكى أن الشيخ عبد العال يرحمه الله — كان صغيرا ، وكان صاحبا للسيد البدوى وكان معهم الشيخ عبد المجيد ، وتورمت عين البدوى فطلب من عبد العال بيضة يضربها على عينه ، ولم يكن مع البدوى مال ، انما كانت بيده جريدة خضراء طلبها عبد العال مقابل البيضة .

---

(1) الشيخ عبد الوهاب الشعرانى / لواقح الأنوار جـ ١ ص ٢٢٤ وهذه القصة أظنها قد دست على الامام الشعرانى .

فذهب عبد العال الى أمه ، وطلب منها بيضة ، وأخبرها أن البدوى أعطاه الجريدة الخضراء مقابل البيضة فأنكرت أم عبد العال هذا الابتياع وقالت لوليدها أرجع ليس في الدار بيض ، ذهب عبد العال الى البدوى وأخبره بما قالت أمه ، فما كان من البدوى الا أن كشف السر ، وقال لعبد العال أذهب الى الصومعة التى تضع أمك فيها البيض فستجدها قد ملأت فأتنى بواحدة منها .

ذهب عبد العال الى الصومعة فوجدها قد ملأت بيضا فأخذ واحدة منها وخرج الى البدوى من غير أن يعلم أمه بما جرى ، بل وصار تلميذا له منذ ذلك اليوم وحاولت أمه صرفه عن البدوى فكانت تقول " يابدوى الشوم علينا " لم يسكت البدوى على تلك الاهانة وقال لولدها : أخبر أمك بالخبر إنك ولدى ، سأله عبد العال : كيف أكون ولدك ؟ كان الجواب ، من يوم قرن الثور ، فما هى قصة قرن الثور ؟

تحكى الكتب التى تذكر هذه الكرامات وأمثالها أن أم عبد العال قد وضعته فى معلف الثور وهو رضيع ، فطأطأ الثور رأسه ليأكل ، فدخل قرنه فى قماط (١) عبد العال ، فشال عبد العال

(١) القماط : الحبل ونحوه يقمط به وسط الجسم ، يقال قمط الشيء قمطا ، شده برباط ، وقمط الثوب ضيق وسطه أو أسفله حتى يلتصق بالجسم وهو هنا خرقة عريضة يلف بها المولود حتى يقوى ظهره / المعجم الوجيز — باب القاف ص ٥١٥ .

على قرنيه ، فهاج الثور ، فلم يقدر أحد على تخليصه منه ، فمد سيدى أحمد البدوى - رضى الله عنه - يده ، وهو بالعراق فخلصه من القرن ، فتذكرت أم عبد العال الواقعة واعتقدته من ذلك اليوم " (١) .

ويبدو لى - ولكل دارس مدقق - شكل الاختلاق والكرامة الوهمية ، لأن عبد المجيد ، وعبد العال كانا بطنطا حسب الرواية نفسها ، وأنهم كانوا قد ولدوا بها ، وأقاموا فيها ، وأن الحادثة التى تحدثوا عنها كانت بطنطا بينما البدوى بالعراق ، فكيف استطاع المؤلف اقناع الدارس بأن يدى البدوى امتدت لعبد العال من العراق الى طنطا ؟

يبدو لى أنها يد كان بامكانها أن تمتد من المحيط الى الخليج ، ومن الشام الى بيت المقدس ، وليتها موجودة الآن فتمتد هى وأمثالها الى بيت المقدس السليب حتى تخلصه من أيدى أعداء الله ، أعداء الدين ، أعداء الانسانية ، مابال هذه القصص حملت الينا تلك الأنباء التى نحن فى غنى عنها ، أما كان الأجدر أن تحمل أنباء امتداد تلك الأيادى الى مفاعل ديمونه فتسلبه خاصية التفجير النووى حتى يأمن المسلمون فى تلك البقعة العزيزة شر هذا الخطر الداهم !!!

(١) الشيخ عبد الوهاب الشعرانى / لواقح الأنوار جـ ٢ ص ٢٠٤

أم أنها أياد قصرت همها على قرنى ثور يتمكن منه أصغر لاعب في سيرك ، وأصغر صبى فى حقل من حقول الفلاحين !!

= مثال آخـــر :

تروى تلك الكتب المولعة بذكر الكرامات أن السيد البدوى - رحمه الله - كان ملثما بلثامين ، وأن الشيخ عبد المجيد - رضى الله عنه - اشتهى يوما أن يرى وجه البدوى فقال عبد المجيد:

" ياسيدى أريد أن أرى وجهك وأعرفه ".

فقال البدوى : ياعبد المجيد كل نظرة برجل .

فقال عبد المجيد : ياسيدى أرنى ولو مت ، فكشف البدوى له اللثام الفوقانى ، فصعق ومات فى الحال " (1) .

ومثل هذه الكرامات التى تذكر في كتب صوفية أو منسوبة الى الصوفية حرى بالقائمين على الأمر أن يقوموا بتنقيتها وحذف المضاف اليها ، فما أظن البدوى - رحمه الله - يرضى بما فيها ، وما أظن الشيخ الشعرانى يرضى بذكرها ، كل ما فى الأمر أن يدا لمحب ولِهٍ ، أو كاره مذم قامت بدورها فى اللعب بهذا التراث

---

(1) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٤ ففيه كرامات تحتاج كتبا لتناولها والنظر فيها ، وبيان ما يصح منها وما لا يصح .

الروحانى الضخم ، وعشت فى كل أجزائه مما يجعل أمر تنقيته واخراج الدخيل منه فى غاية الأهمية .

كما أن من الثوابت لدى الصوفية أن صاحب الكرامة يظل فى حالة من التواضع والذل لله رب العالمين ، لأنه اذا " ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد يطل الشىء الذى وصل به الى تلك الكرامات" (١) انه لايفتخر بالكرامات وانما يفتخر بعبوديته لله الذى أكرمه وأعطاه .

وذكر الكرامات على النحو السابق يؤدى الى نتيجة هامة هى أن الاعلان عنها يمثل الحكم عليها بأنها مختلقة ، وهمية ، والا ما أظهرها صاحبها ، كما أن الحكمة من كثرة الكرامات لأولياء الله فى الأمة المحمدية ليست عيبا فى الأولياء ، انما هى تأكيد لسيرهم فى زمرة القدوة الحسنة سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم .

وربما كان جواب الامام أحمد عن قلة الكرامات فى زمن الصحابة كافية للتدليل على ما ذهبنا من أن الكرامات تظهر على أصحاب الايمان القوى الذين لايعلنون عنها يقول الامام أحمد عن الصحابة

---

(١) نفيسة عابد / أصحاب الكرامات ص ٢٠ ط المطبعة الفنية ١٩٨٧م

وعدم ظهور الكرامات بكثرة عليهم " كان ايمانهم قويا فما احتاجوا الى زيادة يقوى بها ايمانهم وغيرهم ضعيف الايمان فى عصره فاحتيج الى تقويته باظهار الكرامة " (١) .

وفى تقديرى أن الكرامة منحة من الله ، وأنها تكون لأولياء الله ، ولايعلن عنها الولى ، وانما يكون جريانها على يديه بمثابة الاعلان من الله عز وجل والاعلام بأن هذا العبد التقى من الصالحين وأنه ممن رضى الله عليهم ورضى عنهم ، ولم نسمع أن أحدا منهم أعلن عنها ، وانما أجراها الله عليه وأجريت على لسان الناس تصديقا له ، والفرق كبير .

والمنتسب دائما يعلن عن كرامات وهمية بل ويختلق من الكرامات ما يتناسب مع ظروفه هو ، والقوم الذين يقف بينهم والأحداث التى يعيش بينها وتضمه بين جناحيها ، فهى كرامات متوهمة ، وأخبار غير صادقة ، ومنقولات تفتقد سلامة السند، وصحة المتن، والدقة فى الضبط ، وسلامة النقل ، من ثم لانعيرها التفاتا طالما قد جنح ذاكرها الى الاعلان عنها ، والتهويل فيها والاضافة اليها بالشكل الذى يخرجها عن الاطار المقبول عند الصوفية الى الاطار غير المقبول أمام النص المنزل والنقل الصحيح .

(١) المصدر السابق ص ٢٤

(١١) حب الظهور وطلب السلطان :

الصوفى الحق ظهوره مع ربه ، فهو فى كل أوامر الله يظهر بها ، وتظهر فيه ، وفى كل ما نهى الله عنه تجده منتهيا عنه ، انه محب للظهور فى حضرة مولاه الكريم ، وفى مواطن طاعته ، شريطة أن لاتعلم شماله ما صنعت يمينه ، ولايعلم خاطره ما فاضت به مشاعره ولايدرى جاره ماطاف بأمانيه داخل داره ٠

الصوفى الحق يولى ظهره للخلائق ويقبل بوجهه على مولاه ، حتى يكون ظهوره أمام ربه هو عين طاعته القائم بها ، انه يصلى ما تيسر له من الليل ، ويقرأ ما تيسر من القرآن ، ويصوم بعد الفرض ما قدر عليه من الصيام ، انه ظاهر من حيث لايدرى الخلائق ، مختف عن كل معصية ٠

أما طلب السلطان ، وتولية الامارة ، وبلوغه الرئاسة فى الناس ، فهذا شأن لم يرد للصوفى على خاطر ، أما لماذا ؟

فالجواب: أن الصوفى الحق ملتزم بالنص المنزل ، وقد ورد فى الأثر " لاتطلبوا الامارة فانها تكون ندامة يوم القيامة "، ومن طلب الامارة ولم تكن لديه مقوماتها ، كانت عليه عبئا فى الدنيا وله نارا

وندامة فى الآخرة ، لذا فان الصوفى يصرف نفسه عنها ، وان أتت اليه خافها ، وان دنت منه تعامل معها بحذر ، حتى لكأنها تطلبه ويرفضها ، وتدنو منه ويدبر عنها ، وتقبل عليه فيخاف منها .

فاذا وقعت له الامارة حسبها مسؤلية ، وكيف لا ؟ والحديث الشريف قد جعلها مسؤلية تامة لقوله — صلى الله عليه وسلم — " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " .

اذًا الامارة تكليف بمصالح المسلمين ، وليست تشريفا وسلطانا وتعذيبا للمؤمنين ، انها أمانة وأى أمانة أكبر من تولى أمر المؤمنين ، وقد كان الصالحون حين توكل اليهم يلجأون الى الشرع الشريف حتى تكون الامارة على الوجه الأكمل شرعا ، اللائق بما أمر الله ورسوله .

حتى اذا جاء السلطان كان الصوفى له مؤشدا وموجها ، متى كان الصوفى فى حاجة الى التوجيه والارشاد ، ومتى لم يكن فى حاجة اليها فقد نصح السلطان الصوفى نفسه ، من غير تزلف أو زيف ، ودون نفاق أو مشاعر اغلاق ، ومن غير كذب أو نفاق ، انه الصدق الذى ألزم الصوفى به نفسه مجربه حتى هانت له الدنيا وجاءته على

استحياء كأنها تنشد ، " ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا "

أما المنتسب للصوفية فحدث ولا حرج ، انه محب للظهور في كل المناسبات ، مع مطالع شهر شعبان ورمضان وشهور الحج ، ومولد النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه يعلن عن نفسه في كافة الصحف القومية والحزبية ، بل ويتجاوزها جميعا الى المجلات والدوريات ، ولو أمكنهم القفز الى شبكة المعلومات " الانترنت " لفعل .

انه يذكر نسبته الى الرسول مرة ينادي أن الرسول الكريم جده ، وأخرى أن الرسول عم أبيه ، بل ويحاول اضافة أسماء كبيرة الى نسبه الساقط ، وليس هذا وحده ، بل كثيرا ما يحاول اصباغ الشرعية الزائفة على فعله الأثيم من خلال ما يزعمه من نسب لاوجود له الا في الأوهام .

وفي تقديري أن هذا قد غاب عنه الأثر الصادق " الناس مؤتمنون على أنسابهم " فماذا هو صانع بآبائه وأجداده الذين اندثروا ولم يكونوا قد عرفوا للشرع الشريف ناحية تطبق عليها قواعده ، انه يرى العلاقة منقطعة بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فيحاول اللجوء الى توثيق تلك العلاقة ودفع الدم الى مواطنها آمــلا أن تعود الحياة الى أصالها ، أو يدفع الناس الى التصديق بهــذا النسب الزائف ، وماهم له بمصدقين ·

وحب الظهور يجعله فى كل معصية ، وقد ضرب فيها بسـهم ، وأى سهم ؟ وكم حاول النيل ممن عصى الله فيهم أى منال ، حتـى انك لتعجب من أمر هذا الذى يتزلف الى وجدانات الناس وهم يعلمون أنه كاذب ، ويحاول أن يدلف الى مشاعرهم ومناطق الالهام لديهـم حتى ينال لديهم قبولا ، انه يغير شكله كل يوم مرة ، ويغير مواقفه أمام كل حدث ألف مرة ، لايختلف سابقه عن لاحقه ، ولامقدمه عن مؤخـره بل ولا صدره من عجزه ، انه يعيش تحت طلب الآخرين فما أشبهـه بالحانوتى الذى يعمل فى مدفنة الحيوانات ·

لاتجده مخلصا لعمل شرعى ، ولامهتما به الا لينال من أيـدى أصحابه منالا ، أو يَعْبُر من بين أصابع المختصين ، ويهرب من محاسبـة المسئولين ، وكما أحب الاعلان عن نفسه ، واستعذب فى سبيل ذلـك كل عقبة صادفته ، وتخطى كل مشكلة حجبت الرؤيا عنه ، فكذلك يحـاول الهرب من كل من بيده سلطان ، كما لايحب ملاقاة الواقع على أرضيتـه سواء كان عليه السلطان ، أو كان طالبا للسلطان ·

لقد تجمعت لديه مسئوليات عدة ، وصارت أمانيه حبيسة الاعلان ، من ثم فهو جبان عند ملاقاة الفوارس ، وفارس عند ملاقاة النساء ، يعمل على تحقيق ما يقربه لغرضه ، أو يصل به الى مرماه انه يستبيح الرشوة كما يستبيح السرقة ، ويقعد للنفاق ، كما أفترش للكذب أرضية كبيرة تبلغ مساحتها عمره كله ٠

خذ مثالا :

ذلكم الذى لا يفتأ عن ذكر نفسه وصفاته الخاصة ، ومع كل اعلان تنشر له صورة ، مدفوعة الأجر ، له من هذه الصورة ما يشير الى لحمه ، أو جسده واسمه ، وربما مهر الصورة بعلاقته النسبية بين سيدنا الحسن والحسين ، ثم ترى مأمور المركز ومدير مباحثه قد تردد كل منهما عليه ، لكن كما ترددا على غيره ٠

غير أن المنتسب تراه قد أعد لهذا الأمر عدته ، من خلال مائدة كبيرة قد حملت بأشهى الطعام وأزكى المشروبات ، وقد دعى اليها كل من يعرف ومن لا يعرف ، فماذا أنت قائل ؟ ربما ترفع يديك ملوحا ، انها وليمة يسمع بها كل من يريد أن يسمع ، وهل هناك

دعاية أكثر من اقامة الولائم ، والانفاق عليها أكثر من هذا المثال ؟ .

انه محب للظهور ، تواق لمناطق التزلف ، ربيب ثقافة مضغت ولم تبتلع ، ويرتضع الكذب بكل ألوانه .

انه يعيش فى ثوب ليس له ، وفى كل مناحى الحياة يمكنك الحكم عليه ، انه أشبه ما يكون بكتاب لاتَوَافُقَ بين صفحاته ، أما لماذا ؟

فلأنها من كل فن ضربت ، وفى كل سهم توقفت ، اذاً يمكنك الحكم عليها من أول وهْلة ، ويمكنك التعرف على ذلك المنتسب ربيب ألوان الثقافة ، المرتضع للكذب بكل ألوانه ، يعيش فى ثوب ليس له ، انه محب للظهور ، تواق لمواطن التزلف ، ربيب ألوان النفاق يرتضع الكذب بكل ألوانه .

وهكذا رأينا المنتسب للصوفية يقع بين دائرتين كلتيهما تمثل رزيلة الأجدر بالمسلم الابتعاد عنها والتنحى من أمامها .

وهكذا كشف المدعون النقاب عن أنفسهم ، وأنهم " محبون للظهور ، طالبون للسلطان .

(١٢) العمل بالسحر والنجوم :

أكثر المنتسبين للصوفية يعملون بالسحر الا من رحم ربك ، فهم يجيدون الحديث عنه ، انهم يحاولون ادخاله مناطق شتى من أفهامهم ، رغم أن تعلمه حرام ، واستخدامه حرام ، ما يتعلق منه بالافراد والصالح العالم ، أو مصالح الناس الخاصة والعامة ، فكم فرق بين المرء وزوجه ، وبين الأخ وأخيه ، أو بين الأسرة وأفرادها مع الوضع فى الاعتبار قوله تعالى " وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ " .

ولاينبئك عن مظاهر هؤلاء المنتسبين سوى التعامل معهم ، الذى تتكشف من خلاله عطاياهم ، انهم يستخدمون السحر وهو حرام ، كما يستخدمون وجود الأحبار ذات الألوان المختلفة الحبر الأحمر ، والأخضر ، والبنفسجى وذى الخلطتين ، وذى الأخرى ، كأن الجن يختص فى كتبهم ويأنس بأحبار يتمسك بها أولئك المنتسبون ، ولايمكن مخاطبته الا من خلال عبارات تجسدها مفردات ، أنه يحاول فرض سلطان له على قلوب الناس من خلال عمله الأرضى ، وعالمه السفلى .

انه يحاول الدخول الى قلوب الناس مدعيا تحقيق المنفعة أو دفع المضرة ، اذ الأحبار لها دلالة فى قلوب أولئك المنتسبين للصوفية من خلال العالم الأرضى الذى كثيرا ما تحدثوا عنه باعتباره العالم المرعب ، العالم المخيف ، والمنتسب يجد فى هذه المسألة من النشوة ما يقفز به الى تحقيق اللذة .

المنتسب يحاول الدخول الى مواطن الأسرار لدى الأسرة الواحدة ، من خلال العلاقة القائمة بين المرء وزوجه ، وبين الابن وأبيه ، وبخاصة ما يتعلق بالنواحى البيولوجية فتراه تحدث عن المربوط ، والمنطلق من الرجال ، وأن الربط يهدم العلاقة بين الزوج وزوجه ، وربما ظل يطرق على هذا الوتر بشدة أو ضعف حسب الترددات النفسية لدى ذلك الشخص ، واذا ما كانت متوافقة مع امكانياته النفسية أو متخالفة .

انه يحاول انزال نفسه منزلة الطبيب النفسانى مرة ، وينزل نفسه مأولا للأحلام أخرى ، بل ربما جعل المشاكل فى أغلب الأوقات هادئة رغم أن مؤهلاته لاتشفع له فى داره ، انه مجرد منتسب لهذه الفرقة أو تلك الطائفة ، ذلك هو ما سوف نهدم

جزءه الأكبر لتقيم بدلا منه دينا قويما وأخلاقا تعلوا على هـــذا وذاك .

وفوق ذلك فان المنتحب متاجر بالدين ، قضيته خاسرة ، وان ربح آلاف الملايين ، وما كان له أن يفعل شيئا من ذلك لـو كان له ضمير حي ، أو دين قويم .

غير أن لبعضهم حيلا ، فمنهم من يرفض تعاطى أية أتعاب، أو عمولات كأجور أو هبات لنفسه ، وان كان يتقاضاها كلها فـــي أشكال أخرى ومنافع متبادلة تتم في حين ولاتتم في آخر .

بينما المواقف عنده ثابتة في ذهنه ، وأن كانت غير ثابتة في الواقع المعاش ، كما أنها محكومة بالظروف المتبادلة ، انه يعيـش بالسحر والنجوم ، ويتغنى باطلاق المربوط ، بينما الحقيقة خيـر شاهد على أن وجود هولاء يمثل عبثا لايصل الى السحر أو الربط .

ان المسألة تعود فى أصلها الى عدة أسباب ، وتقع بيـن العديد من الدواعى ، بل ان بعضها راجع لنفس الرجل ، وما اذا كانت أوقاته مع قواه النفسية والظروف الاجتماعية المحيطة به من عدم أو كانت هناك ضغوط مالية أو أسرار أدبية ، أو اكثار من ممارسة

هذه العلاقات فى اطار من ظروف خاصة كالاكثار من التدخين ، أو السمنة الزائدة ، أو تناول عقارات مهدئة .

أو الوقوع بين يدى محترفى الجرائم ، فلا تنفع لديه الأمور الكبيرة ، ولايصلح هو لتخطى الأزمات الصغيرة ، انه أقرب ما يكون برجل الطوارىء الذى لايعرف كيف يفصل بين متخاصمين ، أو يجمع بين قلوب تفرقت بأصحابها .

كما أن بعضهم قد ولع بالكتب النجمية ، وحساب الجُمَّل ، واغرق أمانى الناس فى الأحلام من خلال قراءة الطالع ، والكف أو من خلال طريقة فتح الكتاب الى غير ذلك من الأمور التى تقع لها المصادفة أو لاتقع ، فان وقعت أكثروا من ترديدها والحديث عنها ، حتى ينتزعوا من الناس بعض اعتراف ينطوى على أن هذا الشيخ صاحب سر وأن سره واصل ، أو أن سره بالغ وباتع ، وما هو بصاحب شىء من ذلك وان أدعاه .

وكم من أسر عاشت على السحر ، التحف ربها ثوب القداسة ، وعالجت أمور الحياة بشىء من هذا الوهم الغريب ، الذى اعتبروه السر العجيب ، حتى صارت لهم عند الناس عوائد ، والناس يجعلون لهم فى مقابلها مصروفات شهرية ، لايمكن تأخيرها أو الانقاص منها .

وبعض آخر من الناس يتعاملون مع مدعى التصوف على سبيل الخوف منهم حتى لايصيبهم رزاز السحر المتطاير ، أو ينال من هدوئهم أذى الساحر ، وهم من كافة الأصناف لافرق بين متعلم وأمى فقير وغنى ، زكى وغبى ، انها مشاعر واحدة وقواسم مشتركة .

والحياة اليومية بتعاملاتها مع أصناف الانسانية تكشف كل يوم عن جديد من سلطان المنتسب وأثرهم على النفوس وهيمنتهم على صدور من وثقوا فيهم ، أو طمعوا فيما ينال من أيديهم ، أو كانت لهم عند القوم مصالح بلغت الحاجة اليها منتهاها ولاينبئك مثل خبير .

طفقت الحياة حوالينا ، فألقت بواحد من أولئك المنتسبين زعم أنه يحل المربوط ويربط المنطلق ، ويخبر بالغيوبات ، وهو فيما يخبر كاذب ، ويدعى قدرته على قراءة صفحات الغيب فى مصدرها المكنون .

ولم يطل المقام بهذا الا فترة قليلة وثق فيها العرى ، وقعد الأركان ، حتى شاع خبره ، وزاعت شهرته ، وشاع بين الخلائق أمره ، وطفقت القرى المحيطة تذكر أسراره وتتحدث عن أخباره .

وكان القدر له بالمرصاد ، كبرت فتاته الوحيدة وقد رغب فيها طالب العفاف ، ولكنها لم توفق حتى بلغت سنا تخيف الوالدين ٠

غير أن الشيخ والد الفتاة شاءت ارادة الله لفتاته أن تـتزوج من رجل كريم ، ومضت السنون تقطع من عمرها دون أن تنجـــب ، وراحت زهرات شبابها تتوارى خلف ساتر من الذبول ، وكانت دموع أمها تُشَيِّع هذه السنوات المنصرمة من عمر بنتها ٠٠

ويبدو أن القدر ابتسم لها من جديد ، فها هو زوجها يحفل بها ويحاول صون ما يخصها ، لكن كانت على قدر عال من البـــؤس فعاند القدر أباها ، حيث وقعت فريسة للعقم ٠

وبدأ الناس ينتقدون ذلك الشيخ الذى فشل أمام ناظريهـــم مرتين ، مع أعز الناس عليه ، ألا وهى ابنته ، فلم يتمكن من اختطاف بعل لها تعيش حياتها آمنة بين جناحيه ، والثانية حين عجز عـــن قراءة طالعها وتسخير أختها الأرضية لها - كما زعم - حتى تحمل فـــى أحشائها جنينا ، وأنّى لها ؟

والمدهش أن زوجها لما يئس من انجابها تزوج بأخرى ، فما مضت الا شهور الحمل حتى وضعت الزوج الجديدة ولدين ، رغـــم

أن الشيخ المنتسب أشاع عنها - يوم زواجها - أنها لن تنجب ، بل قرر أن خدامه من الجن أتوا برحمها ووضعوه عنده ، ومايزالون يلهون به ويلعبون ، وكيف تحمل وهى بدون رحم ؟ .

وقد خاب ظنه ، وكذب قوله ، وحملت الزوج الجديدة ، بل وتكرر حملها ، والولادة والرضاعة حتى فشل الشيخ تماما فى كل مازعمه ، وياسبحان الله !!

راحت كريمته تستعطف الزوجة الثانية وتقوم بخدمتها حتى لايطردها زوجها أو يستغنى عنها فيكون أمرها كمصير خيل الحكومة والويل لهذا الخيل من عسكرى لم يعرف قلبه رحمة الضعيف .

(١٣) الفتيا بغير علم :

الصوفى الحق حريص على العلم تعلما وتعليما ، وهو من أشد الناس حرصا على ارضاء مولاه ، كما أنه كلما قرأ قول الله تعالى " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (١) ذابت نفسه فى النص المنزل حتى يغلب عليه أمره كله ، وينزل نفسه منزلة طالب العلم ، وحرصه على العلم يجعله يوالى الاستماع اليه والانتصاح به .

والصوفي يدرك من أعماقه الحديث الشريف " لعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذين لايعلمون ولا يتعلمون" (١) ، لذا فهو حريص على العلم ومدارسته ، حتى اذا أفتى كان في حدود ضيقة ومن خلال قواعد علمية منضبطة ، ولولا خشية الكتمان لخلى تبعة القول ونحى عن عقله مسئولية النقل ، لكن ماذا هو صانع والحديث الشريف يحذر العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم " من كتم علما عنده ألجم بلجام من نار" (٢) .

وربما كان الصوفي الحق يتحرى العلم ومسائله ، فكانت خشيته لله أبلغ من خشية غيره ، وكان خوفه من الله يخطى الخوف من كل ماسواه ، حتى اذا وجد في الأمة تناحرا ، وتلاقى الناس في مسائل الدين هب لهم يقدم ماعنده من علم ، وما لديه من معرفة ، ملتمسا الأدب النبوى في قوله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم آخر هذه تلعن أولها ، فمن كان عنده علم فليظهره ، فان كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد " (٣) صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الامام الترمذى — الجامع الصحيح ج ٥ ص ٣١ رقم ٢٦٥٢
(٢) الامام العقيلي — الضعفاء الكبير ج٣ ص ٧٤ وروى الحديث من طريق رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، وعمارة ابن زاذان — والحديث له طرق أخرى وشواهد تقويه .
(٣) الامام ابن عساكر — تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ١٧٢ .

ولأن للعلم تبعات فالصوفي يدرك التبعات ، ومن أولها تواضعه وتضاءل علمه أمام المسائل التي تعرض له ، انه يرى في ذاته أمرا صغيرا مهما كان علمه ، لأن تقواه تحول بينه وبين أن ينال منه الكبر ، أو يقف على شاطىء الغرور ، ومن ثم فمتى سأله أحاد الناس الفتيا وطالبوه بها ، تحرج منها ، وأحال على غيره ممن يعرف صلاحه ، وتبدو مخايل تقواه ، وربما أحال المسألة كلها الى غيره خوفا من أن تزل به عن رضى الله فتواه .

ثم أن الصوفي كم أتاه الخبر بأن من العلماء زليل القدم بعد الثبوت ، وطريد الرحمة بعد مزيد الركوع والسجود ، والناس قد ألفوا مقولة متوارثة " ضعها في رقبة عالم وأخرج وأنت سالم "وتقوم الفتيا في نفوسهم مقام الأمر الالهي ، فتصير واجبة النفاذ ، بجانب كونها قاعدة آمرة ، لأنها أحكام الله الواجبة ، والمفتي لابد أن يكون على دراية بالأمر كله ، انه مبلغ عن الله ورسوله .

والصوفي الحق يدرك ذلك تماما ، وأن الافتاء بغير علم يمثل ذبحا بغير سكين ، وكم تردد في أنحائه أصداء الحديث الشريف ، من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها الى يوم القيامة " .

كما أن الفتيا نظام فقهى يحتاج ملكات فنية ، وقدرات عقلية وقواعد علمية ، مع امكانية استنباط الحكم الشرعى من الوقائع المطروحة وأن يكون الحكم الشرعى قائما على أدلة تدعم فيه القبول ، مع المزيد من الحيطة والالتزام ، لذا فان الصوفى هياب يحترز التعرض لها ، وان أجبر عليها فلا يكون مندفعا اليها ، رغم تمكنه العلمى وتفوقه الأخلاقى .

وربما سألته لماذا تنصرف عنها وأنت المخول اليها ؟ فكان جوابه : انى أخشى زلة القدم بعد الثبوت ، او الوقوع فى المعاصى بعد اذ نجانا الله منها ، وربما قال : أخشى أن أغضب الجبار ، فيقذف بى فى النار ، من ثم كانت فتاواهم لله خالصة ، فنالت من الله القبول ، وبين الناس امكانية التطبيق .

أما المنتسب فحدث ولاحرج ، انه لايعرف قيمة ما يقوم به من فتيا ، ولا الآثار المترتبة على ما يقول به ، وبخاصة اذا كان السائل من عوام الناس ، أو من غير المثقفين فى الدين ، أو كانت المسألة المعروضة من المستجدات التى تحتاج مزيدا من ترجيح الأدلة ، واستنباط الأحكام ، مع مراعاة القواعد الأصلية ، والمصالح المرسلة .

وكم رأينا من فتاوى أدلى بها منتسبون للعلم ، فجاءت باهتة خالية من كافة المعانى ، بل وقع ضررها على الناس كالصواعق المحرقة وكان الضلال حليفها ، وقد حذر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من هذا الصنف فى قوله صلى الله عليه وسلم " ان الله تعالى لاينتزع العلم انتزاعا ينتزعه من القلوب ، ولكن يقبض العلماء ، فاذا قبض العلماء ، أتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا " (١) ٠

وكانت المأساة حين أعتبر العوام هذه الفتاوى نتائج حتمية ، حتى بات خطرها يهدد الناس فى كافة أمورهم الدينية والاجتماعية والأخلاقية ، فكم سمعوا أن " العلماء ورثة الأنبياء وانهم لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم " (٢) وهل يخطىء فى العلم من ظنوه وارث الأنبياء فى العلم بالله ، والاخبار عنه ؟

لكن المسألة أكثر خطرا ، والمصيبة أعم ضررا ، فالحديث صحيح وله طرق تقويه ، لكن هؤلاء المنتسبين ليسوا علماء حتى يكونوا ورثة

---

(١) الاملم البخارى — صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٦ ومسلم كتاب العلم رقم ١٣ والترمذى فى سننه ٢١٥٢ ومسند الامام أحمد جـ٢ص١٦٢
(٢) سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٨١ رقم ٢٢٣ وكشف الخفاء جـ٢ص٨٣ ، والمدنى رقم ١٧٤٥ ٠

الأنبياء ، انهم مجرد أدعياء ، وماكان الدعي يوما ولدا شرعيا ، بل هو الخطر الداهم " الذى يصيب الدين نفسه ، ويضر بالأمة كلها من جراء الفهم الخاطئ للدين ، أو التحلل من تعاليمه السمحة الصحيحة " (١) ، وقد يكون من المناسب ضرب الأمثلة حتى يكون الأمر أكثر وضوحا ، وهاأنذا أقص بعضها :

= سأل أحد العوام شيخه عن مكفر للذنوب صغيرها والكبير ، ويكون كفارة مجملة عن كل شيء ، وسأله اذا كان ذلك ممكنا عن طريق الصلاة ، فكان جواب شيخه ان ذلك ممكن عن طريق أنواع من الصلاة منها :

١ — الصلاة السبعينية :

ومؤداها : أن يصلى راغب الكفارة سبعين ركعة متواصلة فى ليلة النصف من شهر شعبان ، وتبدأ بالنية التى تظل مصاحبة للمصلى طيلة السبعين ركعة ، حتى لايكون فيها الا تشهد واحد ، ويظل صاحبها ممسكا بنيته حتى تتم الركعة السبعون ، فيجلس قارئا التشهد مرة واحدة ، وبعدها يسلم فيسلم من كل ذنب أرتكبه ، أو خطيئة وقع فيها .

---

(١) الامام الأكبر / الشيخ جاد الحق على جاد الحق — التطرف الدينى وأبعاده ، ص ٢٤ ط جماعة أنصار السنة المحمدية العدد ٨

وهذه السبعينية خيال محض ، لم يرد بها نص شرعي يمكن قبوله ، لأن كل ذنب له كفارة ، والكفارات منصوص عليها ، ومعروف أولها من آخرها ، وما جاء به الشرع الحنيف هو الذي يمكن الاعتماد عليه والاستمساك به ، روى عن الصديق رضي الله عنه أنه قال :

" سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ما من رجل يذنب ذنبا ، ثم يقوم فيتطهر ، ثم يصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ، ثم قرأ " وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ " (١) فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (٢) .

" وقد تضمنت الآية الكريمة ، مدح المستغفرين والترغيب في التوبة ، وطلب المغفرة ، وحث المذنبين على أن يقفوا مواقف الخضوع والتذلل والخشية والندم ، وأن الاستغفار من الذنب ينفع المذنبين (٣) " .

قال الله تعالى " وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى " (٤)

---

(١) أخرجه الأربعة والبيهقي وابن حبان وابن خزيمة وصححاه والحديث له شواهد كثيرة تقويه .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٣٥ .

(٣) الامام الشيخ / محمود أمين خطاب السبكي ـ الدين الخالص جـ ٥ ص ٣٧٨ .

(٤) سورة طه الآية رقم ٨٢

روى أنه لما نزل قوله تعالى : ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا " صاح ابليس بجنوده ، وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور ، حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر ، فقالوا مالك ياسيدنا ؟ ! قال آية نزلت فى كتاب الله لايَضُرُّ بعدها أحدا من بنى آدم ذنبٌ .

قالوا : ماهى ؟ فأخبرهم :

قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولايستغفرون ، ولايرون الا أنهم على الحق ، فرضى منهم بذلك" (١) .

اذن الصلاة السبعينية لا أصل لها ، وانما هى من ابتداعات أولئك المنتسبين الذين لايعنيهم من أمور حياتهم الا أن يحلوا من الناس أعلى محل ، وينزلوا فى قلوبهم أرقى المنازل ، ولو كانوا أولى علم ونهى ، لرجعوا الى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وماكان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

فبرغم أن الصلاة السبعينية لم يرد بها نص الا أن أصحابها يركزون على أن الذى يحبس نفسه فى صلاة واحدة مقدارها سبعون

---

(١) الدين الخالص جـ ٥ ص ٣٧٨ والحديث أخرجه الحكيم الترمذى ولطالب المزيد مراجعة الصفحات ٣٧٦/٣٨٧ من ذات الجزء .

ركعة متواصلة في وقت واحد ، لقادر على حبس نفسه عن كافة المعاصي ما بقي له من عمر ، وان وقعت له بعض المعاصي فقد سبقتها الكفارة ، وهو في كل الحالات لن يدخل النار أبدا .

ورغم تهافت هذه الأفكار وسطحيتها ، الا أن السذج يقبلون عليها ، ويقوم بعضهم بادائها ، ثم يستحلون التفرقة بين البنات والبنين في الميراث ، مدعين أن البنت كفاها زوجها ، وأنها اذا أخذت من الميراث فليكن في حدود مايرضى به الأخوة لامايفرضه الشرع الشريف ، حتى أنهم قد اخترعوا من عندياتهم أن ميراث البنت يمكن أن ينحصر في الأرض ، والأموال ، اما العقارات والمنازل والمنقولات فليس لها شيء من ذلك أبدا ، وماذا عليه وقد صلى السبعينية وضمن مكانه في الجنة ؟ !

٢ ـ الصلاة الألفية :

وهي ركعتان طويلتان اخترعهما المنتسبون زورا وبهتانا ، يقرأ فيهما سورة الأخلاص ألف مرة في كل ركعة ، حتى اذا انتهى من الصلاة صار في أمان من مسيس النار ، زاعمين أن سورة الاخلاص ثلث القرآن ، هكذا قالوا . مع أن الأثر هو أن ثواب تلاوتها يعدل ثواب

تلاوة ثلث القرآن الكريم — وقراءة السورة الكريمة ألف مرة تساوى — من وجهة نظرهم — تلاوة القرآن الكريم خمسا وثلاثين سنة — هكذا يقولون.

ومادام القرآن سيأتى شفيعا لأصحابه ، فمن صلى الألفية فقد ضمن الجنة ، رغم أنه لايوجد نص دينى بهذه المسألة ولكنهم اخترعوا هذه الابتداعات ، ونموا تلك الخيالات حتى بلغت فى نفوس غير المثقفين منالا ، وأى منال ؟! وماهى فى حقيقة أمرها الا خيال منتسب وضلال مبتدع ، وضياع سائل .

أجل القرآن شفيع لأصحابه ، العاملين بما فيه ، المحافظين على آدابه ، المطبقين لأحكامه ، الذين يعرفون حدوده ، فلا يقع لهم عليها تخبط ، ويدركون أوامره ونواهيه على النحو الذى شرعه الله فلا التفات بعده ، ولا التفاف حول غيره ، انه أكسير الحياة لهم ، والأمان فى الآخرة ، والضياء فى القبر ، أما غيرهم فلا . قال ابن عقيل " قد ارتفع القوم الى التلاعب بالدين ، فأى بقاء للشريعة مع هذا الحال " (١) .

قال ابن الجوزى : " وقد اندس فى الصوفية أقوام ، وتشبهوا بهم ، وشطحوا فى الكرامات وادعائها ، وأظهروا للعوام مخاريق

(١) ابن الجوزى — تلبيس أبليس ٤٠٨ ص ٤٠٩

صادوا بها قلوبهم" (١) والحق أن المنتسبين للصوفية كانوا خطرا على أنفسهم والمجتمعات التى وقعوا فيها ، ولو كانوا صوفية لكانوا علامات مضيئة فى ظلام الليل ، حيث التزام الشرع الشريف .

" أما ما يقع من متصوفة الزمان من وضع أيديهم فى أيدى الرجال والنساء ومعاهدتهم على أن يكونوا تلامذة لهم ليتمشيخوا عليهم ، ويشاركوهم فى أموالهم تارة بالأكل فى بيوتهم ، وتارة بضرب عوائد يدفعونها فى وقت معين كأنها جزية تؤخذ بالجبروت ، فهو اجرام ، وافساد خارج عن حد الشرع ، ولايقره العقل" (٢) .

٣ — المسبحة الألفية :

لما وقف المنتسبون بفتواهم أمام الحائط القوى للظروف الاجتماعية ، انصرفوا الى تصاريف أخرى منها ابتداع المسبحة الألفية ، وهى مسبحة عدد حباتها ألف حبة ، فاذا انتهى منها فى ليلة القدر فقد حاز السبق ، وفاز بالقبول ، غير أن الأمر تم ادخال بعض تعديلات عليه وبخاصة عند تعذر المسبحة الألفية ، فاصطنعوا لهم خيطا طويلا تعقد فيه العقد بعدد الألف تسبيحة .

(١) ابن الجوزى — تلبيس ابليس ص ٤٠٨

(٢) الدين الخالص ج ٦ ص ٣٤٧ .

ثم يوضع هذا الخيط المعقود بالألف مع كفن صاحبه ويزمزم ، فاذا خرجت روحه أوصى بأن يغسل هذا الحبل مع غسل جسده ، حتى تسقط كافة الذنوب عنه قبل دخوله القبر ، فاذا خلا له قبره ، وصار وحيدا فيه ، كان طاهرا ، خاليا من كل مؤاخذة ، ولو كانت ذنوبه ملء السماوات والأرض ، وهذا كله افتاء فى غير موضع ، وضلال مبين وقد يسبح المسبحة الألفية على حصيات ، أو حبات ذرة ، أو نبات " بذريت " أو غيره معتقدين أن صاحبهم كلما لمس الحصى ، أو الحب أو غيره مما يجعل للمسبحة الألفية — فان ذنوبه تساقط عنه مع كل لمسة لأن ذنوبه مهما كانت كثيرة ، فان كل تسبيحة تزيل ألف خطيئة ، فاذا خرج من الدنيا كان بريئا على كافة النواحى ، نقيا من كل ذنب طاهرا من كل عيب .

بل تمادى بعضهم فزعم أن الحصيات اللاتى يسبح عليهن سوف تشهدن له يوم القيامة ، ولسوف تحكى كل منها أنه كان تقيا ، وأن الذنوب التى صدرت عنه ما هى الا صغائر أو نزغات شيطانية ، أو نزعات نفسية تلاشت امام التسبيح الألفى ، ومابقى الا صالح الأعمال التى سوف تستمر معه ، ومنها طاعته لشيخه الذى عرّفه طريق الخلاص.

واحسب أن العقيدة الألفية فى الفكر المسيحى توازى هـذه الفكرة الألفية من حيث هى فكرة ، فلماذا لم يكن التسبيح المفروض من قبل المنتسب مائة مثلا ، أو تسعا وتسعين مرة مثلا ، وحينئذ ربما وجدت شواهد تقوى المسألة من حيث هى لفظ فقط ، أما شواهدها الشرعية فلا وجود لها على الاطلاق ·

وهكذا صاغ المنتسبون فتاوى خاصة ، أصابها الخطأ من كل ناحية ، وكانت فى الابتداع ضاربة بجذور ممتدة ، استغلها العامة أسوا استغلال ، ونسبوها الى هؤلاء زاعمين أنهم شيوخ ، وأنهم من أهل الفضل والعلم ، بل ربما قالوا أنهم من أهل الله ، وكأنهم بذلك حازوا القبول ، أو ضمنوا النجاح ، وما هو بقبول أو نجاح ·

والمؤسف له أن بعض المنتسبين كان يتعهد فتواه فى مراحل تنفيذها بنفسه ، حتى يطبعها بشرعية كاذبة ، وارشادات مقوته ، وربما أدام زيارته لهؤلاء ، والتردد على أولئك متعاهدا اياهم ما أفتى به ، مؤكدا على أنه حق ، وربما نسبه الى شيوخ أجلاء ، أو علماء بلغوا فى المعرفة القدر الأعلى ، حتى ينال فى الناس منال الصدق أو يطبق فيما بينهم تطبيق الحق ·

من ثم كانت الأخطاء كثيرة ، والأغلاط لاتقف عند حد ، والفتاوى عارية من الأدلة ، خاوية من المعانى ، غير قابلة للتطبيق على نحو مقبول ، انها مجرد تخرصات واكاذيب وأوهام نيام ، وتعليمات خاطئين ، لبس ابليس ، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه ، وكانت لها آثار سلبية انعكست على حياة الناس الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية على نحو مشين ، افاض فى ذكره من أفرغوا من أوقاتهم بعضها .

انهم الرؤساء الجهال الذين كانوا ممن عناهم الحديث الشريف " ان الله تعالى لاينتزع العلم انتزاعا ينتزعه من القلوب ، ولكن يقبض العلماء ، فاذا اقبض العلماء اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فافتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا " (١) ، بل هم المبطلون الذين يزيغون فى الدين ويحرفون ، ويحاولون تأويل الدين بماتتفتق عنه عقول الجاهلين .

والحق أن الله تعالى بشرهم بأنه سبحانه وتعالى يولى هذا الدين خلفا عدولا ، يكشفون زيف المبطلين ، وينفون ضلالات الجاهلين ، يقول صلى الله عليه وسلم " يحمل هذا العلم من كل

---

(١) صحيح البخارى جـ١ صـ ٣٦ ومسند الامام احمد جـ٢ صـ ١٦٢ .

خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين " (١) ٠

وشأن المنتسبين غريب جدا ، انهم يفتون بغير علم ، ويدعون معرفة الغيب ، مع اضمار للسوء ، وبغض للآخرين ، وكم امتد بهم الخيال الكاذب ، حتى أفتوا بما يسهل انفضاض الرحم من جنينه ، وعلاج أمراض الجهاز الهضمي وسقطات البطن ، من غير أن تكون لهم بها معرفة ، كل ما في الأمر أنها تجارب طبقت على السابقين ودونت كخبرات سابقة ولكن ليس لها أصل في الدين ٠

لقد استباحوا كل محرم ، استعملوا الحروف النجمية لكسب الأرزاق ، وفوضوا أنفسهم نوابا على خزائن ملكوت صاحب الملك والجبروت ، وأباحوا اختلاط الرجال بالنساء ، وتعاهدوا معهم ، وتعاقدوا معهن ، حتى اتسمت حياتهم عامة بالانحلال الخلقي ، والضعف النفسي ، وكانت فعلاتهم فيها من التهافت ما لا يجعلها رشيدة ٠ اتسمت أنفسهم بالضعف والهوان ، وكانت أيديهم هي السفلى وليس ذلك شأن المؤمن التقي ، والحديث الشريف يقرر أن :

---

(١) ابن عدى - الكامل في ضعفاء الرجال جـ ١ ص ١٥٢ وجاء ذكر الحديث بألفاظ متقاربة وروايات متعددة ٠

الأيدى ثلاثة :

- يد اللـــــه .
- ثم اليد المعطية .
- ثم اليد المُعطاة فهى السفلى الى يوم القيامة .

وروى الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الأيدى ثلاثة : يد اللـــه العليا ، ويد المُعطِى التى تليها ، ويد السائل السفلى الى يوم القيامة ، فاستعف عن السؤال ما استطعت" (١) قال الهيثمـــى : رجاله موثقون .

بيد أن ما تجدر الاشارة اليه ، هو أن المنتسبين كم الغـــزوا وألمزوا ، بل وكم تحاوروا وتعاووا فى كل اتجاه ، وبين أحضان كل منتدى ، انهم عملة فقدت فاعليتها ولم يعد لها رصيد مصرفى ، أو دواء فقد خاصيته فى العلاج ، وصار وجود الدواء الضار مسؤليـــة خاصة بأصحابه وان شاركهم غيرهم أمرا من الأمور الخاصة ، فليـــس موافقة على وجه الاجمال .

---

(١) الامام البيهقى - السنن الكبرى جـ ٤ ص ١٩٨ ومجمع الزوائـد جـ ٣ ص ٩٧ .

وهل تظن صاحب يد سفلى يُصلح أمره حتى يحاول اصلاح الآخرين ، ان فاقد الشيء لايعطيه ، والمنتسب قد فقد كل شيء يتعلق بالصواب والأمر المعقول شرعا ، انهم أناس باعوا أنفسهم للهلاك ، وقد ورد الأثر " الناس غاديان : فبائع نفسه فموبقها ، ومعاد يبها فمعتقها ، والصدقة برهان ، والصوم جنة ، والصلاة نور ، والسكينة نعيم " (١) .

وأخرج الامام مسلم فى صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم " كل الناس يغدوا فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها (٢) " والمنتسب بائع نفسه الى الشيطان الرجيم وهم ان شهدوا " ربوبية الحق وافتقارهم اليه ، ويستعينون به ، لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين الى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته ، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة ، ولهذا كثيرا ما يعملون على الأحوال التى يتعرفون بها فى الوجود ، ولايقصدون مايرضى الرب — جل جلاله — ويحبه " (٣) .

---

(١) الهيثمى — مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٢٣٦
(٢) صحيح الامام مسلم جزء من حديث .
(٣) الامام ابن تيمية — التحفة العراقية فى الأعمال القلبية — علم [illegible] ١١ مجموع الفتاوى ص ٣٣ ، ٣٤ .

فاذا أضفنا الى ما سبق أن سمة الفتيا الضالة يكون مصدرها الحقيقى هم أهل الانتساب الذين لايعرفون للشرع حرمة ، ولا للأدلة وجهة ، ولايذكرون عن ضوابط الشرع أى شئ ، والحرى بهم التوجه الى الشرع وأدلته لأننا نعيش عصرا " شاعت فيه حروب العقائد والأفكار والاثارة ، وخلق المذاهب والمتاعب بغية السيطرة على الشعوب" (١) ولابد من تأمين أمتنا ، ولتكن البداية من الداخل ٠

كما أن داخلنا محتاج ترتيبه بشكل منظم ، يقوم على العلم بعد سلامة الاعتقاد ، وهذا لايتوافر لدى المنتسبين ، لأنهم وقعوا فى كل ما استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من أربع وكان يقول فى استعاذته :

" اللهم انى أعوذ بك من غِنًى يطغينى ، ومن فقر ينسينى ، ومن هوى يردينى ، ومن عمل يخزينى " (٢) وقد وقعوا فى كل طغيان جاء بعد فقر ، وكان معه الغنى ، وكم كان فقر أحدهم مدعاة لخروجه عن تعاليم الله ، أما الهوى فحدث ولاحرج أنهم — كما سبق القول — مبتدعون لامتبعون ٠

---

(١) الامام الأكبر الشيخ / جاد الحق على جاد الحق / التطرف الدينى وأبعاده ، ص ٣١ ٠

(٢) الامام الهيثمى — مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ١٤٤ ٠

واذا كانت دعواهم التى يرفعونها أمام الناس أنهم أهل الله واحباب رسول الله ، وأن لهم فيه القدوة ، وبه الأسوة ، فأين هم من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى روى عنه أبو أمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لايارب ، ولكنى أشبع يوما وأجوع يوما ، فاذا جعت تضرعت اليك ، واذا شبعت حمدتك وشكرتك" (١) فأين هم من دعواهم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو منهم براء .

كما ورد الحديث بلفظ " أكون عبدا نبيا ، أجوع يوما وأشبع يوما ، فاذا جعت صبرت ، واذا شبعت شكرت" (٢) وكانت النار ماتوقد فى داره أياما ، وما اشتكى قط ، بل كان دائم الدعاء " اللهم انى أعوذ بك من فقر منسٍ ، ومن غنى مطغ" (٣) ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد بل تخطته الى ما هو أبعد من ذلك ، حين افترضوا العلم فى أنفسهم ، وزعموا الكمال فى ملكاتهم ومالهم بذلك من علم ان هم الا يكذبون ، والله المستعان على مايصفون .

---

(١) الامام الزبيدى — اتحاف السادة المتقين جـ ٧ ص ٣٩٦
(٢) سنن الترمذى الحديث رقم ٢٣٤٧ وهو جزء من حديث طويل
(٣) مجمع الزوائد جـ ١٠ قال الهيثمى : رواه الطبرانى .

انهم فى تقديرى ــ د جاجلة فى ثوب أتقياء ، خبثاء فى لغــة ظرفاء ، أهل بدع ، خصوم الداء لكل خوف من الله وورع ، فيهــم جراة الثعالب ، وغباء البغال ، وربما تحصنوا باجسام الأفيــال ولفائف عمائم الرجال ، وماهم الا على طريق الضلال يسيرون ولأنفسهم يمهدون وما الله بغافل عما يعملون ٠

١٤ ــ اضمار السوء والوقوع فى الأبرياء :

الصوفى الحق يعرف أنه على سفر ، وأن رحلته قد ابتــدأت يوم ولد ، ولابد من نهاية للرحلة مهما طالت محطات الاستقبــال ومراحل الوداع ، ومن ثم فهو حريص على أن يكون سفره فى دنيــا الخير ، حتى يكون عائد الرحلة ــ فى الآخرة ــ ثوابا كبيــرا ، وأجرا عظيما ، من ثم تراه دائما صافى القلب ، نقى الضميــر ، سالم الوجدان ٠

وربما يجول بخاطره الكثير من الأحاديث النبوية التــى مهدت نفسه ، وهيأت أطوار حياته لهذا الدور الكبير ، الــذى حرص عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى أن أبــا ذر رضى الله عنه كان يتعلق بأستار الكعبة فى أيام مواسم الحج من كل

عام ثم ينادى بأعلى صوته ، بعد أن يُعَرِّف الناس بنفسه .

" ان أحدكم اذا أراد سفرا استعد لسفره ، فما لكم لاتستعدون لسفر الآخرة ، وأنتم تتيقنون أنه لابد لكم منه ، ألا ومن أراد سفرا فى الدنيا فان بدا له أن يرجع يمكنه ، وان طلب الغرض وجده ، وان استوهب ربما يوهب ، ولا يوجد شئ من ذلك فى سفر الآخرة " (١).

ولقد كان حرصهم على الآخرة نابعا من حبهم لله ورسوله ، وتمسكهم بالآداب الاسلامية ، فلم يكن التشاحن من سماتهم ، ولا البغضاء من ديدنهم ، بل كان ظاهرهم كالباطن ، وألفاظهم معبرة عن كل ما فى قلوبهم ، كأن الشاعر يعبر عن داخلهم ويصف واقعهم بقوله :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما ∴ جعل اللسان على الفؤاد دليلا

أما المنتسب للصوفية فأمر آخر ، ان الواحد منهم يغضب لهوى نفسه ، ويفرح لها ، ضابطه هواه الذى عبده من دون الله فان قدر على ايذاء الناس فعل دون امهال ، أو اهمال ، انه يتعجل

---

(١) الامام محمد بن الحسن الشيبانى — الاكتساب فى الرزق المستطاب الجزء الأخير ص ١٢٥ ط مجلة الأزهر فى شوال ١٤١٦ هـ

الايذاء ولو كان من غير سبب الا الحسد ، وكأنى بهم أصرخ في آذانهم بقول الله تعالى :

" أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ ابْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا " (١) كأن الحسد جزء من طبيعته ، والايذاء أصل تكوينه ، سعادته في شقاء الآخرين ، كأنه لاحرمة لهم ولو كانوا معه في صلاة واحدة ، ومسكن واحد ، مرضه كامن فيه .

لايلتفت الى أنها حرمات ويجب أن تصان ، ولايحاول التركيز على قوله تعالى " وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ " لأنه يزعم في نفسه الكمال ، ويظن في ذاته العلو ، حتى سمح لنفسه برجم غيره ، والتسور على أسرارهم ، وكافة محاريبهم ، بل ويزعم أن هذا احد حقوقه وأبسط واجباته .

فاذا لم يقدّر له تنفيذ ما أراد عمد الى دفع الآخرين حتى يقوموا بهذا الفعل المعبأ بالأذى والشرور ، ويظل هو لدى

---

(١) سورة النساء الآيتان ٥٤ ، ٥٥

الأبواب الخلفية ، فاذا انكشفت الأمور ، وعورت الظهور ، خـرج من المسألة كأن لم يكن بها ، فلا يمسسه لسان حق ، ولاينال منه حكم قاض ، متناسيا أن الأمر أكثر خطرا مما هرب منه ، انها ديـون ولابد من القضاء ، وحرمات ولابد من القصاص ، وان رمت شاهـدا فذ وذلك .

= منتسب مكن الله له فى أمر ما ابتلاء ، فشق عليه أن يـرى غيره متقدمين ـ بكد اليمين وعرق الجبين ـ وهو يتأخر بكسـله واهماله ، فأضمر فى نفسه وبيت النية على الايذاء والتشفى ، ومـن ثم ظل يتناول هذا بالكفر ، ويرمى ذاك بالفسق ، ويرجم ثالـث بالجنان ، ورابع بالسرقة الأدبية ، وكانت تلك الطبيعة تجرى معه جريان الدم فى عروقه ، ومن المؤسف له أن هذا المنتسب ظـل ضالعا فى هذا الأمر مستخدما سلطانه فى نفوس أتباعه ومريديه .

أحد المترددين عليه ساءه ما يقوم به ، فحاول أظهـار غضبه ، لكن بطريقة الاعتراض الجماهيرى ، فما كان من المنتسب الا أن لفق له اتهامات ، وكال بكيله الخاسر حتى تمكن من ايذائه ظانا أن الأمور تجرى بيديه بينما هى المقادير التى يجعلها الله

في الناس ابتلاء وامتحانا ، وماكان ايذاء بقدر ما هو منحة من اللـه تعالى .

والحديث الشريف قد نبه الى هذا الأمر في قوله صلى اللـه عليه وسلم لابن عمه العباس رضي الله عنهما " ياغلام احفظ اللـه يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، واذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت علـى أن يضروك بشيء لن يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقـلام وجفت الصحف " (١) .

غير أن هذا المنتسب لم يقف عند هذا الحد ، بل تجـاوزه الى حد اتهامه — زميله في العمل ، وصديقه في الود — بالكفر مستغلا لحظة ضعف وقع فيها الثاني نظرا لظروف عائلية ، وظـل المنتسب به يدفعه الى ميادين يموت فيها الرجل من غير قتال ، وكم كان للمنتسب من ظهر يأوي اليه ، وقلم يعتمد عليه ، وسلطـان يسخر لخدمة مصالحه .

وكم وقف هذا المنتسب بالباطل زاعما أنه الحق ، حتى سمحت

---

(١) الامام النووي — الأذكار .

له نفسه اتهام العلماء بالسرقة ، ونزلت وشايته الى مساحات هادئة من قلوب الناس الآمنين فأفزعتهم ، وما سلم من أذاه عدو أو صديق ، ولم يبتعد أزاءه كثيرا الا بعد أن تهاوى الركن الذى كان فى الباطل يعتمد عليه ، وفى تعذيب الخلائق يجرى اليه .

حتى نمت أعشاب متسلقة على أكتاف العمالقة ، وكم رددوا ألحانا كاذبة ، وعزفوا على أوتار متقطعة ، فصار طربهم نحيبا ونشيدهم أنينا ، وامنياتهم العذاب عذابا أليما ، وكم حملوا من الاسماء ، وتناقلوا الألقاب — لأن المنتسب لهم زعيم — وما لهم فى ذلك من شيء ، انهم الجهل بأنواعه ، والدجل بكافة أشكاله

بل المؤسف أن هذا المنتسب كون حوله عصابة يرددون أقواله ويزيدون أوهامه ، ويحاولون مزج الخيالات المريضة بشيء من الواقع المتوهم ، حتى زعموا أن الكون يجرى بين يديه ، وأن مصالح العباد رهن شفتيه ، والقلم الذى يدون به — وهو سيء الكتابة — يعمر بيوتا أو يخربها ، ويجبر أمورا أو يكسرها .

وحتى يومنا هذا : مايزال المنتسب يزعم أنه صاحب طريقة متصوفة ، وله مشيخة صولتية ، وارادة ربانية ، وله مريدون كـ

خدعوا به ، وأتباع كم غرر بهم ، ومنتفعون يعلمون عنه أكثر مما يعلم هو عن نفسه ، وربما يبدل في المظهر العام من لباس ورياش وزوج ومسكن وزينة ، لكن يبقى جوهره الذى ينطوى على اضمار السوء بالآخرين ، والرغبة القوية للوقوع الدائم في أعراضهم ، وأنى لمثله أن يؤب الى رشده ؟؟!!

= منتسب آخر : مات والده وجده ولكل منهما مزار ، وفى مدينة اقليمية يقام المولد ويتحقق الجوار ، له أعمام من جلدة أبيه ، ومن صلب جدهم واسم بنيه ، لوالده اخوة الأب ، حالت ظروفهم عن استخدام هذا الانتساب ، أو الاستفادة منه ، وذهب أحدهم الى ذلك المنتسب طالبا يد المعونة ، راجيا المساعدة ، آملا أن يدفع ابن أخيه عنه عوادى الزمن ، وفى يديه ألف بحبوحة .

فرّ المنتسب من فعل الخير لأعمامه ، وادعى أن معرفته بهم قد انقطعت ، انهم نسل فقير وهو غنى ، هو ابن شيخ عرف بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن الأبن ليس على سيرة أبيه ، انه مجرد منتسب لمّا أيقن رغبة عمومته في التردد عليه ، وطلب المعونة منه ، أمر مريديه أن يطاردوهم ، ودفع بالمنتفعين نحوهم حتى

أبعدهم عن الساحة الكبيرة ، وفى احدى مزاراتها يرقد جثمان والدهم ، لكن ماذا هم فاعلون .

مع أن الحديث الشريف " خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى " يعرفه الصغير والكبير ، ويدركه الغنى والفقير ، ويحاول تطبيقه المالك والأجير ، الا هذا المنتسب الذى كان يوما ما طالبا للعلم الشريف فاستعصى عليه ، ونهض مريدو والده وجده اليه ، فألفوا الكتب باسمه ، ودونوا العلم ناسبين اليه كل فضل وهم يعلمون تماما أن العلم نور من أنوار الله ، وأنه لايهدى لعاص .

ومايزال جمع من عمومته ينظرون الى ثرائه الفاحش ، وسمعته الكبيرة ، والأموال التى تغدق عليه من صعيد مصر وقراها وينفق منها ببذخ ، وعلى غير المستفيدين منها بالوجه الشرعى ، حتى ان أحد العمومة توقفت عن الحركة ساقه ، ولم يعد له من مصدر للرزق المكتسب ، فأرسل لابن أخيه يرجوه ويستعطفه ، أو يستجديه فما لانت فى المنتسب قسوة ، ولاهدأت فى داخله عاصفة ، ولما سأله أحد المقربين الاحسان ، كان جوابه أن أمهم ليست من النسب الشريف .

غير أن كاتب السطور لم يسأله أن يقرأ شهادة ميلاد السيدة والدته ليعرف من أى الأنساب ؟ وحتما لن يجدها الا مـــن أنساب بعيدة تماما عن نسب الحسن والحسين ، بل هى أبعـد منهما بكثير ، لكن ألم يذكر هذا المنتسب قول الله تعالى :

" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ " (١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " يافاطمة اعملى فانى لا أغنى عنك من الله شيئا " ، والآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية فى هذا الشأن كثيرة جدا .

حتى استمرت الأيام منطلقة ، فاذا أخت والده تصاب بمرض شديد ، يعجزها عن الحركة ، ويصيبها المرض بتيبس فـــى الفقرات عجزت امكانيات زوجها عن الانفاق عليها أو علاجهـــا ، فسألها آحاد الناس عن ابن أخيها ، ذلك المنتسب الذى بلغت شهرته النشر فى الصحف ، بالاسم والصورة ، أن يساعد زوجهـــا فى علاجها ، فبكت العمة لأن ابن أخيها قال لها : لاتخبـــرى أحدا بقرابتى لك ، والا قلت :

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٠١ /١٠٢

ومع هذا فقد امتدت بركات هذا المنتسب الى بلدان كثيرة والكل يتغنى بكرمه ، ويذكر أفضاله ، ويحكى عن فضائله وأفضاله ، التى لم يشاركه فيها أحد من أعمامه الذين يكبرانه سنا ، ويكبرانه علما وأدبا وحلما ، انه يخفى فى قلبه ضميرا سيئا ، ورغبة ملحة فى الايذاء بقدر ما أمكنه ، والصوفى الحق يفزع من هذه المظاهر الكاذبة ٠

الصوفى الحق يعرف قول الحبيب المصطفى " من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله ٠ والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه " ويعرف أن اللقمة الحرام مبطلة للثواب ، بل يذكر جيدا ويطبق الحديث الشريف " ما من لقمة حرام يلقمها العبد ما يتقبل الله منه صلاة أربعين يوماً " ٠

كما أن الصوفى على يقين من الله سبحانه وتعالى مطلع على القلوب ، عارف بخفاياها ، كاشف ما فى الضمائر والنفوس محاسب عليها ، قال تعالى : " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١) " وان هذه السواتر

---

(١) سورة ق الآية ١٦

البشرية حتما ستأتى فرصة تنكشف كلها ، ولايبقى شيء خلفها " يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ " (١) .

كل هذه وأمثالها تجعل الصوفى الحق يزيح من طريقه النوايا السيئة ، ويكره الضمائر الخربة ، ويتخلى عن اضمار الشر بالآخرين انه دائما يفوض الأمر لله ، ويصرف نفسه عن الايذاء مهما كانت الدواعى أو أحاطت به الدوافع ، أو اختلطت عليه الأمور ، لأن شاغله الوحيد أن يكون حيث أمر الله ، وأن يبتعد حيث نهى الله .

ان الصوفى الحق قابل العذر ، متجاوز عن زلات الناس ، جواد بما معه من مال وصحة ووقت ، انه يرى نفسه جنديا فى كتيبة أمرها الله تعالى بالاتجاه اليه ، والسير نحو تلبية الأوامر وتحقيق الخير للبشرية من خلال قواعد دينية ، أن يكون ماله من حلال ، وينفقه فى حلال ، ويحافظ على عقيدته سليمة صحيحة نقية ، وعبادته لله كاملة ، انه ملاك يمشى على الأرض ، وليس ذلك المنتسب أبدا : من ثم وجب التنبيه الى هذه الفوارق التى مازالت بحاجة لمزيد دراسة ، وكثير من العناية .

---

(١) سورة الطارق الآيات ٩/١٠

= منتسب ظل يردد الرضا بالأقدار ، وكانت كلماته لاتجد فـي قلوب الناس مكانا ، انها عبارات تخرج من فيه لاتجد قيمة لها الا عند التطبيق العملى ، وقد كان الناس يأخذون كلماته مأخـــذ التسلية من ماتت زوجه ، ومن فقد ولده ، ومن راحت ضحيـــــة الأحداث الطارئة أمواله ، بل كانوا يلتمسون عنده الآمال الطيبــة ويعتبرونه صورة للتقوى تمشـــى بين الناس .

شاءت ارادة الله أن يبتليه فى جاموسة كانت عنده ، حيث نفقت فهرع الرجل الى الجزارين أملا فى شرائها ، فسألوه انها قـــد ماتت فكيف نشترى ميتة ؟ وكيف نبيعها للناس ؟ والله قد حــرم أكل الميتة ؟

— اذبحوا بجوارها ماعزا ، ولطخوا مذبحها بدم الماعز ، وفـى الصباح بيعوها على أنها لحم طازج ، واذا أردتم التأكيـــد على أنها سليمة فأرسلوا الناس يسألونى ، وسوف أقسم لأنهـا مسألة تتعلق بالاضطرار ، والله قال " فمن اضطر " .

— ربما يتسرب الخبر الى أهل القرية ؟ وأنها جاموسة ميتة .

— زفوا هذا العجل أمام الناس ثم ادخلوه وأخرجوا الجاموسـة للناس على أنها العجل بعد قطع رأسها وسلخ جلدها .

ولكنه اختلف معهم على الثمن الذى يقبله اذ أنه غالى فـــى سعر الميتة ، وهم قد بخسوا ، واختلف المجرمان لصالح المسلمين فما كان منه الا أن صاح فى الناس بأن الجزارين لصوص ، وأنهـــم أكلوا لحم الميتة ، ورد عليه الجزارون بأنه مضلل ، وأنه وأنه ... وتلاحى كل منهما ـ المنتسب والجزارون ـ فطبق عليهم المثـــل : " اختلف اللصان فنجا المسروق " .

ثم لم يمض وقت غير طويل حتى هب الرجل من هدوئه ، محتجا على الله تعالى بفعله ، زاعما أنه خدم الله سنين عددا ، وغيره لم يعبد الا فى وقت قليل ، ومع هذا فالله منح هؤلاء المـــال ، والصحة ، والأولاد ، أما هو فمبتلى ، ولم يقبل الرجل ابتلاء الله ونهض غاضبا ، كأنه يعاقب ربه ، بل قالها صريحة ، لسوف أنقطع عن العبادة ، مادامت العبادة لاتجدى ، وهكذا انصرف الـــى الشيطان على ماكان ، والله عز وجل قال : " وَمِنَ النَّاسِ مَـــنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١)

---

(١) سورة الحج الآية رقم : ١١

= منتسب آخر كان يؤدى أعماله التى ظنها للصلاح أقــرب ، ورأى فى نفسه الكفاءة لقيادة فريق عمل يخدم فى موالد الصالحين ويسمونها " الخدمة " وأراد الله أن يظهر باطنه الذى يخفيــه فرسب ولده الأكبر فى الامتحانات ، وانفصلت كريمته عن زوجهــا ، ومرضت زوجه المرض العضال ، فشخص الرجل الى أحواله والآخرين وكأنه لايرضى بما قسم الله له .

فانقطع عن الخدمة التى كان يقوم بها ، وراح باطنه الذى كان يخفيه يبدو جليا ، فاذا هو سوء مضمر ، وسراب مســـتعر وظلام لايعرف بصيصا من نور الايمان ، فلما ماتت زوجه كفر بأنعــم الله وأشاع أن موالد الصالحين لهو ، بل تجاوز هذا الأمر زاعما أنه لاوجود للصالحين أصلا ، وراح يحكى قصصا هى الى الخرافة أقرب ، والأساطير أوفى ، وعن الحقيقة أكثر بعدا .

وكم أنبات حوادث الأيام عن أولئك ، وفى غابر الأيــــام وحاضرها ما يغنى عن ذكر مزيد من الأمثلة ، والذى يمكن قولــه هو أن المنتسبين للصوفية كانوا ، ومايزالون - نقطة ســـودا ، يحاول خصوم التصوف الصاقها به ، وما هى منه ، ولاهو لهـــا .

ان التصوف الاسلامى رباط أمين ، وعبادة صحيحة ، من خلال عقيدة صافية ، يقوم بها المؤمن تجاه ربه الذى أحبه ، وقام على أوامره ، ووقف عند حدوده ، الغاية الأسمى لديه هى ارضاء مولاه جل علاه .

ان المنتسب داخله مظلم ، وصراطه غير مستقيم ، ودنياه أغلى عنده من أخراه ، وآماله فى الناس أكثر من علاقاته برب الناس ، لايهدأ عند نوازل الزمن ، ولايرضى بما قسم الله ، يطالب باسقاط العبادة وهجر التكاليف ، واباحة الاختلاط ، وضرب الدفوف ، وسؤال الزهرة وشوشة الودع ، وقراءة الطالع ، والنظر فى الكف ، وكل بدعة تجد رأسها قد ولدت فى حجره .

والله عز وجل قال : " فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى يُصْرَفُونَ " (١) .

---

(١) سورة يونس الآية رقم ٣٢ .

ولو كانوا صوفية حقا - وهو ما لاينطبق عليهم الوصف به - لرضوا بالأقدار ، وعبدوا بحق الواحد القهار ، الذى علمنا أن الرضا بما قُدِّر يرفع درجة المؤمن عند ربه ، كما علمنا رب العرش العظيم ، أن نأخذ بالأسباب ، التى منها الدعاء ، وأن رضى الانسان المؤمن بما قدره الله له لاينافى أخذه بالأسباب أبدا ، وانما ترك الأسباب والاعتراض على ما تجرى به الأقدار من سمات غير المؤمنين بالله رب العالمين .

يقول الامام الغزالى : " فان قلت : فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له ؟

فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة ، كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذا الدعاء والبلاء يتعالجان ..

وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لايحمل السلاح ، وقد قال الله تعالى ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ، وأن لايسقى الأرض بعد بث البذر ، فيقال : أن سبق القضاء بالانبات نبت . وان لم يسبق لم ينبت ، بل

ربط الأسباب بالمسببات ، وهو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو أقرب ، وترتيب تفصيل المسببات على تفاضل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر ، والذى قدر الخير قدره بسبب ، والذى قدر الشر قدر لدفعه سببا ، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من تفتحت بصيرته" ... كما أن الدعاء يستدعى حضور القلب مع الله ، وهو منتهى العبادات ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " الدعاء مخ العبادة" (١) .

فما بالك بالمنتسبين قعدت بهم الأمور عند حد البلاء ، لايواجهونه بالدعاء ، وانما بالسخط والتبرم والازدراء ، ومع هذا يدعون أنهم من الذاكرين ، ويعلم الله أنهم من الغافلين ، لأن ذكر الله تعالى يسقط الذنوب ، لقوله صلى الله عليه وسلم " ذاكر الله فى الغافلين مثل الشجرة الخضراء ، وسط الشجر الذى تحات ورقه من الضريب " أى تساقط من الصقيع " فهل يتفق ذكر الله لدى المنتسب مع التبرم بما قدر الله ؟!

وهل أصحاب الضمائر السيئة ، والرغبة فى التجنى وايذاء المسلمين يمكن أن يكونوا لله ذاكرين ، والله عز وجل يقول : " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

(١) الامام الغزالى _ أحياء علوم الدين _ آخر الدعاء .

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ" (١) ، لاشك انك سترفع يديك ملوحا بأن نور الله لايستقيم فى قلب يشغله الشيطان بمكره وأذاه .

كما أن المنتسبين قد أعدوا لأنفسهم سلطانا ، واستخدموا بطانات وخدما وأعوانا ، وما كان من سلطانهم الا البغى ومن بطاناتهم الا السوء ، ومن خدمهم الا الرغبة فى تزيين الباطل لهم والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الله لم يبعث نبيا ولا خليفة الا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالا ، ومن يوق بطانة السوء وقى " (٢) وما رأينا أو سمعنا عن منتسب وجدت له بطانة الا وتزين له المنكر ، وتصرفه عن المعروف ولو عكست لانصرف المنتسب عنهم ، وكان خيرا له وللجميع ، ولكن... انهم لايسعدون الا مع البطانة ..

أما الصوفية أهل الصلاح : فان آثار الصلاح " تلوح فى جباه أهل الخيرات ، شيمتهم التحلم والاصطبار ، وديدنهم الصفح ، والعفو

---

(١) سورة الرعد الآيتان ٢٧ ، ٢٨

(٢) الترمذى رواه فى الشمائل من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه .

والاستغفار ، والجود والسخاء والايثار ، والمصافاة مع المساكين والفقراء ، والحنو والحدب على الضعفاء ، والاعراض عن زخارف الدنيا ، واتباع الشهوات والأهواء" (١) .

أما الصوفي الحق فلا أنس له الا بربه ، وهاك طائفة مما ذكر عن السادة الصوفية لا عن المنتسبين :

* ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه كان يقول : " أعلى الدرجات أن تنقطع الى ربك ، وتستأنس اليه بقلبك وعقلك ، وجميع جوارحك حتى لاترجو الا ربك ، ولاتخاف الا ذنبك ، وترسخ محبته في قلبك ، حتى لاتؤثر عليها شيئا ، فاذا كنت كذلك لم تُبَل ، في بر كنت أو في بحر ، أو في سهل ، أو في جبل ، وكان شوقك الى لقاء الحبيب ، شوق الظمآن الى الماء البارد ، وشوق الجائع الى الطعام الطيب ، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل ، وأحلى من الماء العذب عند العطشان في اليوم الصائف" (٢) فهل رأيت في المنتسبين شيئا من ذلك ؟!

---

(١) الامام محمد بن ابراهيم الوزير الصنعاني ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص ١٠٧ مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بالقاهرة ١٣٤٩ هـ .

(٢) الامام الحافظ ـ ابن رجب الحنبلي ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ص ٥٣ ط دار الحديث أولى ١٩٩٤م ١٤١٤هـ تخريج أحاديث وتعليق عصام الدين الصبابطي .

* الفضيل بن عياض : كان رضى الله عنه يقول : " طوبى لمن استوحش من الناس ، وكان الله جليسه " (١) فهو يرجو الخير الكثير لمن فزع من بطانة السوء ، الذين يُلبسون الباطل ثوب الحق ويزينون الشر خيرا ، فهى بطانة غير مقبولة ، من ثم فالمسلم الحق أُنسه بالله يجعله يعيش معه وحده ، انه قرة عينه ، وراحة قلبه ، وموطن فؤاده ، وسلواه .

* معروف الكرخى : كانت وصيته لسائل أن " توكل على الله حتى يكون جليسك ، وأنيسك ، وموضع شكواك " (٢) فهذا المنهج هو المعتمد لدى الصوفية الأعلام ، الذين عرفوا الله تعالى ، فأعلى ذكرهم وأبقى مع الأيام أثرهم ، بل انى مع من يطالب بمعاقبة المنتسبين والضرب على أيديهم ، والدفع بهم الى مواطن الخير ، بدل الوقوع فى براثن الشيطان .

جاء فى صحيح مسلم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من

(١) المصدر السابق نفسه ص ٥٣
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٣

بعد هم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهد هم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهد هم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهد هم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل " (١) .

وقد شغل أكثرهم نفسه بتأليف الكتب في السحر ، والنجوم ، والحروف ، واختاروا لها أسماء ذات دلالة عالية ، وما هي من الحق في شيء ، بل قد كانت من أسباب الضلال التي وقع فيها أبرياء كل جريمتهم أنهم وثقوا في هؤلاء أو صدقوهم سواء فيما كتب أو نسب اليهم (٢) .

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٥٠

(٢) من ذلك الأوفاق المنسوب للامام الغزالي ، وشمس المعارف الكبرى ، ومنبع أصول الحكمة لأبي العباس احمد بن على البوني والسر المظروف في علم بسط الحروف للشيخ محمد الشافعي الخلوتي الحنفي ، والدرة البهية في جوامع الأسرار الروحانية للشيخ / على بن محمد الطندتائي القارى ، والأصول والضوابط المحكمة ، وبغية المشتاق في علم الأوفاق ، وشرح العهد القديم المعروف بالبرهتية ، وشرح الجلجلوتية الكبرى وغيرها من الكتب التي تتناول هذه المسائل .

من ثم نخلص الى أن المنتسبين للصوفية يجب تبصيرهم بأمــور الدين ، وصرف الناس عنهم ، ومقاومتهم بالكلمة المهذبة والموعظـة الحسنة ، فما يزالون مؤمنين ، وان كانت معاصيهم مطبقة ، فـان " لا اله الا الله تحول بينهم والكفر ، الا أن يكونوا قد نطقــوا بها وقلوبهم مازالت تعتصم بمحادة الله ورسوله ، فهذا شــأن آخر ، لانملك قبوله ، ولكنا نقف مع النقل المنزل فى مواجهتهــم وغيرهم كما فعل سلفنا الصالح ، ابـن تيميـة وابن الجوزى وغيرهما .

كما أن اتهام الصوفية باستقاء معلوماتهم من الآثار الهنديــة والأفلاطونية والفارسية والهرمسية وغيرها اتهام فى غير موطنه لأن محل الاتهام يوجه الى المتصوفة المنتسبين للصوفية وحدهم ، ولا تلحـق بغيرهم ، لأن الصوفية مصدر الهامهم الثقافى والدينى هو النقــل المنزل فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .

وليس صوابا القول بأن " بعض صوفية الاسلام يلجأون فى التصوف الى بحث ميتافيزيقى تأثر بكل ما حوله من فلسفات ـ أخذوا من الفيدا الهندى ، وأخذوا من الاشراقية الفارسية ، واستمدوا من الفيــض

الأفلوطيني ، وتأثروا بأفلاطون وأرسطو ، ثم وجدوا مصدرا هاما في المجموعات الهرمسية ، وانتهوا الى عقائد مختلفة أهمها عقيدة الحلول ، وعقيدة وحدة الوجود " (١)

والتصوف الاسلامي وليد بيئته القرآنية التي لها طابع مميز عن كل ما سواها ، انها لاتخرج عن ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهما المصدر الصحيح الذي يمكن الاعتماد عليه وحده ، ولم يكن الصوفية الا على نهجهما يسيرون ، ولست أوافق الدكتور النشار على ما ذهب اليه .

أما دعواه بأن " التصوف السني انما كان ثورة الضعفاء والفقراء على مجتمع ساده التحلل الاجتماعي والاقتصادي " (٢) فلا أظنها تقوم على شيء صحيح ، لأنه لايوجد تصوف سني وآخر قرآني ، وثالث فقهي ، ورابع نحوي وخامس أصولي مثلا ، ولكن يوجد تصوف واحد صحيح مستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، أما غيره فهو انتساب للتصوف والصوفية وليس بشيء منهما .

---

(١) الدكتور / على سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج ١ ص ٥٣ ط ٨ دار المعارف .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٥٣ ط ٨ .

كما أن وصفه للصوفية بأنهم الضعفاء والفقراء أمر لا أساس له ، بل أن جمهرة الصوفية كانوا أغنياء وأقوياء ولم يكونوا أبدا ضعفاء أو فقراء ، كما أنهم في كل حالاتهم لم يقوموا بأية ثورة وانما كان شأنهم الالتزام بما أنزل الله في قرآنه الكريم ، وبلغ به رسوله الأمين ولا يقال على الالتزام أنه ثورة ، للفرق الكبير بين المفهومين .

هم فقراء الى الله ، محتاجون اليه ، ضعفاء عن اراداتهم لارادته جل علاه ، قد خضعوا الهام اليه ، وعنت الوجوه لذكره جل علاه ، فان كان ظاهرهم الفقر فهم بالله أغنياء ، وان كان بهم ضعف فهم بالله أقوياء ، فهم كما وصف الحديث الشريف " المؤمن غر كريم ، والمنافق خب لئيم " (١) فالصوفية كرام عند الله ، أقوياء به ، عزتهم منه جل علاه .

١٥ _ تكوين فرق من العاطلين :

بلغ من قسوة المتعصبين أن كونوا فرقا من العاطلين اصطنعوا لهم محميات ، قد تتناسب معهم ، وقد لاتتناسب ، ومهمة هذه الفرق متعددة ، حتى يمكن القول بأنها فرق متعددة المهام ، فمنها

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذي ، والحاكم .

أفراد يقومون بتحصيل العوائد وجمع الزكوات ، والبحث عن أثرياء الطريق ، ومحاولة اقامة جسور بينهم ، حتى يمكن الاستفادة من امكانياتهم المالية والأدبية ·

ويصبغ المنتسب على أفراد هذه الفرق لقب المريد ، أو الدرويش وربما الشيخ-رغم أنه يدخن الحشيش ويأكل الأفيون ، ويحرق البانجو ويمضغ القات ، ويفعل كل مايكره ربه صاحبه يشأن - وهو لا يعرف شيئا عن التصوف ولا عن الصوفية ·

وأذكر أن خلافا شب بين مريدين لسبب جباته الزكوات وتحصيل العوائد ، وكيفية اقتسامها ، ومحاولة كل واحد منهم الاستئثار بالنصيب الأوفى ليحل بين قلب شيخه كل الثقة ، ويفوز بلقب يجعله أقرب الى أسرار شيخه ، ومنطقة أفكاره ، ومواطن حبه ·

بعض هؤلاء يجيدون الطرب والمديح ، وبعض آخر صاحب صوت منغم يحفظ التواشيح الدينية التى لا أصل لها من شرع كل ما فى الأمر أنها نسبت الى الدين ، وقد رأيت بنفسى — ومعى جمع من العلماء الأزهريين — أكثر من منشد فى مولد أحد الصالحين ، ظل المنشد يأكل ويشرب ، ويدخن وتخرج من فيه ألفاظ غير مقبولة ، وأذَّ نَ

لصلاة المغرب فلم يقف معنا للصلاة ، وعدنا إليه فما برح مكانه حتى نودى لصلاة العشاء وصلينا ، بينما هو على سابق عهده من العصر حتى إذا بدأت أعمال الانشاد بعد صلاة العشاء ، وقف منشدا مترنما ، مرددا أبيات الشوق والحب لأهل البيت ، ومزيد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجاء الشفاعة ، والانابة ، ودعوى السير والاقتداء ، واستغربت هذا الظالم لنفسه ، الذى لم يعرف أين الطريق الحق ، فلا هو أدى الصلاة ، ولا حافظ على الصحة ، ولا التزم شيئا من شرع الله .

وبعض ذالك يجمعون العوائد ، ويقومون بخدمة المنتسب فى داره ، والقيام على مصالح زواره ، والمحافظة على كل ما يشير به شيخهم ويأمر ، إنهم كأفراد الفرقة الموسيقية لاعلم لهم بشئ عن النوتة ، ولكنهم يتحركون باشارات من يديه ، أو رأسه ، بل وربما رجله ، انهم رهن أية أشارة تصدر عنه ، ولكل من هذه الفرق واجبات لاتجاوزها الا بأمر من شيخهم نفسه .

بل ذكر لى بعض المنتسبين أن تنظيماتهم محكمة ، حتى أن جالب الخبز ، وطالب الأرز ، وصاحب الأدم واللحم ، يعرف تخصصه معرفة تفوق دروس الجامعة ، وتعليمات الأمن المركزى ، وتوجيهات

أمن الدولة ، ولما سألته من أين لهم بهذه التعليمات :

– اننا ندربهم عليها ، ونعمل جيدا على الاستيثاق منهم قبل تكليفهم .

– ما هي مقومات هؤلاء اذن حتى تدربوهم على المهام الموكلة اليهم ؟

١ – السمع .

٢ – الطاعة .

٣ – عدم الاعتراض أو السؤال .

٤ – الأمانة .

وقد تجد الغرابة طريقها الى قلبك حين ترى هذه التعليمات خالية من العقيدة الصحيحة ، والايمان السليم ، والالتزام بالواجب الذى شرعه رب العالمين ، ولايختلف هؤلاء المنتسبون فى كثير من هذه التفاصيل بل يشتركون فيها على نحو يجعلها شبه دائمة فى سلوكياتهم جميعا .

والحق أن هؤلاء العاطلين قد احتلوا مناطق نفوذ داخل دوائر شيوخهم ، حتى ان بعضهم صار يتحدث نيابة عن شيخه كأنما قد وكل به الأمر ، أو وسد اليه ، وتجاوز بعضهم الحد فانتسب الى ذلك

الشيخ الذى كان يوما ما مولى لشيخه أيضا ، وهكذا تتوالى الأنساب الساقطة ، ويحاول أصحابها العلو بها والارتفاع متناسين الأثـــــر " الناس مؤتمنون على أنسابهم " .

ولايغربن عن ذى بال : ما طاب فى معاشرتهم ، من صولجـــان مغموز ، وسلطان وعرش مهزوز ، ودعاوى فضفاضة لايعرف لهـا رأس من ذنب ، ولايد من ذيل ، وما أكرها وكأنى بالآية الكريمة أصرخ بها فى آذانهم إن كانوا يسمعون " وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ " (١) .

فالحديث الشريف كشف مظاهر عديدة عن هؤلاء العاطلين يقــول عليه السلام " ما اكتسب المرء درهما من غير حـلـه ينفقه على أهـلـه ، ويبارك له فيه ، أو يتصدق به فيقبل منه ، أو يخلفه وراء ظهره ، الا كان ذلك زاده الى النار " (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم " مـــن اكتسب من حيث شاء ولايبالى أدخله الله — تعالى — النار مـــن أى باب كان ولايبالى " (٣) .

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ١٠٣ .
(٢) اتحاف السادة المتقين جـ ٦ ص ١٠ وينظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٢٩٢ .
(٣) اتحاف السادة المتقين ٦ / ٨ ولفظ الحديث " من لم يبال من أيـن اكتسب المال ، لم يبال الله من أين أدخله النار " .

لقد وضع الحديث الشريف ضوابط لايفكر المنتسبون التماسها على نحو مقبول ، انهم يهجرونها ، وان قاموا بها ، لاتراها الا مظهرا خارجيا ، وشكلا غير مقبول ، فعن عبد الله بن سلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام "(١) .

وفى رواية عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وكونوا اخوانا كما أمركم الله عز وجل " (٢) والمطالع لأحوال المنتسبين للصوفية يراهم قد تخالفوا الى ابعد حد ، يكفى أنه " كلما دخلت أمة لعنت أختها " وما من فرقة منها الا وهى تلعن غيرها ولايرضى منتسب أن يجعل غيره شيخا له ، ولو كان من أهل العلم والمعرفة .

بل الكبر فى طباع أولئك العاطلين ، وتجاوز الحدود من طبائعهم واهمال السنة الصحيحة ديدنهم ، ومسلك الابتداع ، والقول على

---

(١) سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٠٨٣ رقم الحديث ٣٢٥١

(٢) الامام ابن حجر _ المطالب العالية رقم الحديث ٢٦٥١ وأخرجه ابن ماجة فى سننه برقم ٣٢٥٢ ، وفى معناه وردت أحاديث كثيرة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يقل ، أمر في داخلهم مقرور ، مما يجعلهم أبعد الناس عن مسلك الحق ، أخرج الامام مسلم فى صحيحه " عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف " (١) .

من ثم . فان تكوين الفرق حول المنتسب — سواء لتبليغ الناس أوامره ، أو جمع العوائد والزكوات ، أو ترديد مقالات عن الشيخ نفسه ، توحى لغيره بأنه صاحب علم ومعرفة ، وأنه صاحب وحى والهام ورؤيا صادقة ، فهذا كله ليس لديهم دليل واحد عليه ، بل كافة الشواهد لغير صالحهم .

يقول ابن عجيبة عنهم : انهم " حثالة المنتسبين ، فارحمهم وعظهم ، ونبههم وذكرهم ، وحذر الصادقين من فعلهم ، ثم ان تمادوا فلا تشغل بهم ، ولا تغير الا حيث يجب عليك التغيير بحكم الشرع ، فهو فى كل أمر بين متفق عليه ، تقدر على تغييره من غير أن يؤدى لمنكر آخر أعظم منه أو مثله " (٢) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ٩ ، ١٠ المطبعة الأميرية .
(٢) الامام الشيخ / احمد بن محمد بن عجيبة الحسنى — الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٣٤٠ ط عالم الفكر .

انها تدينهم بل وتجعلهم فى موطن الشبهات على اقل تقديـر ،
ولسنا فى معرض الحديث عن مصادر الرزق التى يعيشون عليها الآن ،
اجل سمات المنتسبين تحتاج مؤلفات طويلة ، من حيث حصرها وتناول
جزئياتها ، ووصفها ، وبيان الأصليات فيها من الثانويات ، والتعرف
على الثوابت فيها من المضافات ، وذلك يحتاج وقتا ليس بالقليل .
وذلك ما سوف نلتفت اليه فى آن آخر ، ان اطال الله العمـــر
وبسط فى الصحة .

١٦ ـ الخلط بين تاريخ الصوفية ونظرياتهم :

السوفى الحق يعرف حدوده ، وكيف يقف عندها ، ومتى ينطلق ،
واضعا فى اعتباره ضرورة المحافظة على حقوق الآخرين ، والتعريـف
بها متى كان ذلك ضروريا ، فهو يفرق بين التصوف وعلمه ، كما يفصل
بين تاريخ الصوفية ونظرياتهم ، ويعرف مدارسهم ورجالهم ، ويميـز
بين كل منها تمييز العالم الخبير بما يقدم عليه .

وقد سطر الصوفية صفحات جيدة فى هذا المضمار ، ومازال
مضيئة رغم محاولات خصوم التصوف تشويه وجهها الجميل ، فمـن
آثار الفضيل بن عياض ، الى امثال سلمان الفارسى ، الى طبقـات

السلمى وغيرها ماتزال محل قبول الرأى ، وصحة السند وسلامة المحتوى العلمى ، الذى حافظ عليه الصوفية علما وعملا .

كما ذخرت مؤلفاتهم بالحكم البليغة ، والآثار النادرة التى جاءت شرحا لفهم فى القرآن الكريم ، أو توضيحا لمعنى حديث جليل ، من ذلك ما أثر أن سلمان الفارسى الصحابى الجليل كان يقول : " ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى :

= مؤمل دنيا والموت يطلبه

= وغافل وليس بمغفول عنه

= وضاحك ملىء فيه لايدرى أساخط رب العباد العالمين أم راض عليه .

وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى :

= فراق محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه

= وهول المطلع .

= والوقوف بين يدى ربى عز وجل لا أدرى الى جنة أو الى نار" (١) .

وكذلك حذيفة بن اليمان ذلك الصحابى الجليل الذى كان يمثل صوفية عصره حتى تميز عن كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الدكتور / على سامى النشار _ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج٣ ص ٢٢١

فلم يغفل الصوفية ، ولم يهمل التصوف ، بل كان تصوفه قائما على فهم عميق لكتاب الله وسنة رسوله ، . وكان يردد عند اجابة أى سؤال يعرض عليه : عليكم كتاب الله ــ عز وجل ــ وعاش حذيفة عيشته رغم أنه كان أميرا على المدائن والكوفة ، بل كان يركب حماره وهو ساد ل رجليه وقد شاهده العرب والعجم وهو على حال الأنبياء من ركوب الدواب وتناول خبزه وهو فى أغنى الأحوال وأرق الحالات " (١) .

بل كان حذيفة يمثل صورة نقية وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم بما يميز التصوف والصوفية عن مدعى التصوف والمنتسب للصوفية ، حتى أن بعض المصادر تجعل من صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفعلهم نظريات تنسب اليهم ويقتدى فيها غيرهم بهم .

ولعل المعرفة التى كانوا يحرصون عليها ــ باعتبارهم صوفية ــ وحبهم لها أقام فواصل كبيرة بينهم وبين المنتسبين للصوفية ، لأن الصوفى عارف تعنيه المعرفة ، أما المنتسب فانه يدعى العلم ويظن فى نفسه المعرفة وما هو بعالم وليس عنده شئ من المعرفة .

---

(١) الذهبى ــ سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

لذلك رأينا المنتسبين للصوفية يخلطون بين المدارس الصوفية والنظريات الصوفية ، كما لايفرقون بين سيرة الصوفي وفكره ، فاذا أضفت الى ما سلف أن هناك فوارق بين التصوف ورجاله ، وبين النظريات والمدارس أدركت أن المنتسبين للصوفية لايعلمون عن التصوف شيئا .

وسواء كان الصوفية من أهل العلم بالحديث أو الفقه أو السير أو علوم التفسير والقرآن وغيرها ، فان هذا وارد عنهم ومؤكد لديهم أما غيرهم من المنتسبين فلم يقع الدارس على شيء يذكر يمكن نسبته اليهم ، ولذلك وجدنا في المنتسبين للصوفية من يخلط بين الزهد والفقر ، ومن لايفرق بين العبادة والخوف ، ومن لايستطيع التمييز بين الحيلة والقدرة .

حتى أن بعضهم ربما سار على نهج غير مطلوب فالتمس عند أحد الصوفية عدم وجود رغبة له في الزواج ، فاعتبر ذلك نوعا من التنسك والرهبنة ، وربما نسب ذلك الى القبس من المصادر غير الاسلامية ، ولو دخل الى ميدان الرجل ربما أدرك أن هناك علة منعته من الزواج تتعلق بصحته العامة أو ما يخصه على نحو خاص .

وكان داود الطائى ممن وقعت عليهم مثل هذه المسائل ، اذ كان الرجل فقيها وعلما من أعلام الصوفية وزاهدا من الزهاد العابدين ، وكان الناس يتلمسون العلم عنده ، كالفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وسفيان الثورى الذى كان يبكى بين يديه وكانت للرجل نظرية كبيرة فى الخوف من الله ، انه خوف اختلط بالحب والمعاناة ، ولذا نراه ألزم نفسه حياة الزهد التى لم تكن معروفة فى الكوفة .

وامتناعه عن الزواج راجع الى انه يشعر بما فى نفسه والتى عبر عنها القشيرى بقول داود نفسه " الهى همك عطل علىّ الهموم الدنيوية ، وحال بينى وبين الرقاد " (١) .

لقد كان الطائى صوفيا بمعنى الكلمة ، انه يصوم عن الدنيا ويرى الموت افطار المؤمن ولابد أن يكون ذلك كله فى جماعة المسلمين ، ولم يطلب من أحد تقليده ، أو اتباعه ، بل ان الآثار الصحيحة دلت على أن الرجل كان يديم الصلاة فى المسجد وظل على هذا الحال حتى لقى ربه .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٧٥

اذاً الصوفية لم يخلطوا بين النظريات ، ولم ينسبوا الى أحد مالم يقل به ، انهم يعرفون العلم اللدني الذى يميز بين الناس ، ولم يعرفوا العلم السطوى أو العلم الوهمى ، ونسبة الأشياء لغير أصحابها ، بل تلك منة المنتسبين اليهم ، حيث ينسبون العلم لأنفسهم ويقعون فى غيرهم ولايعرفون رجال الصوفية بالقدر الذى يجب أن يكون لهم .

ثم أن المنتسبين للصوفية وقعوا بين أنواع كثيرة سموها تصوف ، وما هى منه بشئ ، منها على سبيل المثال :

- التصوف الفلسفى (١)
- التصوف الغنوصى (٢)
- التصوف الشيعى (٣)

---

(١) هو التصوف الذى دارت موضوعاته حول نظريات الفلسفة الثلاث : الوجود ، المعرفة ، القيم ، وقد اختلط هذا التصوف الفلسفى بغيره من المذاهب والنظريات اليهودية والمسيحية وتأثر بها بعض المنتسبين للصوفية .

(٢) هو الذى يقوم على المذاهب والنظريات البعيدة عن روح النص المنزل وفيها ميل الى التنجيم والكهانة والميل الى الغيبيات المتوهمة وهو يقع بين المذاهب الشرقية والغربية على السواء .

(٣) هو الذى يقوم على دعوى التشيع لآل البيت بالصورة التى تخرج بصاحبها عن حد الاعتدال الى المغالاة ، وقد قيس هذا من الجانب الاشراقى وغالى بعضهم فيه بالشكل الذى دفع غيرهم الى اتهامهم بما يخرجهم عن ملة المسلمين .

وقد كانت العلاقة — ومازال — وثيقة الى حد كبير بين التصوف الفلسفى والتصوف الشيعى ، وقد تمثلت تلك العلاقة فى دخـول فكرة الامام والنقباء والحجج والوصفاء بحيث انعكست — باعتبارهـا تصوفا شيعيا — على فكرة الغوث والأقطاب والأبدال عند الصوفيـة الفلاسفة مما يجعل العلاقة بينهما لايمكن تجاهلها أو التردد فـى الحكم على وجودها .

فاذا أردنا تقديم نماذج لهذا النوع من التصوف البعيد عـن روح النص المنزل ، فانـا نجد أمثلة عديدة منها :

* فكـرة التأويـل :

هذه الفكرة رددها كثير من المنتسبين للصوفية ، حيث رأوا أن آيات القرآن والأحاديث النبوية لها ظاهر يمكن أن يعرفه النـاس ولها باطن يستقل بمعرفته الامام وخاصته ، ولايقصدون بالامـام ما يعرفه علماء العقيدة والأصوليون ، من امام للمسلمين وانمـا يقصد بالامام ماكان قد نص عليه بالوصية عندهم وهو الذى يقـوم بتدبير أمورهم وتصريفها .

وقد انغمس في هذا التيار كثير من المتصبين حتى فسروا القرآن الكريم بالنظريات الفلسفية وتسللت الاسرائيليات اليه من خلالهم وغيرهم ممن كانت لهم رغبة ملحة في افساد تفسير القرآن الكريم (١) .

فالمنتسب للصوفية يقع في التأويل الخارج عن الحد المقبول حتى لو حاول فهم القرآن الكريم وتفسيره ، وآية ذلك أن الله تعالى قال في محكم التنزيل "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ" (٢) ، فاذا هم يفسرونها على نحو غير مقبول ، حيث زعموا أن الله خلق الجن والانس لاحتياجه لعبادتهم ولو لم يكن محتاجا الى تلك العبادة ما خلق الجن والانس أبدا .

وهذا التأويل خاطئ لأنه يصف الله تعالى بالاحتياج وكيف يكون إلها وهو محتاج ، انه سبحانه وتعالى الغني الكبير المتعال يقول الامام ابن كثير : " انما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي

---

(١) يراجع التفسير والمفسرون / الدكتور محمد حسين الذهبي جـ ٢ وكذلك الاسرائيليات في التفسير للدكتور / محمد أبو شهبة .

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

اليهم ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله أى ليقروا بعبادتى طوعا وكرها" (١) .

اذن الفهم الصحيح يؤكد أن اللام فى " ليعبدون " ليست لام تعليل على ما هو المراد فيها عند النحاة ، وانما خرجت عن معنى التعليل لمعنى الأمر ، وهو لون من ألوان المجاز على ما يعرفه البلاغيون ، ويكون المراد منها ـ والله أعلم بمراده ـ خلقت الجن والانس وعرفتهم بذاتى وأمرتهم بعبادتى ، وتقع المسألة فى باب الحكاية ، وليس من باب التعليل .

أجل . ان أفعال الله تعالى محكمة ، ولاتخلو من حكمة يمكن اعتبارها تعليلا ، وليس علة ، والفرق بينهما ظاهر لايحتاج لمزيد جهد ، وبخاصة متى عرفنا أن العلة التى تقع فى دائرة الاحتياج لايمكن نسبتها الى الله تعالى أبدا ، أو وصفه جل علاه بها ، أو تسميته بشىء من متعلقاتها .

كذلك فهم المنتسب قول الله تعالى عن موسى الكليم وفتاه :
" فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا "(٢)

(١) الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٢٣٨
(٢) سورة الكهف الآية رقم ٦٥

بأن " لَدُنَّا " معناها عندنا ، فكأنه فهم الآية : آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من عندنا علما ، رغم أن المعنى على فهم المنتسب يكون ركيكا ، والعندية غير مقبولة فى لدنا التى جاءت فى الذكر الحكيم على ماهى عليه . أما لماذا ؟

فلأن فى الآية الكريمة رسما توضيحيا لسمات العلم اللدنى والالهامى الذى يوليه الله الصالحين من عباده ، ويتميزون به عن قرنائهم من كونه علما الهاميا ، وطريقا كشفيا ، ونورا ربانيا يأتى الى قلوب العارفين فتستضئ به ، ويتحقق الاصلاح العام من خلاله .

يقول الامام القشيرى : " العلم من لدن الله هو ما يتحصل بطريق الالهام ، دون التكلف بالطلب .. هذه ناحية كما يُعَرِّفُ بأنه ما يُعَرِّفُ به الحقُ أولياءه فيما فيه صلاح عباده " (١) ، وفهم المنتسب وتأويله لايتفقان مع القواعد الثابتة فى فهم القرآن الكريم أو تأويله ، لأنهما تأويلات فاسدة ، وتخريجات غير مقبولة لاعلى ميزان الشرع ولامتفقة مع حكم الصالح من العقل .

وكثيرا ما تكرر أن " الهدف النهائى من خلق الانسان هو العبادة الموجهة لله عز وجل وهو الهدف المعلن فى الآية المباركة "(٢)

(١) الامام القشيرى _ لطائف الاشارات جـ ٤ ص ٧٩

(٢) حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد الثالث عشر ١٤١٦هـ١٩٩٦م

ولسنا معهم ، ولا علماء الأشاعرة وأهل السنة والجماعة والا كانت أفعال الله معللة ، وهو ما لم يقل به واحد من شيوخ المذهب على ما هو منصوص في مؤلفاتهم المعتمدة .

يقول الامام الغزالي : " فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد وعشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب الى الغرض " (١) .

ومما لاشك فيه ، هو أن القرآن الكريم ، وصحيح السنة النبوية المطهرة هما المصدر الأصلي ، والمنبع الأساسي للصوفية ، حيث ارتشفوا من رحيقه ، وكانوا حملة أمناء لتعاليمه " تمسك به الزهاد والنساك ، والعباد الأوائل حيث كان صدر الاسلام ، وقد التزمه محققو الصوفية فيما بعد ، واعتبروا النقل المنزل هو الدعامة القوية التي شادوا عليها حياتهم الروحية تقربا لله رب العالمين .

لم يخرجوا بالقرآن الكريم عن الهدف الأسمى ، ولم يميلوا بالحديث الشريف عن الغاية السامية التي صاحبته طيلة قرون متعاقبة

(١) الامام الغزالي — احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٩ تحقيق الدكتور/ بدوي طبانة .

لم يدلفوا الى تأويل فاسد ، أو ينزلوا الى ميد ان تعصف بهم الأنواء فيه ، وانما تمسكوا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ، مع اجراء الألفاظ على ظواهرها وتفويض الأمر فى معانيها لله رب العالمين .

حقا لكل علم ظاهر وباطن ، وحقيقة وشريعة ، لكن نظرة النـــاس اليهم ليست على ناحية واحدة ، فمنهم من استعداده يعلـو بــه ، بينما استعداد الثاني يهبط به ، وحيث أن الدين مشتمل علـــى احكام وأسرار ، فان استفادتهم منه راجعة الى الاستعداد الفطرى — الاستعداد الخاص — لكل منهم على حدة ، ولكن مَنْ الذى يعرف تلك الأسرار :

هل المنتسب ؟ أم العالم العابد وهو المعبر عنه بالصوفـــى الحـقيقى ؟

الجـــواب : أن الصوفى الحقيقى يفيد ويستفيد ولا يخرج بتأويله الى وجه غير مقبول شرعا ، لأنه اشرعن الصوفية التمسك بالنقـــل المنزل ، فأبو سعيد الخراز يُحكى عنه انه قال : " كل باطن يخالف الظاهر فهو باطل " ويؤكد الجنيد مقولة " إذا رأيتم الرجل يطير فـى الهواء ، ويمشى على الماء ، ولايتبع الشريعة فهو شيطان مارد .

وقد تعقب شيخ الاسلام ابن تيمية أمر التأويل عند المتصوفة وكشفه وحكم عليه أنه بدعة ، وأن المنتسبين أولياء للشياطين" (١) مبتدعة يجب الحذر منهم ، والابتعاد عنهم ، والضرب على أيديهم بسوط شرعي حتى لاينخدع الناس بهم ، أو يعتقدون صدق أقوالهم وصحة أفعالهم .

وكان ابن تيمية قد حاجّ فريقا منهم فقالوا له " نحن نتوّب الناس من المعاصي ، فقال لهم ، مِنّ ماذا تتوبونهم ؟ قالوا : نتوبهم من قطع الطريق ، والسرقة ونحو ذلك ، فقال ابن تيمية لهم : ان حال العصاة قبل تتوبيكم خير من حالهم بعد تتوبيكم . فقالوا له لماذا ؟

فقال لأنهم قبل التتويب كانوا فساقا وقعوا في معاص يعتقدون تحريمها ، ويرجون رحمة الله والتوبة عنها ، فلما وقع تتوبيكم لهم صاروا ضالين مشركين خارجين عن شريعة الاسلام ، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله (٢) .

---

(١) وألف كتابا سماه ـ الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان ـ كشف فيه زيفهم وردّ باطلهم .

(٢) شيخ الاسلام ابن تيمية ـ التصوف ص ٤٧٢ بتصرف يسير .

قالوا كيف ذلك ؟

قال : لأنهم جاروكم في البدع ، واعتقدوا صحتها ، والبدع التي هم عليها شر من المعاصي التي كانوا فيها ، لقد كانت المعاصي تؤرقهم ، وتشعرهم بالذنب ، وتحيلهم على التوبة التي كانوا يرجونها من الله ، أما الآن فان البدع قد غشيتهم وظنوها أعمالا صالحة ، وما هي الا الشرك والضلال ، فماذا بعد الكفر الا الضلال .

والمأول على هذا الحد الذي يخرج بالنقل المنزل الى معان غير مقبولة شرعا مبتدع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتاله وأمثاله ، روى في الصحيحين عن علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه وغيرهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَقْسِم ، فجاء رجل ناتئ (١) الجبين ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم " يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الاسلام كما

(١) النتوء هو البروز في المكان من غير انفصال عن أصله — المعجم الوجيز ص ٦٠١ والمراد ظهور علامات الصيام والصلاة على جبينه .

يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد " .

وفي رواية " لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل ، وفي رواية " شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه ، وعقب ابن تيمية شارحا الحديث بأن " هؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم ، وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهم ، وقتلهم علي بن أبي طالب، ومن معه من أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته " (١) .

وهناك فرق بين التأويل المقبول بشروطه الشرعية ، والآخر المردود لمخالفته للشريعة الاسلامية ، فالأول يعنى به الراسخون في العلم بعد أن يفوضوا حقيقته الى الله تعالى ، ويؤجر الراسخ في العلم مرتين ، أحدهما بالايمان به ، والثانية بالاجتهاد في فهمه والتعرف على مراميه .

أما تأويل المنتسبين للصوفية فمخالف للشريعة الاسلامية يقول الامام البقاعي : " وأما هؤلاء الذين تشبهوا بالصوفية — وتبه

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية — التصوف ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

العلماء على أنهم ليسوا منهم - ودلسوا على الناس ، ولبسوا أحوالهم ، ليقطعوا الطريق على أهل الله ، وهم يظهرون أنهم منهم(١) فأمرهم مردود عليهم ، وتأويلهم غير مقبول منهم .

ولا يزعمن زاعم أن شهادة البقاعي مردودة ، لكونه من الفقهاء ورجال التفسير ، وأنه كان في خصومة دائمة مع ابن الفارض وابن عربي ، وقد حمل عليهما حملة شديدة كان لها أثرها القوى على حياة الرجلين - لأن البقاعي أجاب عن هذا بنفسه حين قال حاكيا عن نفسه وموقفه من الآخرين في مثل هذه الأسئلة .

" فان قالوا : أنت تبغض الصوفية . فقل : هذه مباهتة ، انما أبغض من كفره مَنْ أُجمعنا على أنهم صوفية ، مثل الجنيد ، وسرى السقطي ، وأبى يزيد ، وأبى سعيد الخراز ، والقشيري ، والشيخ / عبد القادر ، والشيخ شهاب الدين عمر السهروردى صاحب العوارف فان بعضهم قال : طريقنا مشتبك بالكتاب والسنة ، فمن خالفهما

---

(١) الامام البقاعي / تحذير العباد من أهل العناد ص ٢٠٩ تحقيق الشيخ عبد الرحمن الوكيل ط ١ سنة ١٣٧٢ هـ وقام المحقق بوضع الكتاب تحت اسم " مصرع التصوف " وفي الأصل فان الامام البقاعي ألف كتابه " تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي " وكتيبا آخر هو " تحذير العباد من أهل العناد " وجعلهما المحقق تحت اسم واحد هو مصرع التصوف لذا لزم التنويه .

فليس منا " (١) .

اذن يمكن القول : بأن المنتسبين للصوفية كانت فكرة التأويل من العوامل التي كشفت خلطهم بين المدارس والنظريات الصوفية ، كما أبانت عن ضعف موقف المنتسبين العلمي من هذه المسائل ، فلاهم فرقوا بين رجال التصوف ومدارسه ، ولا بين نظرياته الأصلية والدخيلة عليه ، ومن ثم كانوا علامة بارزة اعلنت عن عدم شرعية نسبتهم الى التصوف مهما رفعوا من دعاوى الانتساب اليه .

* فكرة الاتحاد بالله أو حلوله - جل علاه - فيهم :

زعم بعض المنتسبين للصوفية اتحادهم بالله تعالى ، سواء كان اتحاد ذوات ، أو اتحاد صفات - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - وغرقوا في هذا التيار المخل بالأدب مع الله تعالى ، المناقض للشريعة من اساسها ، الهادم للعقيدة من أصلها ، المجتث للأصول الشرعية والأخلاقية من تحتها وفوقها ، وهادم رأسها على عقبها في نفوس المنتسبين وحدهم .

والحق أن الصوفية حاربوا المنتسبين اليهم وبينوا فساد هذه الأقوال ، وحكموا على معتنقها بأنه أكثر شناعة من النصارى في قولهم

(١) الامام البقاعي - تحذير العباد من أهل العناد ٢٦٠/٢٦١

باتحاد الكلمة القديمة الألهية بذات عيسى عليه السلام ، فالسهروردى : مثلا يقرر أن محبة الله هى التخلق بأخلاقه جل علاه " ومن ظن الوصول غير ما ذكرنا ، أو تخايل له غير هذا القدر ، فهو متعرض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت" (١) •

وكذلك الامام القشيرى الذى يقرر " أن العبد لايجوز له أن يتصف بصفات ذات الحق ، كما زعم بعضهم ، أو ان يكون باقيا ببقاء الحق ، سميعا بسمعه ، بصيرا ببصره ، فهذا خروج عن الدين ، وانسلاخ عن الاسلام بالكلية ، وهذه البدعة اشنع من قول النصارى : ان الكلمة القديمة اتحدث بذات عيسى عليه السلام " (٢) •

وفكرة الاتحاد بالله لا أصل لها فى فكر الصوفية ملتزمى الكتاب والسنة أبدا ، بل ولم يقل بها أحد منهم ، ولاحكيت عنهم ولا وجد لها أثر فى مؤلفاتهم ، انما الذى أدخلها الى الفكر الصوفى هم أولئك الذين انتسبوا للصوفية ، وما كانوا أبدا بصوفية " انهم الذين خلطوا المسائل والعلوم بعضها ببعض ، وجعلوا الفنون المتخالفة أمرا واحدا كالشىء الهولامى الذى لايعرف له أصل يقف عنده ، أو نسب يمتد اليه•

(١) الامام السهروردى — عوارف المعارف — الباب الحادى والستين ص ٤٥٤ وما بعدها •

(٢) الامام أبو القاسم القشيرى — شرح أسماء الله الحسنى •

وذلك مثل " كلامهم فى النبوات ، والاتحاد ، والحلول ، والوحدة وغير ذلك ، والمدارك فى هذه الفنون الثلاثة — علم الكلام ، والفلسفة ، والتصوف — متغايرة مختلفة ، وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان ، ويفرون عن الدليل، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية ، وابحاثها وتوابعها ، لكنهم لم يغرقوا فغرقوا . وقد نبه اليهم علماء الصوفية الأوائل كالجنيد ، والقشيرى والسهروردى " (١) .

وذهب الشيخ رشيد رضا الى أنهم أخذوا فلسفة وحدة الوجود من قدماء الهنود وأهل الصين واليونان ، وأن ذلك كله قد " سرى الى المسلمين — مع — كثير من بدع أولئك الأقوام وضلالاتهم وشعائرهم وشاراتهم حتى أنهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود ، فصارت غاية الطريق عندهم " (٢) .

(١) عوارف المعارف — الباب السابع فى ذكر المتصوف والمتشبه به ص ٦٦ والباب التاسع فى ذكر من انتمى للصوفية ، وليس منهم ص ٧٦ ، مكتبة القاهرة ١٩٧٣م .

(٢) الشيخ / محمد رشيد رضا الحسنى — مجلة المنار المجلد الثانى والعشرون ص ١٧٦ ، وقامت مطبعة المنار بنشرها فى مجلدات ، ويراجع الوحى المحمدى .

والشيخ السلمي يكشف أخطاء المنتسبين ويبين جهات الخطأ فيقول : " الغلط وقع في ثلاثة أوجه : طبقة غلطت في الأصول لقلة إحكامهم أصول الشرع ، وضعف فهمهم وإخلاصهم ، كما قال الجنيد رحمه الله : إنما منعوا من الوصول لتضيع الأصول .

وطبقة غلطت في الفروع ، من الآداب والأخلاق والمقامات ، وذلك لقلة معرفتهم بالأصول واتباعهم حظوظ النفس والدنيا ، ولم يتأدبوا بمن يروضهم ويجرعهم المرارات ، ويدلهم على المناهج ، ويعرفهم النفس عيوبها فتسقط عنهم حظوظها ، فمثل هؤلاء مثل من يدخل بيتا مظلما بغير سراج يريد أن يطلب فيه شيئا ، فمشى ليجد ما يطلب فهو يفسد في تلك الظلمة أكثر مما يصلح .

وطبقة : غلطهم ، زلة أو هفوة فإذا تبين لهم ذلك عادوا إلى سبيل الرشد ، ومكارم الأخلاق ومعالي الأحوال ، وقبلوا النعم وتركوا العناء ، وأزعنوا للحق ، فلا ينقص بتلك الهفوة من مراتبهم شيء " (١) .

كما كشف موقف الحلولية ، أصحاب فكرة الاتحاد فقال : وطبقة تكلمت في الحلول ، ولم تسمع هذا إلا حكاية وما شاهد أحد منهم

(١) الشيخ / عبد الرحمن السلمي — غلطات الصوفية مخطوط بدار الكتب لوحة ٤١ ، ٤٢ تحت رقم ٢٣٧ تصوف تيمور تم نسخه في ١٣٣٣ هـ .

متكلما بذلك ، وانما هم اخترعوا ذلك من انفسهم ، فقالوا أن الله تعالى اصطفى نسما حل فيها بمعنى الربوبية ، فأزال عنهم معانى البرية ، فمن قال به ، او تحقق فيه ، أو ظن أن التوحيد بدا له ، ربما أشار من هذه المقالة فهو كافر حقا " (١) وأصحاب فكر الاتحاد بالله ، او حلول الله فيهم على اى نحو لايمكن أن يكونوا صوفية ، وانما عليهم أن يختاروا لأنفسهم وصفا آخر. (٢)

وليس السلمى وحده الذى كشف ضلالهم ، وزيف انتسابهم بل كل الصوفية — على مدار تاريخ التصوف الاسلامى — قد أَوْلُوا هذه المسألة — اظهار الدعى — عناية كبيرة ، حتى لايغترّ الغِرُّ بِهِمْ ، ولا يجد هم خصم التصوف أداة طيعة ليضرب بها الصوفية ، أو سوطا يلهب به ظهر أهل الحق والحقيقة .

وفى تقديرى . أن هؤلاء المنتسبين كانوا النقطة السوداء فى ثوب التصوف الناصع الجميل ، والخطيئة التى الصقت بهتانا بالصوفية

---

(١) المصدر السابق لوحة ٥٢ والكتاب لاغنى له لطالب التعرف على أخطاء المنتسبين للصوفية ، وكم تمنيت أن أراه محققا ، فاذا لم يقم به أحد وأمد الله فى العمر فسأنتدب نفسى للقيام به أو ببعض منه خدمة لدين الله .

(٢) يراجع غلطات الصوفية للسلمى ففيه خير كثير وبيان شاق ، لأن السلمى صوفى على الحقيقة ، وأهل مكة أدرى بشعابها .

أهل الحقيقة والمعرفة بالله ، والدّعي الذى انتسب لغير أبيه ، وكلهم ظالم لنفسه ، ظالم غيره ، معتد على حدود الله ، وان ارتدى أثـواب التقى ، وأظهر سمات أهل الفضيلة .

ولا أبتعد عن الحقيقة بالقول : أن هؤلاء الدخلاء على الصوفيـــة استحقوا أظهار غلطاتهم كما فعل السلمى (١) ، وكَشْف عوراتهم كما فعـل الغزالى (٢) وعناهم قول شيخ الاسلام ابن تيمية (٣) ، وكانت تحذيـرات البقاعى (٤) عليهم منصبة ، وتلبيسات ابن الجوزى فيهم محل قبول (٥) ، بـل ان بعضهم استحق الوصف بأنه خارج عن دين الاسلام بالكلية لما نسبه زورا للذات العلية ، وألصقه بالنبوة ، وزعمه من علم الغيب الى آخـــر هذه السقطات التى لانجاة منها .

---

(١) على غلطات الصوفيـة .

(٢) ينظر فضائح الباطنية للامام الغزالى أبو حامد ٤٥٠ — ٥٠٥ هـ ، فكان له منهم موقف الخبير بما يقدم عليه .

(٣) كتب ابن تيمية كثيرة فى هذه الناحية منها : الفرقان بين أوليـاء الله وأولياء الشيطان ، وعلم السلوك ، والتصوف ، وكلها منشورة .

(٤) تنبيه الغبى ، وتحذير العباد ، وغيرهما مما تركه البقاعى فـــى هذا الباب .

(٥) تلبيس ابليس وغيره من مؤلفاته التى كشف بها ضلال المتصوفة .

فكرة رجاء زوال العقل :

العقل نعمة لايدرك قيمتها الا صاحبها ذو البديهة الحاضرة ، والفؤاد الثاقب ، والطبع المزود بنور الايمان ، المغتسل من بحار الطاعات ، المرتشف من ينابيع التقوى ، القائم على كتاب الله ، الملتزم بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا العقل نورانى لأنه مستمد وجوده من ربه ، ممتلىء بنور مولاه ، عارف به ، قائم على أوامره ونواهيه .

الا أن بعض المتصوفة بلغ بهم الأمر الى رجاء الله زوال العقل حتى يصير كالبهائم والأنعام والدواب ، بدل أن يكون من الأولياء مقتديا بالصالحين ، متبعا لخاتم الأنبياء آخر المرسلين ، انه يرجو الله أن يذهب عقله حتى لايحاسبه على تقصيره فيأكل ويشرب كما تفعل الأنعام ثم تنتهى به الحياة من غير عقل أو قيام بتكاليف .

ولست أدرى كيف يكون صوفيا من لاعقل له ، أو من رزقه الله العقل ثم هو يطلب من ربه ازالة عقله عنه ، كيف يفهم شرع الله من لاعقل له ، كيف يبلغ شرع الله من لاعقل له ، بل أنّى له أن يسير فى اتجاهه الصواب ، وقد تخلى عنه عقله ، أو تخلفت منه تلك الجوهرة التى ذكرها الله فى القرآن الكريم كثيرا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ .

أليس العقل من حجج الله على عباده ، وهو محل التكليف ، ومعقل التمايز فى صحيح العبادة ، وسليم الاعتقاد ، فهل بعد ذلك كله يلتمس العبد من ربه أزاحة هذا النور الالهى عنه وسلبه منه ، ويكون له بذلك فضيلة ، أو يكون هو صوفيا ، كلّا وما أظنه على طريق الصواب بيسير ، ان لم يكن فى بحر الضلال قد بلغ أذنيه .

يقول البقاعى : " فأول ما بُنِىَ عليه أمرهم ترك العقل ، الذى بنى الله أمر هذا الوجود على حُكْمه ، بشرط استناده الى النقل الذى أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام لئلا يزل العقل بما يغلبه من الفتور ، والشهوات والحظوظ " وجعل العقل حاكما لايعزل بوجه من الوجوه ، وفى وقت من الأوقات " (١) .

ومن المعلوم أنه متى رفع العقل ، فقد رفع العلم ، لأن العقل محل العلم ، ولايمكن لجاهل أن يعبد الله حقا ، أو يعتقد فيه صدقا ما لم يكن لديه عقل ينير له الطريق ، ويهتدى معه الى شرع الله ، ومن المعروف أن " العلم قد عطر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الكون بمدحه ، وملأ الوجود بذكر مناقبه وفضائله ، وهو العلم

(١) الامام البقاعى — تحذير العباد من أهل العناد ص ٢١٢

والشرع ، وحذروا من اتباع شيء من ذلك غاية التحذير ، فكأنه كالأنعام بل هم أضل سبيلا" (١) .

ويذهب الشيخ رشيد رضا الى تأثر هؤلاء المنتسبين بالتراث المختلط من رياضات الهنود والصينيين واليونان ، " وقد سرى الى المسلمين كثير من بدع أولئك الأقوام وضلالاتهم ، وشعائرهم ، وشاراتهم ، حتى أنهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود ، فصارت غاية الطريق عندهم " تعليمات مستوردة بعيدة كل البعد عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الذى حرص السلف الصالح ، والصوفية الأعلام عليهما بكل ما وسعهم من جهد ، وقد عضوا عليها بالنواجز ، كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

على أن ما يمكن التنبيه عليه ، هو أن الذين نعنيهم ههنا ، هم المتصوفة وليس الصوفية ، فالصوفية الأعلام أهل علم وفضل وصلاح ولا يمكن انكار فضلهم ، أو انقاص علمهم ، أو التعرض لهم بما يشين فهم هداة أعلام ، أما الذين نتحدث عنهم فهم الذين انتسبوا للصوفية ، وحاولوا الالتصاق بهم ، وخالفوهم المنهج والمعتقد ، وكانوا من أسباب نقمة الفقهاء على الصوفية .

(١) المصدر السابق ص ٢١٣ تحقيق الشيخ عبد الرحمن الوكيل .

* فكرة اسقاط التكاليف الشرعية :

لم يفطن المنتسب الى أن الصوفى الحق يديم الطاعة لله ، ويستمر فى عبادته وحده ، انه يفضله عن كل ما عداه ، والتكاليف الشرعية هو الموصل لطاعة الله،واستمرار العبادة معناها استمرار الطاعة ولايكون المرء وليا لله الا اذا تولى الله بالطاعة حتى يتولاه الله بالكرامة ، ولذا أشار الصوفية الى ضرورة التمسك بالكتاب والسنة والتزام الفرائض والسنن ، وهو ديدن الصوفية على الحقيقة .

بيد أن بعض المنتسبين للصوفية نظروا الى أنفسهم وعباداتهم فظنوها قد أوفت بهم الى الجنة ، وقد أدوا ما عليهم نحو الله من عبادة فى أيام خلت تكفى لباقى عمرهم من غير أن يقوموا بها ،أو يتولوا أداءها ، ومن ثم اعتبروا أنفسهم أصحاب تكاليف مؤداة،وعبادة قد انفصلت ، حتى استباحوا لأنفسهم ترك العبادة ، واهمال الشعائر ، والغفلة عنها جميعا .

= فلا شهادة تقال نطقا وذكرا .

= ولا صلاة تؤدى فى أوقاتها فرضا ولا نفلا .

= ولاصيام لفريضة أو نافلة .

= ولا زكاة تؤدى مهما بلغت الأموال .

ولا حج ولو مرة واجبا أو تطوعا ٠

ان كافة أركان الاسلام قد طالبوا باسقاطها عن أنفسهم ، بل وحاولوا وضع ضوابط خدمية فمن أمضى فى خدمة الله سنوات بعينها فى العبادة والطاعة فلا عليه باقى عمره ان هجرها جميعا ، حتى أن بعضهم كان يدّعى ذهاب عقله حتى لايطالبه الناس القيام بالتكاليف الشرعية والواجبات الدينية ، وكم تنادوا بها ، وأعلنوا القيام بها فى غير حياء من أنهم بذلك يرتكبون جرائم دينية يصعب تداركها، ويتجاوزون حدودا شرعية يجب الوقوف بعيدا عنها ٠

يقول السهروردى : انهم " لبسوا لبسة الصوفية لينتسبوا بها الى الصوفية ، وما هم من الصوفية بشىء ، بل هم فى غرور وغلط يتسترون بلبسه توقيتا تارة ، ودعوى أخرى ، وينتهجوا مناهج أهل الاباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت الى الله تعالى ٠

ويقولون هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة مرتبة العوام والقاصرين الأفهام ، المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الالحاد والزندقة (١) فهم تركوا كافة التكاليف الشرعية مكتفين – كما زعموا – بأن خلاص الضمائر يغنى عن القيام

---

(١) الامام السهروردى – عوارف المعارف جـ ١ ص ٥٧ ٠

بكل الشعائر ، مدعين أن العبادات لاتكون الا للعوام والقاصرين في أفهامهم عن أن يبلغوا منازل هؤلاء عند ربهم ، وهذا ضلال مبين ، وظلم كبير ، لاينسب الى الصوفية شيء منه أبدا .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الصوفية لم يرفضوا التكاليف الشرعية ، ولم يهملوا القيام بها ، بل كانوا حريصين عليها ، ملتزمين بها ، ناعين على تاركها ، ناصحين له بالحكمة والموعظة الحسنة ، قائمين عليها على أحسن وجه وأتمه (١) ، وانما اهملها ولم يقم بها أدعياء التصوف ، وهم في [illegible]ات الوقت خصومه ، الذين كانوا السيئة الوحيدة فيه ، على أن ملاحقة الأفكار التي خلفها لنا فريق المنتسبين للصوفية ربما استغرق وقتا طويلا ، واحتاج مجهودا يمكن ادخاره الآن لعمل آخر ، لاهربا من الموقف ، وانما توفيرا لجزء من وقت عزيز على صاحبه يحتاج انفاقه في استكمال اعمال اكثر الحاحا ، حتى يتحلل من مسؤليات باتت أكثر تضييقا والزاما .

(١) لمزيد بيان يمكن الرجوع الى الرسالة القشيرية ص ٢ وعوارف المعارف والمنقذ من الضلال ، واحياء علوم الدين وغيرها من مؤلفات الصوفية التي هاجمت الفكرة ، وانتقدت القائلين بها ، وأثبتت أن التكاليف الشرعية قاعدة شرعية لايمكن التخلي عنها ، أو اهمالها .

ثانيا

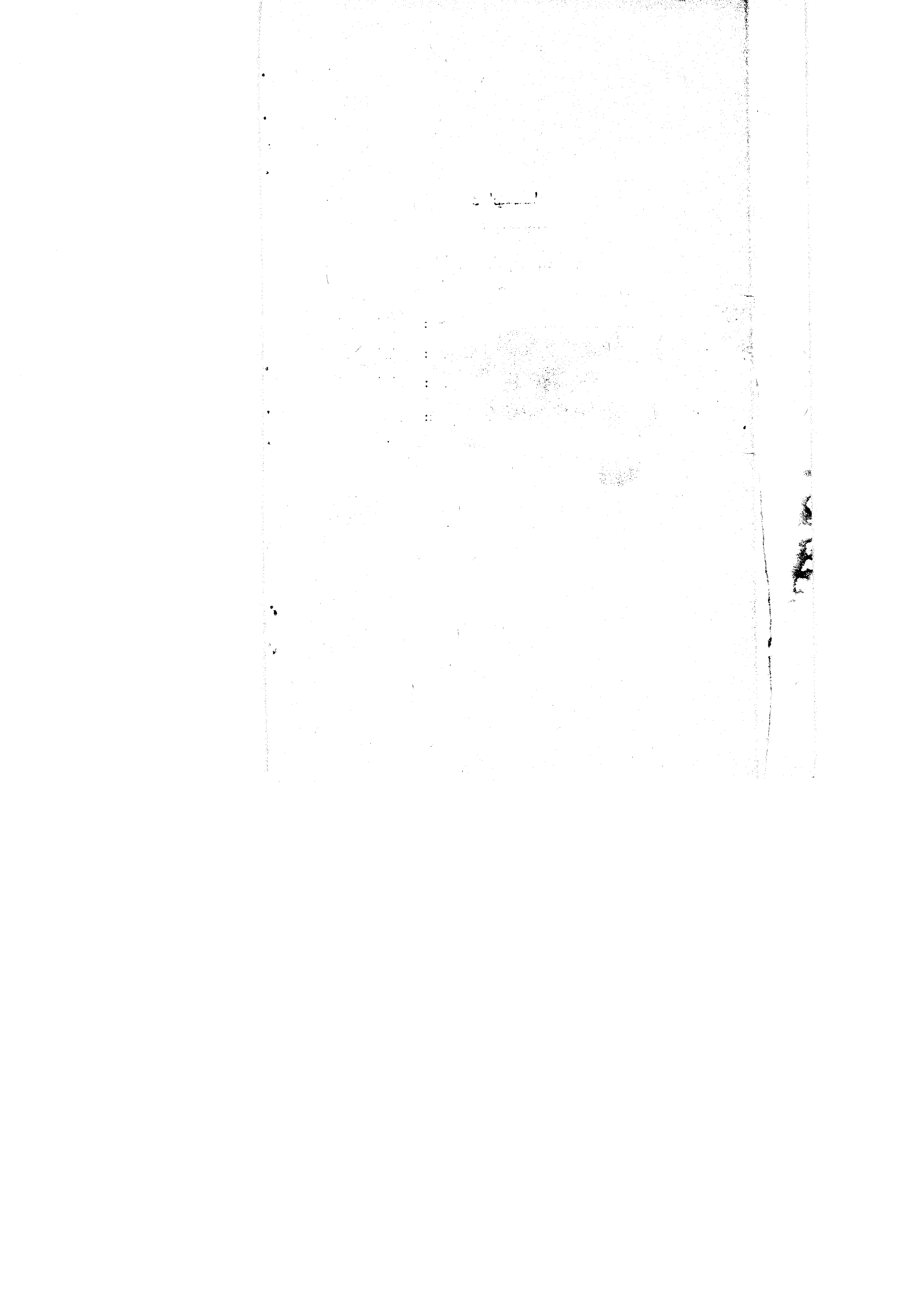
الأخلاق

الفصل الأول : تعريف الأخلاق

الفصل الثاني : بين الأخلاق وعلم الأخلاق

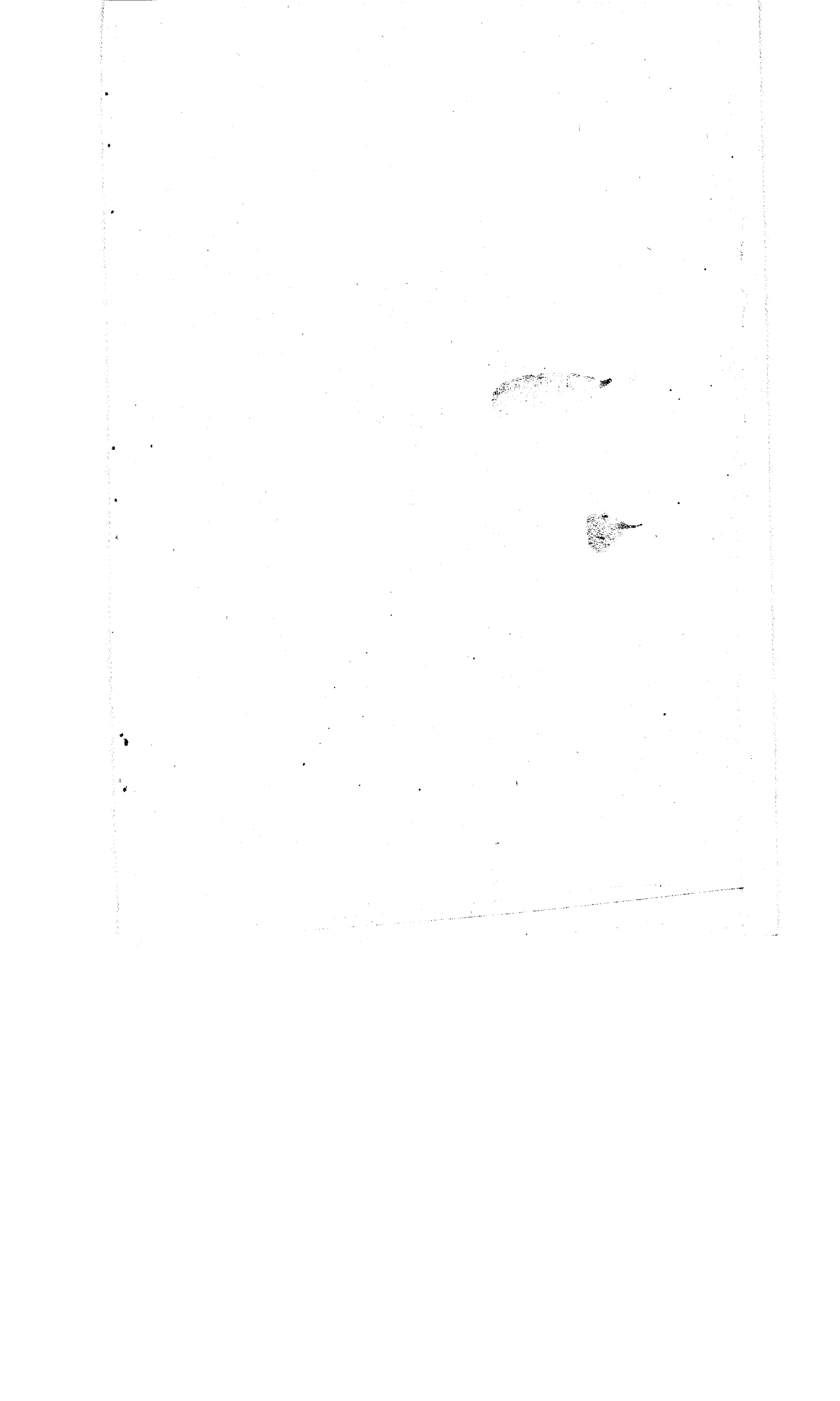
الفصل الثالث : بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق الوضعية

الفصل الرابع : دراسة بعض الفضائل الأخلاقية



الفصل الأول

((تعريف الأخلاق))



(تعريـــف الأخـــلاق)

المتناولون للأخلاق لم يغب عنهم أمرها ، فحاولوا تقديم تعريف لها على لسان اللغة مرة ، وتحت الاصطلاح أخرى ، وكانت لهم في الأمريـــن بعض الجولات ، وها نحن نحاول تقديم تعريف للأخلاق في اللغـــــة والاصطلاح ، فما هو تعريفها في اللغة أولا ؟

(أ) في اللغـــــة :

تطلق الأخلاق في اللغة العربية على عدة معان منها :

١ ـ الطبع والسّجيّة (١) متى كانت الكلمة ـ الخُلُق ـ بضمتين .

٢ ـ العـــــادة ، والتي جبل عليها المرء وصارت لاتفارقه .

٣ ـ المــــــروءة .

٤ ـ الديـــــن (٢) .

والخلق بسكون اللام وضمها ، السـجية (٣) . وعلى كل فان الأخلاق جمع خُلُق ومثله عنق وأعناق اذا جاءت بضم متوال خُلُق ، أما اذا جـاءت بضـم فسكون خُلْق ، فانها تأتي قياسا كصلب وأصلاب .

---

(١) القاموس المحيط باب القاف فصل الخاء ص ٢٢٩ ج٣ ط دار الكتاب العربي .

(٢) أساس البلاغة مادة خلق ، ص ١٧٣ ط دار الفكر بيروت .

(٣) مختار الصحاح مادة خلق .

٥ ـ الحكمة : يقال خلق الغلام ، حسن خلقه ، الخلق [illegible] أخـلاق [illegible] المروءة والعادة والسجية والطبع، وعلم الأخلاق أحد [illegible] ام الحكمة العملية ويسمونه أيضا الحكمـة الخلقية (١) ٠

ويقول أحد الباحثين :الأخلاق جمع خلق ـ كعنق و [illegible] ق ـ أو بضم فسكون كصلب وأصلاب ، وتطلق الأخلاق في لغة العرب عل [illegible] لطبع والسجية والعادة والمروءة والدين (٢) ٠

من مجموع ماتقدم يمكن القول بأن ظواهر اللغة تقدم [illegible] ن عدة وأنه يمكن استخلاص تعريف منها يقوم على أن الأخلاق في اللغ [illegible] هي :

الطبع والعادة كفعل انساني فيه [illegible] روءة مضبوطا بقواع [illegible] الدين حتـى يكون ممدوحا وحسنا ، أو مخالفا لقواع [illegible] الدين فيكون قبي [illegible] مستهجنا ٠

وطبقا لهذا فان الأخلاق تنقسم [illegible] سمين :

الأول : الأخلاق الحسـنة :

الثاني : الأخلاق السـيئة :

(ب) في الاصـــطلاح :

عرفت الأخلاق في الاصطلاح بتعريفات عدة منها :

١ ـ أنها : حب الفضائل وعمل الخيرات مع العلم بها [illegible] قيام بالواجبات

---

(١) المنجد في اللغة والاعلام ص ١٩٤ ط دار الشرق بي [illegible] ت ٠
(٢) د / الدسوقي محمد ابراهيم ـ التصوف والاخلاق ص ٩٤ الـــدار الاسلامية للطباعة والنشر ٠

مع تقديرها دون انتظار المقاضاة للأجر عن نتائجها وكذلك بغض الشر لذاته ولآثاره معا ، ولاتكون الأخلاق سليمة حتى يغمر التكامل جميع خصائص الانسان ومواهبه ، سواء كان فى شكل نزعات روحية أو نزوات غريزية تحولت للتسامى ، وكلها — الأخلاق — بالتسامى تؤدى الى التعقل ، وان لم تصل للكمال المطلق الذى هو الله وحده (١) ·

٢ — عرفها الامام أبو حامد الغزالى بقوله : الخلق " هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خُلُقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خُلُقا سيئا (٢) ·

٣ — كما عرفها الامام الغزالى مرة أخرى بأنها "عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة (٣)" وهو تعريف قصير وفيه نوع من التركيز ·

٤ — عرفها الجرجانى بقوله : الخلق هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية (٤) · وعلى هذا فان

---

(١) الاستاذ / محمود أبو الفيض المنوفى — تهافت الفلسفة عن درك الحقيقة المطلقة ص ٣٩ ط دار نهضة مصر ١٩٧٠م ·

(٢) الامام أبو حامد الغزالى احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٥٢ تحقيق دكتور بدوى طبانة ط الحلبى والأربعين فى أصول الدين ص ١٩١ له أيضا ·

(٣) الامام الغزالى احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٥٢ د / بدوى طبانة ط الحلبى

(٤) الامام الشريف الجرجانى — التعريفات مادة خلق باب الخاء ، وهو تعريف الغزالى السابق لكنه على سبيل الاختصار ·

الأخلاق تصير عادة وطبعا لصاحبها ، وتكون من الأمور المكتسبة المطبوعة معا ، اذا عرفنا أن الطبع هو مايقع من غير حاجة الى فكر وروية (١) .

٥ — وعرفها ابن مسكويه بقوله : " الخلق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية (٢) .

وربما عرف الخُلُق بأنه : الصورة الباطنة التى لاتدركها الحواس ، والتى هى صورة النفس وقواها (٣) .

ويرى الدكتور زكى مبارك أن الاخلاق عند الغزالى هى : تكيف النفس وردها الى مارسمته الشريعة ، وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين والشهداء (٤) .

وقد يعرف الخلق بأنه : تغلب ميل من الميول على الانسان باستمرار (٥)

وهذا التعريف يفترض أن الخلق وصف ثابت ، وحالة قائمة بذاتها ، تتعلق

---

(١) الشريف الجرجانى — التعريفات ص ١٢٢ .
(٢) ابن مسكويه — تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٤١ تحقيق ابن الخطيب .
(٣) دكتور / طه عبد السلام خضير — مباحث فى علم الأخلاق ص ١٤ .
(٤) الدكتور / زكى مبارك — الأخلاق عند الغزالى ص ١٥١ طبعة الشعب
(٥) الدكتور / محمود حمدى زقزوق — مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٠ ط٤ ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م — الدار الاسلامية للطباعة والنشر بالمنصورة .

بأحد جوانب النفس الانسانية وهو تعريف فيه نوع من الميل الى التعاريف الأخلاقية والمذاهب العقلية ، ثم ان الميل عملية من عمليات القلب والنفس معا ، فالقلب يميل لشيء والنفس كذلك ٠

من خلال التعليقات السالفة يمكن القول بأنها أفرزت مايلى :

١ ـ الأخلاق حال يوصف بها شخص ما :

فإن كانت حاله خيرة فأخلاقه كذلك ، وان كانت حاله ـ عند ممارسة أى فعل صادر عنه ـ سيئة كانت أخلاقه كذلك ، وبالتالى فالأخلاق حكم على مايصدر عن صاحبها إذا روعى فى هذا الجانب مراقبة السلوك الخارجى ، وعلى ذلك ينبغى أن تصطبغ معاملاته وتصرفاته وجميع نواحى سلوكه بالصبغة الدينية الاسلامية ، ليجمع الى معنى العقيدة معنى القانون ، أو ليجمع الى معنى الايمان معنى الطاعة ، وهذا جوهر الأخلاق الاسلامية والتى تميزها عما عداها من مذاهب الأخلاق دينية أو غير دينية ٠ (١)

٢ ـ الأخلاق هيئة للنفس الانسانية :

المعروف أن النفس الانسانية لاتدرك بذاتها ، وانما يتعرف عليها من خلال الآثار الصادرة عنها ، وبالتالى فاذا صدر من الانسان فعل فلابد أن تكون قوى النفس الداخلية هى التى دفعت الى هذا السلوك ،

(١) الدكتور / محمد عبد الله دراز ـ مدخل الى القرآن الكريم ص ٨٧٠

الذى يبدو إيجابا أو سلبا كنتائج ثابتة لمراكز متحركة .

فمثلا : اصفرار الوجه والرعشة دليل على حالة الغضب التى تكون النفس الانسانية ملتبسة بها ، واحمرار الوجه من البكر عند عرضها على طالب الزواج منها حمرة خجل " والخجل لايمكن التعرف عليه باعتباره احدى حالات النفس الانسانية ، وانما يدرك فى مظاهر له تحمله الى خارج النفس الانسانية فيبدو على الوجه احمرارا ، اذن حمرة الخجل وصفرة الاضطراب ، والوجل وأمثالها تمثلان هيئة من هيئات النفس الانسانية ، ومثلهما القبض والبسط .

وكذلك الفرح والسرور فانهما هيئة للنفس لايمكن التعبير عنها من خلال مظهر داخلى لأن النفس الانسانية غير مدركة بذاتها ، وانما يمكن التعرف عليها من خلال مظاهر حركية متبدلة اذ تبدو فى فرحها هيئة عارضة هى انبساط فى الوجه ، وانفراج فى الأسارير ، وابتهاج عام قد تعبر عنه ابتسامة عريضة أو قهقهة ملتزمة ، وقد تومئ إليه غمزة ساخر ،أو طرف عين حيى فيعبر عن حب جارف ، أو كره صاحب ، أو ضيق ملزم ، أو فرح يعظم .

٣ — الأخلاق سلوك ايجابى أو سلبى :

ذلك أن مايصدر عن النفس الانسانية،إما أن تكون له آثار ظاهرة أو

آثار خفية يعبر عنها بالحوار الداخلى والمنولوج النفسى ، ولكل منهما أقسامه التى سنذكر أطرافها على النحو التالى :

أولا : السلوك الايجابى :

هذا السلوك الايجابى له مظهران :

١ – مظهر الخير الظاهر :

يبدو هذا فى فعل الخير العام كمد يد المساعدة ، والانفاق ، وكف أذى الآخرين وعدواناتهم ، والدعوة الى الاصلاح العام بين الناس ، ومحاولة القيام بالمزيد من الطاعة لله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم فى كافة مناحى الطاعة بحيث يظهر هذا الفعل الايجابى أمام الجميع ، حربا توقف ، ونارا تنطفئ ، وصدقة تدوم ، ولسانا يذكر الله ، وجارحة تعين عباد الله ، الى غير ذلك من المظاهر والظواهر الايجابية التى تمثل مظهر الخير العام .

٢ – مظهر الخير المختفى :

يظهر هذا النوع – رغم أنه مختف – فى حالات كثيرة ، فمثلا حب الخير للجميع أمر داخلى ، ومظهر مختف ، كذلك كف نفسك عن أذى الغير ~~فعل ايجابى مختفى المظهر ، وكبت الشهوة ، وحبس الغريزة~~ ، والتسامى بالعواطف الانسانية الى حيث يرضى رب البرية ، والصبر عند المصيبة .

﴿الفصل الثانى﴾

((بين الأخـلاق وعلم الأخـلاق))

(بين الأخلاق وعلم الأخلاق)

سلف الحديث عن الأخلاق وأن لها تعريفا مستقلا ، كما بان لنا وجود غاية فى الأخلاق نفسها ، وليس هذا وحده بل وضح لنا وجود فارق قوى بين الأخلاق وعلم الأخلاق ، سواء فى تعريف كل منهما ، أو الغاية .

وها نحن نحاول تقديم الموضوع فى كل منهما حتى يقع التمايز بين كل منهما لدى الدارس وبخاصة الناشىء الذى لم يقرأ كثيرا فى المباحث الأخلاقية ، ولم يجد من وقته فسحة لمطالعة الآراء الفنية فى علم الأخلاق .

أولا : موضوع الأخلاق :

سبق القول بأن الأخلاق هى : " حب الفضائل وعمل الخيرات مع العلم بها ، والقيام بالواجبات مع تقديرها دون انتظار المقاضاة للأجر عن نتائجها ، وكذلك بغض الشر لذاته ولآثاره معا " (١) .

وبالتالى فموضوع الأخلاق هو الفضائل وعمل الخير ، وبغض الشر لذاته وآثاره ، هذا على أعتبار أن الأخلاق معرفة الفضائل والرذائل وحب الأولى وبغض الثانية .

(١) الاستاذ / محمود أبو الفيض _ تهافت الفلسفة عن درك الحقيقة المطلقة ص ٣٩ .

أما عن التعريف الثانى للأخلاق وأنها : " هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر "، فان موضوع الأخلاق يكون هو النفس الانسانية ، باعتبار أن الخلق حال من أحوالها ، وهيئة راسخة فيها تصدر عنها بسهولة ويسر أفعالها .

فاذا عرفنا أن " الانسان هو الحياة الواعية بنفسها ، وأنه فى وعيه بنفسه وبالآخرين " (١) يمثل الانسانية كمعنى من المعانى ، ويمثل نفسه باعتباره مسؤلا عن تصرفاته وسلوكياته كفرد من هذه الانسانية الكبرى التى انتزعت من أفرادها القائمين فى رحابها .

أمكننا القول بأن موضوع الأخلاق هو النفس الانسانية والفضائل أو الرذائل التى تصدر عنها ، وذلك مرده الى الحاكم العام أو مايطلق عليه " الحالة الطبيعية " NATURAL - STATE أما فى الحالات الأخرى فالأمر مختلف تماما .

ومادام موضوع الأخلاق هو النفس الانسانية ، ومايصدر عنها باعتبارها الداعى له ، والمحرك الذى انطلق دافعا اليه فمن المناسب : ألا توضع العراقيل والقيود التى تحد حرية كل فرد فى اختيار النشاط الذى يشاء ، أو تحد من قدرته على ممارسة هذا النشاط " (٢) .

(١) الامام الغزالى — احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٥٢ ، والتعريفات للجرجانى مادة خلق .
(٢) أ / فؤاد كامل — مدخل الى فلسفة الدين ودراسات أخرى ص ٧٨ — الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٤م .

لكن هل يمكن اعتبار موضوع الأخلاق موضوعا معرفيا ، له مادة وصورة وبخاصة أن " الفلاسفة يفرقون بين مادة معرفتنا وصورتها ، والمادة هي ماتقدمه قوى الادراك الحسى التى ينظر اليها فى حالتها الفجة ، أما الصورة فهى مجموعة العلاقات التى تتقرر بين هذه المواد لانشاء معرفة منظمة (١) ؟

والجواب : أن الأخلاق يمكن اعتباره موضوعا معرفيا قائما على مراقبة السلوك فى الانسان نفسه ، والمعلوم أن الحواس والعقل ومايصدر عنهما يمثل وسيلة معرفية ، ومن ثم فالوسيلة لاتبتعد كثيرا عن الموضوع نفسه وبخاصة فى جانب المعرفة الانسانية ، أما علم الأخلاق فيمكن اعتباره علما معياريا يجب عليه وضع القواعد الأخلاقية للحياة الانسانية متى روعى كونه جانبا معرفيا ، ويصدق فيه أنه موضوع معرفى لأن فهم العلاقات القائمة بين النفس والجسم ، وبين النفس وقواها يمثل فى حد ذاته معرفة عقلية ، لأنه ينتزع من تلك المفاهيم والمعانى ما يقترب به الى ساحة المعرفة الوجدانية وهى أحد أنواع المعرفة .

بل ان أصحاب الوضعية الفلسفية حين اتجهوا لمسائل الأخلاق رأوا أن علم الأخلاق ليس علما معياريا ، وانما هو علم تجريبى تم وضعه باتفاق

---

(١) هنرى برجسون — التطور الخالق ص ١٣٨ ترجمة الدكتور / محمد محمود قاسم — الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٤م .

المتواضعين عليه ، فإنهم مع انكارهم عدم قدرته على قواعد أخلاقيـــة فانهم سلموا بامكان قيام معرفة علمية عليه ، واسهامه فى تلك المعرفـة الأخلاقية بتقرير الوقائع والصفات الأخلاقية ، وتوصيفها مع التوضيح .

اذن نستطيع القول بأن علم الأخلاق موضوع معرفى .

على أن مايمكن الالتفات اليه هو أن موضوع الأخلاق من الأمور التى وقع فيها بعض الخلاف ، وبخاصة عند المتناولين للمسألة من علمـــاء الأخلاق أنفسهم ، اذ أن بعضهم مال الى أن الأخلاق موضوعها هـو النفس البشرية .

بينما مال آخرون الى أن موضوع الأخلاق الانسانية هو الفعـــل الانسانى ، أعنى الأثر الصادر عن الهيئة،وهذا فى حد ذاته يحتاج أمرا يجب الالتفات اليه ، وهو الفصل بين الأخلاق وعلم الأخلاق ، فمتـــى روعى هذا الجانب — أعنى الفصل بين الأخلاق وعلم الأخلاق — وضحـت المسألة ، ومتى لم يراع فقد وقع الخلط حتما ، وهو الذى أحاول الاشارة اليه .

كما أن الأخلاق فى موضوعها تنهض بأمر غاية الأهمية هو اعتبـــار الانسان مسؤلا عن تصرفاته ، كما تجعل الأخلاق — من حيث الفعـــل الصادر عنها — مسؤلا مسئولية محددة تنشأ من مراكز ثابتة ، هى حريـــة

الانسان فيما يصدر عنه ، فلم تجعل النبض وسريان الدم في الجسم من موضوع الأخلاق لأن ضغط الدم ، وصداع الرأس ، ورعشة البدن كلها أمور لاتدخل ضمن موضوع الأخلاق لأنها صادرة عن غير ارادة حرة متمكنة من الفعل والترك ، وبالتالي فلا يحاسب عليها المرء ولاتمثل بالنسبة له رصيدا من الأحداث أو الذكريات تختزن بالنسبة له أو عليه ، وبالتالي فلا تدخل ضمن مسئولياته .

أجل . الغضب وثورة النفس ، واحمرار الوجه الذي يعقب هذا الانفعال ، كلها أمور يسأل عنها صاحبها ، لأن بامكانه الوقوف في مواجهتها والتخفيف منها أو الالتجاء الى غيرها ، ومن ثم يحاسب عليها وتقع في حدود مسئوليته طالما كان قادرا على فعلها أو تركها .

ولعل التوجيه النبوي الشريف كان أسرع من المذاهب الأخلاقية وأدق ، حين قال صلى الله عليه وسلم " ليس الشديد بالصُّرَعَة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب"، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله التوجيه والنصح" ، لاتغضب"ولأن الغضب لايمثل صورة مفاجئة ، وانما يمثل حسا مدربا ، ومراكز احساس قادرة على تلقيه فقد كان مسئولية صاحبه .

ولذا وجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم الى تفادى نتائج هذا الغضب فقال : " اذا غضب أحدكم فليتوضأ فإن الغضب من الشيطان والشيطان من نار وانما يطفئ النار الماء".

ولذلك قيل في تعريف الأخلاق أنها " الصورة الباطنة التى لاتدركها الحواس" ، والتى هى صورة النفس وقواها (١) ومن ثم رفض كون الأخلاق أفعالا ، انما يكفى أن تكون حالة من حالات النفس فقيل: ليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولايبذل ، اما لفقد المال أو لمانع آخر ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث كالرياء والتفاخر ، وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحدة ، لأنها قوة واحدة ، ذات نسبة واحدة طالما صاحبها مميز بالقدرة على الأمرين — المنع والاعطاء ، الحب والبغض .

وكل انسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك لذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء" (٢) كما خلق قادرا على السير فى طريق الهدى أو طريق الضلال ، وبالتالى " فالانسان مسئول عن أعماله ، يكلف بها ، وعليه أن يسير فى طريق الهدى فيشرح الله صدره ، أو طريق الضلال ، فيختم الله على قلبه" (٣) .

---

(١) د / طه عبد السلام خضير — مباحث فى علم الاخلاق ص١٤ ١٩٩٢م
(٢) المصدر السابق ص ١٥ ١٤١٣هـ — ١٩٩٢م .
(٣) مجدى محمد رياض " الفلسفة الخلقية عند الأشاعرة " ص ١٣٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .

من ثم . فلا يمكن القول بأن موضوع الأخلاق هو نفسه موضوع علم الأخلاق ، وانما لكل منهما موضوعه الخاص به على ما سلف بيانه .

كما أن الأخلاق العامة الفلسفية أو العقلية ، مثالية أو وضعية ، تختلف عن الأخلاق الاسلامية فى موضوعها ، والحاكم عليها بجانب القدرة على التوجيه فيها ومعياره ، وهناك فارق لايمكن تجاوزه وعقبة يجب الانتباه اليها ، وهى أنه لايمكن أن تكون الأخلاق الاسلامية غير اسلامية بل العكس فيمكن أن تستفيد الأخلاق غير الاسلامية من الأخلاق الاسلامية فتحاول محاكاتها والتقليد .

وآية ذلك أنهم فى أوربا - رغم كونهم غير مسلمين - يهتمون بالعلم ويبذلون فيه أقصى ما يملكون ، والعمل يستهلكون فيه كل طاقاتهم لايعرفون الكسل العلمى ولا الكسل العملى ، حتى أننا سمعنا عن العمال فى اليابان يرفضون الحصول على أجازاتهم الاعتيادية ويصرون على الذهاب للعمل برغبة شديدة فى زيادة الانتاج ، حتى أن بلادهم حاولت أن تسن قانونا يجبرهم على الأجازة وليس على العمل .

مع أن التوجيه النورانى فى السنة النبوية المطهرة يزكى نور القلب المؤمن فيجعله ينقلب للعمل لأنه عبادة ، فيقول الأثر : " العمل عبادة " ويقول صلى الله عليه وسلم : " من بات كالاًّ من عمل يديه أُمسى مغفورا له .

وقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى حاول اخفاء يده الخشنة من العمل حتى لاتؤذى نعومة يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : له صلى الله عليه وسلم " انها يد يحبها الله ورسوله " ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " ان الله يحب اذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه " ٠

والعمل الشريف خلق اسلامى نبيل دعا اليه القرآن الكريم ، وحثت عليه السنة النبوية المطهرة بحيث يرى القارىء آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبى الكريم فى هذا المعنى واضحة جلية ، من ذلك قوله تعالى : " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " ، وقوله تعالى " أن أعمل صالحا " ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : " من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له " وعن أبى هريرة رضى الله عنه ٠ عن النبى صلى الله عليه وسلم ٠ قال " كان داود عليه السلام لايأكل الا من عمل يده " (١) وعن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وان نبى الله داود ، صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده " (٢) ٠

---

(١) الحديث رواه الامام البخارى ٠
(٢) رواه الامام البخـــــــارى ٠

بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم حبب للعمل بكافة أنواعه طالما كان شريفا يرضى الله ورسوله ، وبغض فى المسألة فقال صلى الله عليه وسلم " تجىء المسألة نكتة فى وجه صاحبها يوم القيامة " ان المسألة لاتحل الا لثلاثة : لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع " (١) ومن هذا كثير حفلت به كتب السنة النبوية المطهرة ،وخصصت له أبواب بأكملها ، فليرجع اليها من شاء المزيد " (٢) .

ومع كون هذه الأخلاق الاسلامية محفوظة فى نصوص ثابتة الا أن أهل الغرب الآن راحوا اليها يهتمون بها ، ترجمة نصوص ، وترجمة سلوك ، حتى قال أحد علماء الأزهر فى أول زيارة الى أوربا — لقد رأيتهم فى أوربا — قارنا بينهم وبين المسلمين فى الشرق ، قال : ان فى الغرب اسلاما بلا مسلمين ، وفى الشرق مسلمون بلا اسلام" .

لأن الأوربيين — مع كونهم ملاحدة — يعيشون على العلم والعمل وهما من أصلاب دعوة الاسلام بينما فى الشرق نجد كافة المسلمين يضيعون أعمارهم فى الأجازات التى لاتقف عند حد معين ، فمنها :

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى والترمذى والامام أحمد والحديث له قصة مشهورة .

(٢) دكتور / محمد حسينى موسى الغزالى — لماذا انتشر الاسلام جـ ١ ص ١٤٥ مطبعة كونتنتال بالزقازيق ١٩٨٧م .

(١) الأجازة العارضـــة :

وهى حق مكتسب بالقانون ٤٧ بشأن العاملين المدنيين بالدولـة وهى سبعة فى السنة ، وتعطى لصاحبها بقوة القانون ، وهى غير قابلة للترحيل ، فاذا لم يحصل عليها صاحبها وانقضى العام فقد سقط حقه فى الأجازة ، وجاءت القوانين المعدلة لتسمح بالمزيد من هذا اللـــون العارض وتحت مسميات كثيرة .

(٢) الأجازة الاعتياديـــة :

وهى حق لكنه مقيد بالصالح العام وهى مدة أحدى وعشرين يوما فى السنة لمن كانت خدمتهم فى العمل أقل من عشر سنوات ، أما مـــن زادت مدة خدمتهم فى أعمالهم عن عشر سنوات فان الأجازة الاعتيادية ثلاثيـــن يوما فى العام الواحد ، وهكذا تتصاعد الأجازة كلما امتدت سنوات الخدمة وبدل أن يستفاد من الخبرة توضع فى سلة الأجازات ، وهى قابلة للترحيـل الى الأعوام التى تليها ، ويمكنه أن يعوض عن جزء منها عند بلوغه ســـن المعاش .

بل ان بعضهم يترك عمله الأصلى ضياعا ، ويلتحق بأعمال أخـــرى ثانوية ، مستغلا رصيد أجازاته الاعتيادية ، وضعف الرقابة ، أو ضـــعف الرقيب نفسه ، تاركا الحبل على الغارب ، متصورا أنه بذلك قد ضحك على

الحكومة ، وانه الكاسب بينما هو فى الحقيقة أول خاسر ، انه يطعم أولاده من حرام تحت ستار ظاهره الحلال ، والأمر بالعكس .

(٣) الأجازة المرضـــية :

وهى أجازة مفروضة مرضيا متى رأى الطبيب المفوض من جهة العمـــل حاجة العامل اليها ، وتستمر فترة شهور حسب ظروف الحالة المرضـــية .

وكلما ازدادت الحالة كلما امتدت الأجازة ، ولربما استغرقت فترات طويلة ، مع أنه قد يكون من المتمارضين فيأتيه المرض فعلا ، لأن الرســول صلى الله عليه وسلم قال : " لاتمارضوا فتمرضوا " .

وهذا المرض أنواع : أبسطها المرض الذى يعفى صاحبه من توقيـــع انصراف يوم المرض ، وأصعبها المرض الذى شمله القرار رقم ٦٩٥ لســـنة ١٩٨٤م بشأن تحديد الأمراض المزمنة التى يمنح عنها المريض أجــــازة استثنائية بأجر كامل (١) .

وكذلك القرار رقم ٢٦٦ لسنة ١٩٨٠ فى شأن تحديد الأمـــراض المزمنة والمستعصية التى تعتبر فى حكم العجز الكامل (٢) فاذا ما لاحظنا

---

(١) قوانين وقرارات التأمين الصحى ص ٧٧ ومابعدها ـ الهيئة العامـــة للتأمين الصحى ادارة العلاقات العامة والاعلام ـ ديسمبر ١٩٨٥م .

(٢) المصدر السابق ص ١١٥ وقد نشر هذا القرار فى جريدة الوقائـــع المصرية بالعدد رقم ٢٧٨ فى ١٩٨٠/١٢/١٠م وهو البديل عـــن القرار ١١٢ وكذلك القرار رقم ٨٢ لسنة ١٩٧٦م .

مجموع هذه الأجازات التى تكون بحق أو تلك التى تكون عن طريق الرشاوى النقدية ، أو الأدبية ، ناهيك عن أجازات الفهلوة ، وارضاء دفتر التوقيع والهروب المستمر من العمل بحجج وأغطية كاذبة ، ولاحظنا أغلب هذه الأجازات ، وجدنا أنها تمثل نوعا من البطالة المقنعة .

انها عمالة زائدة لأن صاحبها مقيد على خزينة الدولة العامة بأنه موظف ، وله راتب وحوافز ومعاش ، ومع هذا لايعمل ، انه يراقب الساعات فقط ، ولايراقب مقدار العمل الذى يقوم به ، وكيف تنهض أمة من رقدتها أو تزيل التراب عن هامتها ، وأبناؤها فى تخريبها سادرون ، وعن الانهاض بها غافلون ؟

ففى الغرب يراقب حاجة الدولة للانتاج فيهتم به ، أما فى الشرق فأغلبهم يراقب دفتر الحضور والانصراف بدليل أنك ترى مهندسا يوقع فى دفتر الحضور ، ثم ينصرف من الباب الآخر يقود تاكسيا خاصا يظل يطوف به للعمل الاضافى ، رغم أنه تارك للعمل الأصلى الذى يتقاضى راتبه عليه ، ويربى أولاده منه ، فلاتجده فى عمله ، والويل لك ان كان هذا ممن يعملون فى جهاز خدمى كمجلس المدينة أو مثله من الأعمال الخدمية التى تتعلق بها مصالح الناس ، حتى ولو كان فى مصلحة الضرائب ، فلسوف تتعطل أعمال العباد ثم يؤاخذون بالتقصير حين يقوم هذا الموظف غير الأمين بتوقيع حجوزات وهمية عليهم ، وتبديدات لم يعرفوا لها رأسا من

ذنب ، ومع أنه غير أمين تراه يحمل اسم أمين ، ومع أنه سافل تجد اسمه علي ، ومع أنه كاذب تجد اسمه صادق ، بل ربما هذا الخائن نرى اسمه أمين صادق علي ، وكم عاني الشرق من هؤلاء وأولئك ، والويل لهم من عقاب الله ، انهم يمارسون أعمالا لا أخلاقية ، وربما كانت شبهته أن دخله لايكفيه ، والجواب : أن الرضى بما قسم الله من أمتع الأمور فليرضى ، ثم ان العمل الاضافي محله بعد الانتهاء من العمل الأصلي وليس في أثنائه ، انه في ذلك يقوم بعملين في وقت واحد ، مع أنه لم يفلح في أحدهما .

وقس على ذلك الطبيب الذي يستحقر عمله في المستشفى ، ويستغل أجره منه فتراه ينشيء علاقات عامة مع موظف الحضور والانصراف ، فاذا قيد نفسه حاضرا انصرف لحال سبيله عاملا أمينا في مستشفى خاص أو عيادة عامة ، أو عيادة خاصة كلها بأجر آخر ، رغم أنه في الوقت يتقاضى أجرا عن عمله الأصلي ، الذي أرضى فيه موظف الحضور والانصراف ولم يرض رب العالمين فتسقط أمواله في يد من لايرحمه من :

— ابن يَعُقّـــه .

— أو زوج تعايشه النكد .

— أو شيطان يصرفه الى الملذات والمهلكات .

— أو بريق لامع من أفعال يعاقب عليها القانون .

— أو يتسلط عليه شيطانه فيقع فريسة بين كل هذه وغيرها .

ولايخفى أمر خفير الدرك ، أو المخبر السرى ، أو المدرس أو استاذ الجامعة اذا ماضيع كل واجبه ، ورفض المواجهة مع نفسه ليعرف الصواب من الخطأ ، فيلتزم الصواب ويتفادى الخطأ .

ان هؤلاء وأمثالهم ممن لم يشملهم الذكر ان لم يتفوقوا على أنفسهم فى أداء الواجبات المنوطة بهم فى أعمالهم على أكمل وجه فلاشك أنهم جميعا يمثلون طاقات مستهلكة ، وقوى لاقيمة لها ، أفراد يضيعون ، وطاقات تستهلك ، وأموال تضيع ، وخزانة الدولة التى تعيش على ضمانات كثيرة من صندوق النقد الدولى — الذى اذا أعطى قرضا فبقيود — لايمكن اغماض العين عنها ، انها ملاذ مصالح كثيرة ولها مسئوليات عديدة ، حفظ الأمن ، والدفاع عن الوطن ، والتعايش الاجتماعى وحرمة مالها حرمة عامة لأنها تمثل خزانة عامة وبيت مال المسلمين .

من ثم . فان الاخلاق الاسلامية منهج ثابت فى نصوصه مضطرد فى ظروف الحياة ، متطور مع الزمان بما يجعل صالح الفرد قائما ، ومصلحة الجماعة مراعاة ، والصالح العام الخير للجميع ، وهذا لايتوفر الا فى الأخلاق الاسلامية وحدها متى روعيت نصوصها وطبقت على النحو الذى أمر به الله تعالى ومثله للقوم رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، فما هو موضوع علم الأخلاق ؟

ثانيا : موضوع علم الأخـــلاق :

المعروف أن علم الأخلاق هو دراسة السلوك الانسانى ، ومن ثـم فان موضوع علم الأخلاق هو السلوك الانسانى من حيث هو سلوك انسانى كما أنه من المشهور أن السلوك الانسانى ينقسم الى :

(١) سلوك ارادى :

وهو الذى يصدر عن صاحبه بارادة حرة مطلقة ، فيها اختيار كامـل وعليه الحساب فى العقاب أو الثواب ، وهو موضوع علم الأخلاق .

(٢) سلوك لاارادى :

وهو ما يصدر عن انسان ما من غير أن تكون له فيه ارادة ، وهـــذا ينقسم بدوره الى أنواع :

النوع الأول : مايصدر عنه مستمرا :

وذلك كنبض جسمه ، وضغط دمه ، والشعاع الحرارى الصادر عنـــه طبقا لقوانين العلم ، فان هذا لايتوقف لا فى اليقظة ولا فى المنام ، لا فى النور ولا فى الظلام ، لا فى الحركة ولا فى السكون ، ولو توقف لمات فـورا ، ان حياته متوقفة على نبض جسمه ، وضغط دمه ، وهذا يصدر عنه باستمـرار كدليل على وجوده وحياته ، ولا دخل له فيه حتى ان أسرف فى الجوع ، أو الشبع ، لأنها ـ الزيادة والنقصان ـ لاتمثل الا الناحية الشكلية فيه .

النوع الثانى : مايصدر عنه مقيدا .

أ ـ ما يصدر عنه فى محبسه :

كمن يغل انسانا ثم يأمره بالوقوف على قدميه ، ولو جلس لعوقب بشدة كما يفعل بالمجرمين والمتهمين فى أقسام الشرطة وجهاز أمن الدولة ، فان هذا الوقوف فعل صادر عن غير ارادة حرة وهذا لايحاسب عليه ، بل انه لو لم يفعله لحوسب من قبيل الآمر الناهى بعنف شديد .

بل ربما لو لم يفعله اعتبر خارقا للقانون ، ومقاوما للسلطات، رغم أنه لم يعرف قانونا ، ولم يقاوم حتى سلطة زوجه ، أو بنيه ، انه مسالم الى حد الاستسلام لكن ماذا يفعل وقد ادرج اسمه رغما عنه فى قضية شاهدا ، واستدعى لتلك الشهادة ، أو زج به مخبر سرى نكاية فيه وكيدا له .

ب ـ ما يصدر عنه فى نومه :

النائم يتحرك بأطرافه ، وربما يتجول بخاطره هنا أو هناك ، وكلما كانت حياته هادئة كانت حركاته من جنس حياته ، لكنه فى كل حالاته غير متمكن منها ، وأبلغ دليل على ما ندعيه مانشرته احدى الصحف من أن سيدة انتظرت وليدها فترة حتى رزقت به ، ونامت قريرة العين بجواره ، وكانت ذات جنب ثقيل ، وذات ليلة كان الجهد قد بلغ منها مبلغا ،

فنامت ملقمة وليدها ثديها وكانت فى نومها تتقلب ·

وبينما هى تتقلب اذ شاركها وليدها نفس التقلب وباتجاه معاكس فاذا به فى تقلبه يأتى تحت جنبها ، وبينما هى تتقلب من كابوس مزعورة اذ اها تضغط على وليدها فكانت النتيجة أن مات الوليد ، وأصيبت هى بالصدمة العصبية التى أثرت على حياتها ، حتى ادخلت مصحة عقلية لم تخرج منها الا الى القبور ·

وتلك التى كانت ذات جنب وألقمت وليدها ثديها ونامت ثم راحت تتقلب فى نومها فكانت النتيجة أن قتلت أبنها الوحيد بثديها الذى كان لبنه مدرارا ، حيث لم يتمكن الرضيع من التقاط أنفاسه ، مع كثافة اللبن النازلة إلى حلقه ، وضغط ثدى أمه على أنفه ، فمات مخنوقا · ولما فاقت المرأة من نومها ، وعرفت فعلتها أصيبت بحالة من الهستيريا ، احتاجت ادخالها مصحة نفسية لعلاجها من حالتها ·

ومثلهما تلك التى عاشت أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذها زوجها لعقوبتها فأخبره الرسول أنه رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق ·

ج - مايصدر عنه فى حالة اغلاقه :

وهو كثير فى حياة الناس بحيث اذا تشاجر انسان مع صديقه وتدافعا

ولم يكن لهما من أمر الشيطان صارف ، يقسم أحدهما بالايمان المغلظة أنه لابد قاتله ، فاذا ذهبت سطوة الغضب ندم على أيمانه التى لايمكن له انفاذها ، والا ترتب عليها ضرر كبير .

فاذا الشرع الشريف يفتح باب الغفران عن طريق الكفارة التى لولاها لوقع صاحبها فى حرج شديد ، قال تعالى : " لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون " (١) .

قال الشيخ البروسوى : اللغو فى اليمين : الساقط الذى لايتعلق به حكم .. فلا مؤاخذة فى هذا اليمين بأثم ولا كفارة ، أما اليمين الغموس وهى حلفه على أمر ماض ، أو حال كذبا عمدا مثل قوله : والله لقد فعلت كذا ، وهو لم يفعله وعكسه ، ومثله والله مالهذا على دين ، وهو يعلم أن له عليه دينا ، فحكمها الأثم لأنها كبيرة قال عليه السلام : " من حلف كاذبا أدخله الله النار " (٢) والمعنى " لايؤاخذكم الله فى

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨٩ .
(٢) الحديث أخرجه أبو داود بلفظ " من حلف على يمين مصبورة كاذبا فليتبوأ مقعده من النار ومعنى معبورة أى لازمة له من جهة الحاكم وأنظر جامع الأصول جـ ١١ ص ٦٥٨ .

حق أيمانكم بسبب ماكان لغوا منها • بأن لايتعلق بها حكم دنيوى ، أو أخروى •

والآية الكريمة فرقت بين أنواع من اليمين :

(١) اليمين اللغـــو :

وهو الساقط الذى لايتعلق به حكم دنيوى أو أخروى ، فلا مؤاخذة فيه ، وان كانت فيه كفارة ، وقد يبلغ الأمر حد التعزير متى كان المقصود بها اللغو لذاته ، واستحقار الأحكام الشرعية •

(٢) اليمين الغموس :

وهو المنعقد على غير صدق عمدا ، وهو يدخل صاحبه النـــار للأحاديث الكثيرة فى هذا اليمين ، وسميت غموسا ، لأنها تغمـــس صاحبها فى النار ، ان لم يتب قبل الموت ، وتقبل توبتــه •

(٣) اليمين المنعقـدة :

وهى اليمين المقصود به فعل شىء أو تركه حالا أو مستقبلا ، وهذا اليمين له أثم تزيله الكفارة متى لم يمكن الوفاء به ، على أى نوع من أنواع العجز ، فمتى عجز عن الوفاء بما انعقد عليه اليمين فقد وجبت الكفارة•

وكفارة هذا اليمين المنعقدة بلفظ الجلالة ، أو صفة من صفاتـــه تعالى لها مراحل :

المرحلة الأولى :

اطعام عشرة مساكين مما يأكله الحالف ، حانثا ، طعام يوم بأكمله لكل واحد من العشرة ، فلو كان من أصحاب العمارات والأرصدة البنكية التى تملأ بيوتهم النعم والخيرات ، فان الكفارة من جنس ما يأكل هو لا من جنس ما يعيش عليه الفقير ، لأن الكفارة متعلقة به كنوع من العقاب له ، والتكفير عن خطاياه ، وبالتالى فلابد أن تكون من جنس ما يأكله ويعيش عليه مهما غلا سعره وارتفع ثمنه .

المرحلة الثانية :

كسوة عشرة مساكين أثوابا تستر عوراتهم ومن جنس ما يلبسه هو .

المرحلة الثالثة :

تحرير رقبة من رقها ، شريطة أن تكون الرقبة سليمة ، فلا يجوز فيها عتق الأعمى ، والأخرس ، والأصم لفوات بعض المنفعة فيه ، أما اذا لم يوجد الا هو فان الكفارة تتحقق به أولى من ابطالها أو تعطيلها على أن يعينه على نوائب الحياة .

المرحلة الرابعة :

صيام ثلاثة أيام متواليات متى عجز عن المراحل التى سلف ذكرها .

---

(١) الشيخ اسماعيل البروسوى — تنوير الأذهان جـ ١ ص ٤٢٣

والیمین المنعقدة أنواع :

(١) نوع یجب الوفاء فیه :

وهذا النوع یشمل کافة أعمال البر والخیرات کفعل الفرائض ، وأداء الزکاة ، والصیام والواجب وترك المعاصی الی آخر هذه الوجوه ، وهذا النوع یجب الوفاء به والا یحنث صاحبه فیه لأنه فرض علیه ، وأکده صاحبه بالیمین فلایرجع عنه ، وطالما أنه فی الطاعات فلا محیص عنه ، وان تأجل لبعض الوقت ، لإعسار طاریء أو مانع لادخل له فیه .

(٢) نوع یجب عدم الوفاء فیه بل یجب الحنث فیه :

کمن حلف علی فعل الزنا ، أو السرقة أو القتل ، أو قطع رحم ، أو فعل معصیة ، فان هذا النوع یجب الرجوع عنه ، والحنث فیه ، لأنه فعل معاص وترك واجبات ، وفی الحدیث الشریف " من حلف أن یطیع الله فلیطعه ومن حلف أن یعصیه فلا یعصه" (١) وقوله صلی الله علیه وسلم : " من حلف علی یمین فرأی غیرها خیرا منها فلیرجع عن یمینه ولیکفر " .

من ثم فقد بان لنا أن موضوع علم الأخلاق هو : دراسة السلوك الانسانی الذی صدر عن صاحبه بارادة حرة وفعل خاص ، مراد منه الفعل

---

(١) أخرجه البخاری والترمذی وأبو داود والنسائی بلفظ" من نذر أن یطیع الله فلیطعه ، ومن نذر أن یعصی الله فلایعصه " _ جامع الأصول جـ ١١ صـ ٥٥٢ .

أو الترك أمرا أو نهيا ، من غير ضغط عليه أو اكراه له ٠

وهذا فارق جوهرى بين موضوع الأخلاق الاسلامية ، وبين موضوع الأخلاق فى القانون الوضعى ، أو الدراسات الأخلاقية التى لاتهتدى بالقرآن الكريم ، أو السنة النبوية المطهرة – وانما تهتدى بما وضعه لها مفكروها وعلماؤها ، الذين لاتقف عند العصمة أفكارهم ، ولاعن الخطأ عقولهم ، ولاعن الملذات نفوسهم ومثلهم لايعبأ به ولاقيمة له ٠

ولذلك كان لعلم الأخلاق فى الاسلام قيمة ذاتية ، انها تحول الفرد من حيوان شهوانى الى انسان ملائكى ، ومن بهيمية الغرائز الى قمة العقل والروحانية ، انها تهتم بالفرد باعتباره الخلية الحية فى بناء المجتمع ، فاذا صلحت تلك الخلية الأولى قام البناء عليها سليما ٠ ولايقتصر على تنظيم السلوك لنيل السعادة فى الدنيا ، بل للتمتع بها أيضا فى الحياة الأخرى" (١) ٠

وأرى أن علم الأخلاق يحاول ضبط سلوك الانسان حتى تكون أخلاقه كريمة وفى النهاية تعود بالخير على الفرد ، كوحدة أولى فى بناء هذا المجتمع ، وعلى المجتمع ككل باعتباره المساحة الشاملة ،

---

(١) الدكتور / محمد كمال جعفر – فى الفلسفة والأخلاق ص ١٥١ ٠

والجسم الأكبر والبيئة التى تضم الانسانية فى رحابها ٠

وغاية ما يمكن قوله هو أن الأخلاق فى الاسلام تقوم على أسس قويمة ، وضوابط ثابتة ، أنه يستمد قوته من مصادره الأساسية ، التى هى القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، فإذا أضيف اليهما فعل الصحابة وسلوك التابعين ، كان اطارا يمكن للجميع محاولة الاقتداء به والالتزام بما فيه والله الهادى الى سواء السبيل ٠

﴿الفصل الثالث﴾

((بين الأخلاق الاسلامية والأخلاق الوضعية))

((بين الأخلاق الاسلامية والأخلاق الوضعية))

سلف الحديث عن الأخلاق الاسلامية والوضعية من حيثيات كثيرة فى النقاط التى سلف تناولها ، ولكن ربما يكون الفرق بينهما يحتاج الى وضوح وبخاصة بالنسبة لحديث عهد بدراسة الأخلاق ، لم يتعرف على أصوله ونظرياته ، ومناهجه وغاياته ، وكذلك علم الأخلاق ، ومن ثم ترانى أحاول بيان الفوارق بينهما حتى نضع الحواجز فى مواضعها ، انها حواجز عالية وبناؤها مرتفع الأسوار ، متنوع المواد الأولية ، انها حواجز تتمثل فى كل من :

(١) التسمية والوصف .

(٢) الموضوع .

(٣) الحاكم على الأخلاق .

(٤) الغاية فى كل منهما .

(٥) المصدر فى كل منهما .

(٦) المؤلفات .

ولما كانت هذه الفوارق كثيرة ومتعددة سأعمل على تناول بعضها ، وبقدر ماتسمح به العبارة ، ويؤدى الغرض ، فلنبدأ بذكرها على النحو التالى :

أولا : التسمية والوصف :

الأخلاق الالهية هي الأخلاق السماوية في مقابلة الأخلاق الأرضية البشرية ، فالأولى لها اسم ، وتوصف بأنها الهية سماوية والموصوف تحدده الصفة وتميزه عن كل ماعداه ، انها ههنا جملة مكونة من لفظتي أخلاق وسماوية وهي مبتدأ وخبر ، والمعروف أن هناك علاقة تربط بين المبتدأ والخبر تسمى الحكم والنسبة .

كما أنها تمثل عند النحاة مركبا توصيفيا يقوم بين الموصوف والصفة ، وتقع فيه المطابقة على أكمل وجه ، وعلى هذا النحو يكون المراد هو أن هذه المباحث التي يضمها بين حناياه الأخلاق تخصه وحده ، وتسمى به من غير منازع فيقال على الأخلاق الفاضلة ، والآداب الراقية " أخلاق سماوية ، أخلاق اسلامية ، أخلاق الهية " وكلها بمعنى واحد فهي سماوية لأنها من جهة السماء أنزلت ، واسلامية لأنها من دين الاسلام اقتبست واليه نسبت ، وهي الهية لأن مصدرها هو الله رب العالمين .

أما الأخلاق الأخرى فانها تسمى أخلاقا بشرية ، لأن مصدرها البشر وتسمى عقلية ، لأنها من انتاج العقل الانساني ، وتسمى أرضية لأن أهل الأرض هم الذين اخترعوها فهي تحمل سماتهم وأوصافهم ، وهي في كل حالاتها من الأرض ، عليها نشأت مع اصحابها ، وتختفي باختفائهم ،

ولاقيمة لها الا فى أذهانهم ، كما توصف بأنها وضعية ، لأن الذين أخترعوها تواضعوا على تسميتها ومباحثها وكافة ما يتعلق بها ، ولذا فهى أخلاق أرضية بشرية وضعية ، بها تسمى وعليها يحكم ، وفيها توصف ، هذا عن التسمية والوصف .

ثانيا : الموضوع :

من المعلوم أن كل علم لابد له من موضوع ، تعرف به مسائله ومباحثه حتى يتميز عن غيره ، فمثلا الحساب والجبر موضوعهما الكم المنفصل ، لكن الحساب يميز بأن موضوعه الأرقام الحسابية ، بينما الجبر موضوعه الرموز ، وان كلا منهما واقع تحت الكم المنفصل على ما سلف بيانه .

كما أن الهندسة والميكانيكا موضوعهما المشترك واحد ، هو الكم المتصل ، ولكن تستقل الهندسة بأن يكون موضوعها الخاص بها هو السطوح والأحجام ، فرغم أنها ضمن الكموم المتصلة ، الا أنها تستقل بجانب واحد منه هو السطوح والأحجام التى تميزها عن الميكانيكا مثلا ، رغم اشتراك الميكانيكا معها فى الكم المتصل .

واذا كان هذا بالهندسة ، فان الميكانيكا هى الأخرى تتمسك بموضوعها المستقل ، فعلى الرغم من أنها تعيش فى رحاب الكموم المتصلة الا أنها تستقل عن الهندسة بأن موضوعها هو الحركة والنظام ، ويعبر عنه بالديناميكا والاستاتيكا اللذين يستقل كل منهما - أيضا - بموضوعه

الخاص به داخل الميكانيكا نفسها ، وهذا التخصيص في الموضوعات من سمات البحث العلمي ، وكل علم له موضوعه المستقل ، والا ماكان علما .

وطبقا لهذا الذي سلف فان الأخلاق السماوية تقف على موضوع واحد ، انه الأفعال الارادية ، سواء كانت محمولة على مظهر خارجي ، أم اعتصمت في نية صاحبها وضميره ، مع حرية صاحبها وارادته الخاصة المطلقة ان صاحبها يسأل عنها لأنه يمارسها بطواعية ، ويسلك دروبها بارادة خاصة ، حتى لو اعتصمت داخل أوتار نيته المستكنة في ضميره .

أما الأخلاق الوضعية فان موضوعها مايزال محل خلاف ، هل هو الأفعال الارادية وحدها ، أم أن موضوعها هو المظهر الخارجي الذي يبدو على السطح ، بل انك لم تر بينهم اجماعا ، لأن المذاهب الأرضية وضعية ، وكل منها يحاول وضع قواعده ومسائله طبقا لثقافته وامكانياته التي تخالف ثقافة الآخرين وامكانياتهم بل وأثر بيئاتهم عليهم .

ثم ان هناك فريقا آخر من أصحاب الأخلاق الوضعية لايضع في حسبانه الارادة الحرة ، وانما ينظر الى الأفعال المنعكسة باعتبارها مظاهر يمكن الحكم عليها وتحديدها ، واعتبارها موضوعات اخلاقية ذات مسائل فنية ، وهي طبقا لهذا موضوعات أخلاقية ليس الا .

بل انك لو راجعت مذاهب الحدسيين أو العقليين ، أو تفحصت أدلة الوضعية المنطقية أو قرأت أفكار الاجتماعيين في المسألة لبان لك أنهم

لا يتفقون على موضوع واحد يمكن تسميته موضوع الأخلاق ، بل على العكس ترى تباينا واختلافات لايمكن جمع أطرافها الى ناحية معينة ، ولصالح البشرية المجهدة ٠

وربما تسأل لماذا ؟ هذا الموقف من الأخلاق الأرضية ؟

والجواب : أن هذه المذاهب الأخلاقية انخرطت فى دروب ومسالك وقع بينها التشابك بحكم كونها غير معصومة انتهى بهم الى البعد عن تلمس الطرق الصحيحة ، حيث تمسك كل منهم بموقفه ، وحاول لطعن الآخرين ، والبحث عن عوراتهم ، وهى فى مجملها أفكار بشرية وضعية ، وبالتالى فان موضوع الأخلاق فيها ليس محل اتفاق فى كلياته وجزئياته ٠

ثالثا : الحاكم على الأخلاق :

الحاكم الأخلاقى فى الأخلاق السماوية هو الله سبحانه وتعالى ، انه الآمر الناهى ، هو الآمر بها ، الناهى عنها ، هو الآمر بالأخلاق الحسنة الممدوحة ، الناهى عن الأخلاق السيئة المذمومة ، الموجه لها ، المقيم لكل جوانبها ، سواء كانت أخلاقا ظاهرة ، أو مختفية ، خارجة من الداخل أو منعكسة على الداخل ، انه سبحانه وتعالى العالم الذى لايعزب عن علمه شىء ، وبالتالى فالحاكم فى الأخلاق السماوية هو الشرع ، وهو معصوم وضامن لصحة الأخلاق الانسانية حتى تثاب ومؤكدا أن الأخلاق السلبية الشريرة يعاقب عليها صاحبها ٠

اذن الحاكم على الأخلاق فى الاسلام هو الله سبحانه وتعالــى ، وذلك بيّن فى النقل المنزل — القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة — وهو الآمر الناهى ، أمره نافذ وطاعته واجبة ، ولما كان النقل المنزل بهـذه الخصوصية فقد اعتبر حاكما ممتازا على الأخلاق الالهية — السماوية التـى أنزلها الاله الأعظم من سماواته العلى ، الى أهل الأرض لإصلاح معاشهم ومعادهـم .

الأخلاق الاسلامية الحاكم فيها واضح ، يحدد مسؤليات الفرد تجاه المجتمع الذى يعيش فيه ، تجاه الفرد نفسه التى يتحرك بها ويضمهـــا جسمه ، وكذلك مسؤليته تجاه الآخرين من الكائنات التى تقاسمه الحيـــاة على هذا الكوكب الأرضى ، هذا الكون الذى خلقه الله بداخله ، وأمـــره بالمحافظة عليه واصلاح شئونه ، باعتباره خليفة الله فى أرضه ، وجعلهـــا مسخرة لخدمته ، وكافة ما فيها قد هيأه الله لخدمة الانسان نفسه .

" وخلاصة القول : أن القرآن الكريم يضع مصدرا رئيسيا وهاما مـــن مصادر الالزام الخلقى ، هذا المصدر هو النص الدينى ، انه العقل الالهى هذا العقل الذى اذا رجع المرء الى حالته الأولى ، الى فطرته ، لأدرك: أن هذه الفطرة تتفق وتتطابق مع أحكام العقل الالهى ، بعبارة أخـــرى : اذا تخلى المرء عن أهوائه وميوله وأضحى عقلا خالصا فانه سيدرك أن أحكامه

ليست حينئذ الا امتدادا للأحكام الالهية" (١) .

أما الأخلاق الوضعية ، فان الحاكم الأخلاقي فيها لم ينل اجماعا وانما نهجت المذاهب الأخلاقية مناهج مختلفة حول هذا الحاكم الأخلاقي ، بل كل مدرسة فكرية تناولت الأخلاق اصطنعت لنفسها منهجا في الأخلاق يتفق مع الاتجاه الذي سلكته والطريق الذي سارت فيه

فمنهم من مال الى أن الحاكم الأخلاقي لايكون الا العقل وحده لأنه حجة الله على عباده ، ومحل التكليف في الانسان بينما ذهب آخرون الى أن الحاكم الأخلاقي هو المجتمع الانساني بقيمه وعاداته ، آدابه وثقافاته نوازعه وسلوكياته ، لأن الانسان يتلقى هذه وتلك من داخل البيئة التي يعيش فيها ، وليس هناك مجال آخر لقبول نزعات أخرى ، أو حاكم أخلاقي بعيد عن ميدان المجتمع ، وهم أصحاب النظرة الانثروبولوجية .

واذا سألتهم عن المراد من مفهوم الحاكم الأخلاقي ههنا ، أو الالزام كما يطلقون عليه كان جوابهم بمعنى " أن الالزام الذي يوجب على الانسان مزاولة الحياة الفاضلة ، والانصراف عن الحياة السيئة ، تفرضه سلطة العرف الاجتماعي في استحسانه للخير ، واستهجانه للشر" (٢) وليس لشيء آخر سلطان على الأخلاق غير سلطان العرف الاجتماعي وحده .

---

(١) دكتور / فيصل بدير عون — الفلسفة الخلقية على ضوء الاسلام ص ٥٢ ، ط مكتبة سعيد رأفت ١٩٩٢م .

(٢) دكتور / توفيق الطويل — مدخل الى الفلسفة ص ٢٠ .

كما وقف آخرون على أن السلطة المدنية هي الحاكم على الأخلاق بالحسن والقبح ، انها سلطة الملك ، أو رئيس الدولة ، أو رئيس الوزراء ، في الدولة التي يمثل رؤساؤها بالنسبة لها صورة تشريفية " (١) والسلطة المدنية في هذه الحالة هي الوحيدة المنوط بها الحكم على الأخلاق ، وربما كانت فكرة توماس هوبز هي البداية لهذا التطور الحاكي في أوربا الحديثة ٠

اذن الحاكم الأخلاقي في الأخلاق الوضعية متعدد ، وليس محل اتفاق ، كما أن الأحكام الصادرة عنه في هذه الحالة لاتكون مطلقة وانما نسبية ، بجانب أنها مؤقتة وليست مؤبدة ، ثم هي في النهاية محل توارد وتبدل ، وليست محل اضطراد واستمرار ٠

من ثم ٠ فقد بان أن الحاكم الأخلاقي في الأخلاق السماوية جدير بالاعتبار ، وهو المعول عليه لكونه واحدا ، وصادقا ، ومضطردا ، وملائما لظروف الناس وبيئاتهم ، فيه من المرونة مايسمح بالتطبيق في كل حال ومكان ، ومع كل الأشخاص ، وأنه الوحيد المعول عليه اذا رام الناس اصلاح كونهم والمحافظة على كونهم خلفاء الله في أرضه ٠

---

(١) كالحال في اسرائيل ، وانجلترا ، والسويد وغيرها من الدول وكذلك الامبراطوريات التي يمثل رؤساؤها بالنسبة لها نوعا من البروتوكولات ، السياسية فقط دون أن يكون لأي منهم تأثير فعلي على مجريات الأمور في بلادهم ٠

رابعا : الغاية من الأخلاق :

الغاية من الأخلاق السماوية واحدة ، هى تعبيد الناس لرب العالمين ، من خلال تعريفهم واجباتهم والالتزامات المفروضة عليهم من قِبل الله العظيم ، انها غاية نبيلة حيث يتحقق فيها ارضاء العبد لربه وحينئذ تنصلح الخلافة الأرضية ، ويبلغ الناس مأمنهم فى صلاح دنياهم وآخرتهم ، وفى النهاية يتحقق لهم الرضوان ، ونعيم الجنان ، ولعله مايشير اليه الحديث الشريف : " أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا " (١) انها غاية عملية ونظرية ، وجدانية وعقلية معا ٠

أما الأخلاق الوضعية فان الغاية فيها نظرية ، انها مجرد التكمل الخلقى ليس الا ، وهى نسبية لأنه لاتوجد قواعد ضابطة لهذا التكمل الخلقى فى الأخلاق الوضعية ، فلا قيمة للسلوك عندهم ، ولاعبرة بالآثار الاجتماعية المترتبة عليه ، سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع ، انها غاية خاوية هشة ، لاتقدم نفعا ، ولايمكن تطبيقها ، انها مجرد تكمل نظرى والفرق كبير ٠

وربما يقال : ان النظريات الأخلاقية الوضعية قد حققت تقدما ملحوظا فى مجال خدمة الفرد والمجتمع ، واغفال هذا التقدم ربما أضر بالناحية الأخلاقية نفسها ٠

---

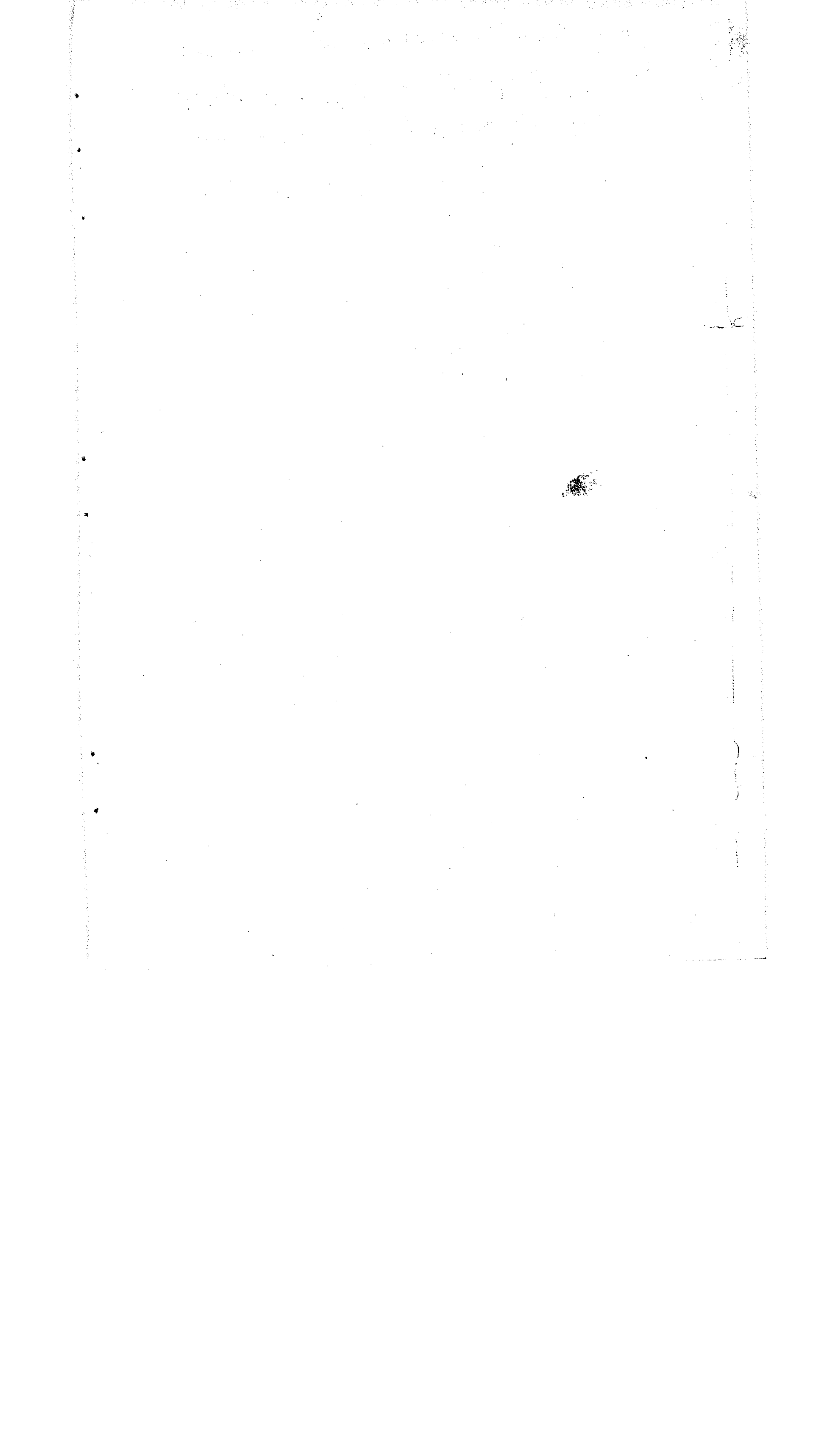
(١) رياض الصالحين باب حسن الخلق٠

والجواب : ان هذا التقدم الملحوظ ليس الا ناحية شكلية ، أعنى تقدم فى الجانب النظرى الخيالى الذى لايسمح الواقع بتطبيقه ، خذ مثلا المدن الفاضلة وأنظر الى القيم الأخلاقية فيها تراها مغرقة فى الخيال حتى اذا حاول أصحابها ايجاد وسيلة للتطبيق تغشاهم فشل كبير ، وأحاط بهم واقع صلب ليس لهم حيلة فى ضرب استقراره حتى يوجدوا لأنفسهم مكانا به .

ولم يختلف الحال مع أصحاب اليوتوبيا أو المدن الفاضلة فى القديم أو الحديث ، مع أنها أرقى تصور فكرى فى الجانب الأخلاقى ، بل انك اذا راجعت مدينة الفارابى الفاضلة ، وقارنت بينها وبين أطلنطس الجديدة عند فرنسيس بيكون سوف يأخذك الدهش ، انها مدن فاضلة فى الأخلاق ، فاضلة فى لغة التعبير لكنها ساقطة فى لغة الواقع العملى .

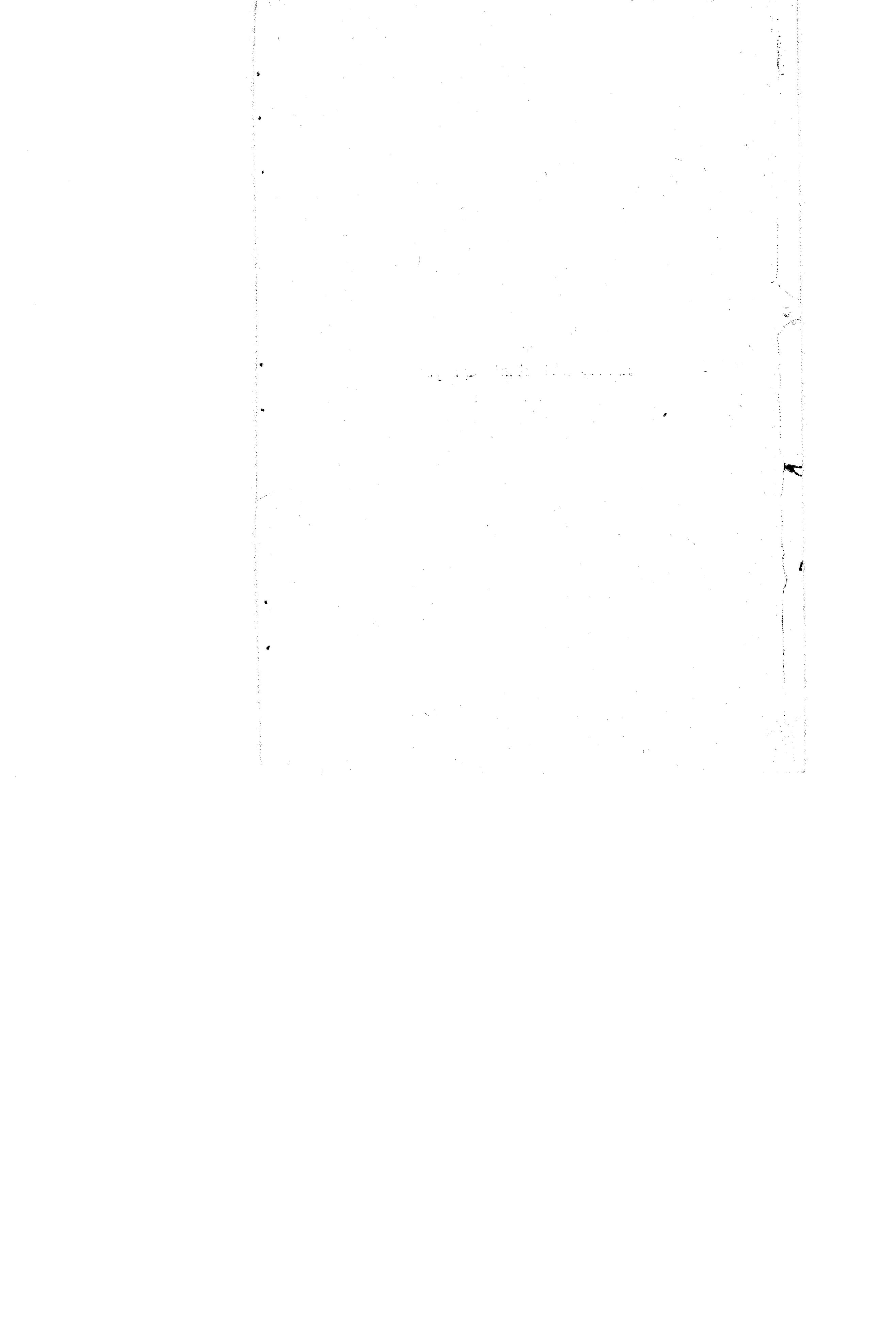
فاذا نظرت الى مدينة الله — للقديس أوغسطين — فلن تجد كبير فرق فى التصورات لها ، الا بقدر ثقافة كل منهم ، وظروف بيئته ، والحال التى نشأ عنها ، والضغط الفكرى الذى قاد الى رسم خطوطها العريضة مما يدفع الى القول : بأن الغاية فى الأخلاق السماوية فاضلة قابلة للتطبيق ، عليها صلاح أمرى الدنيا والآخرة ، وبها تتحقق الخدمة المنوطة بالخليفة لله فى أرضه ، أما الغاية فى الأخلاق الوضعية فهابطة غير قابلة

للتطبيق ، نسبية ، متأثرة بالظروف التى أحاطت بأصحابها ، وفـــوق ذلك كله فهى دعوة صريحة للتحلل من القيم والأخلاق الفاضلة لعجزهـــا عن مواجهة التيارات التى تحيط بالأمم وتسيطر على المجتمعات .



﴿الفصل الرابع﴾

((دراسة بعض الفضائل الأخلاقيـــــة))



((دراسة بعض الفضائل الأخلاقية))

الفضيلة ضد الرذيلة ، وتعرف الفضيلة في اللغة بأنها "الدرجة الرفيعة في حسن الخلق" (١) لأن فضيلة الشيء مزيته ووظيفته التي قصدت منه " وهي أنواع منها :

(١) فضيلة السيف : وهي إحكام قطعه

(٢) فضيلة العقل : إحكام فكره

غير أن علماء الأخلاق قسموا الفضائل الى أصول وفروع ، وبينوا أن الأصول أربعة ، وكل أصل منها يندرج تحته العديد من الفروع ولكنا ههنا سنعنى بذكر الفضائل الأربع في هذه الدراسة آملا أن الحقها بفروعها ، أو الحق فروعها بها في وقت آخر فما هي الفضائل الأربع ؟

والجواب : مانذكره على النحو التالي : —

الأولى : فضيلة الحكمة :

الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، وهي فضيلة النفس الناطقة المميزة " (٢) وعرفها الامام الغزالي — باعتبار الأصل — بأنها : حالة

---

(١) المعجم الوجيز مادة : ف ض ل ص ٤٧٥ .

(٢) ابن مسكويه / تهذيب الأخلاق ص ٢٦ وهذا التعريف على اعتبار أن الحكمة فضيلة خلقية لامفهوما فلسفيا .

للنفس بها تحرى الصواب من الخطأ ، وذكر الجرجانى أنها " العلــم بحقائق الأشياء على ماهى عليه والعمل بمقتضاه " (١) .

وهى واحدة من أمهات الفضائل فى جميع الأحوال الاختياريـــة (٢) وكما أنها احدى الأصول الأربع للفضائل عند الغزالى ، فهى جنس مـن أجناس الفضائل عند ابن مسكويه (٣) .

والفرق بين تعبير الغزالى بأنها من أمهات الفضائل ، وبين تعبير ابن مسكويه أنها جنس من أجناس الفضائل فى مجرد التعبير اللفظى ، اذ أن من قال بالأجناس لايختلف عمن قال بالأمهات الا فى الصياغة اللفظيـة ولكن المعنى واحد مما يجعلنا ننوه اليه .

والحكمة فضيلة خلقية ، أما لماذا ؟ فلأن فاقدها لايضع الشيء فى موضعه ، ومن ثم فلا تصدر عنه فضائل واعتبره الشرع الحنيف سفيها ، حتى حجمه عن التصرف فى ماله وحجب عنه كثيرا من التكاليف الشرعية لعجـــزه عن القيام بها ، كما أن الحكمة — باعتبارها فضيلة خلقية — تميز صاحبها بأمرين على وجه الخصوص ، وكلاهما لاينفك عن الآخر ، بل ان التـــلازم بينهما طبيعة ثابتة لكل منهما ، والأمران هما :

---

(١) التعريفات ص ٨١

(٢) دكتور / زكى مبارك — الأخلاق عند الغزالى ص ١١٩

(٣) احياء علوم الدين ج ٣ / تهذيب الأخلاق .

١ — العلم بحقائق الأشـــياء .

٢ — العمل بمقتضى هذا العلم.

ومن ثم فانه لابد للعلم والعمل من نفس ناطقة تقوم على حراستهما ، و ملكات تعلو فتنصـــب نفسها ميزة لهما ، بجانب فضل يدفع صاحبه الى فعل يقصد به أرضاء الخالق العظيم على ناحية خلقية ، لارهبة مـــــن سلطان بشر ، ولا خوفا من سطوة قانون رسمه الخلق على طريقتهم فـــى الأمور الوضعية التى لاتستند الى هدى شرعى .

كما أن هذه النفس ، وتلك الملكات انما تعملان بقوة ضمير أخلاقـــى يمثل حالة من الالهام الذاتى الذى يقوم على مراقبة قدرة الله وتنفيـــذ ما أمر به لاتملقا لحاكم جائر تربع على حكم بلاده بقوة الحديد وألهب ظهر شعبه بأسياط البغى التى تمزق الجلود ، أو فحيح النار الملتهبة التـــى يلقى فى أتونها الخصوم .

وتلك الحكمة اعتبرت فضيلة من أمهات الفضائل ، ولاريب فى ذلـــك انها فضيلة القوة العقلية الملتزمة أمرالشرع وهى بالتالـــى رأس الأخـــلاق الحسنة وربما وردت فى القرآن الكريم — كلفظ — بمعنى النبوة والرســالة ، قال تعالى : " وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" (١) .

---

(١) سورة ص الآية رقم ٢٠

كما وردت بمعنى : العلم " والتفقه فيه وربما نستشهد لذلك بقوله سبحانه وتعالى عن لقمان الحكيم :" ولقد آتينا لقمان الحكمة" كما أن الحكمة مشتق لها أسماء ودلالات ، فالحكيم من أسماء الله الحسنى ووصف القرآن بالذكر الحكيم لأنه الحاكم للناس وعليهم ، ولأنه محكم لا اختلاف منه ولا اضطراب حوله ، اذًا الحكمة من حيث هى فضيلة لا خلاف حولها " (١) .

ولقد اعتبرها الله احدى المنح التى يسوقها الله الى بعض خلقه ، قال تعالى " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما " (٢) .

كما أنه سبحانه وتعالى ميز أصحاب الحكمة بأنهم قد حصلوا على مزيد فضل منه سبحانه وتعالى حيث قال جل شأنه " يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب" (٣)

قال الامام الزمخشرى " يؤتى الحكمة ، يوفق للعلم والعمل به ، والحكيم عند الله هو العالم العامل " (٤) .

---

(١) المعجم الوجيز / مادة : ح ك م صـ ١٦٥ بتصرف .
(٢) سورة النساء الآية رقم ٥٤
(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٦٩
(٤) الكشاف / ج ١ / صـ ٣١٦ ط الريان .

وقال الشيخ البروسوى : " فى معنى الآية : " يؤتى الحكمة : أى مواعظ القرآن يبينها ويوفق للعمل بها من يشاء من عباده ، حيث يؤتيه الحكمة بموجب سعة فضله واحاطة علمه ، ومن يؤت الحكمة يعطى العلم والعمل ، فقد أوتى خيرا كثيرا هو خير الدارين ، وما يتعظ بما أوتى من الحكمة الا أصحاب العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى " (١) .

اذًا الحكمة فضيلة تقود المؤمن بالله ربا وبالاسلام دينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا الى التخلق بأخلاق الله ، حيث يجود على الفقراء ويدفع ماوسوس اليه الشيطان من خوف الفقر والسلطان ، فان الله بيده مفاتيح الأرزاق وهو المعطى على الاطلاق " (٢) .

وذكر الامام الرازى : أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق الذى لايقترب منه زيغ ولا خلل ، إنه حكم أولى الألباب ، وذكر أن المراد من الحكمة فى الآية هو العلم وفعل الصواب " (٣) .

كما ذكر أن الحكمة على هذا النحو أنها التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية واستشهد بقوله صلى الله عليه وسلم " تخلقوا

---

(١) الشيخ اسماعيل البروسوى / تنوير الأذهان فى تفسير روح البيان ، م ١ ص ٢١١ ط دار الصابونى .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٢ .
(٣) امام الرازى / مفاتيح الغيب م ٣ ص ٦٢٠ ط الغد العربى .

بأخلاق الله تعالى " وقسم الفخر الحكمة الى قسمين هما : الحكمة النظرية ، والحكمة العملية ، وبين الفرق بينهما وأن الحكمة النظرية تتمثل فى أمور العقيدة من مثل قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام " رب هب لى حكما " (١) ، وقوله مناديا سبحانه وتعالى موسى الكليم " اننى أنا الله لا اله الا أنا " (٢) ، وكذلك ماورد فى القرآن الكريم بحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى " فاعلم أنه لا اله الا الله " (٣) .

وهذه الآيات التى استشهد بها وأمثالها قد جاءت الحكمة فيها فضيلة دالة على الالتزام بالطاعة والاخلاص فى العمل على أن يكون ذلك كله لله رب العالمين .

واذا كنا قد عرضنا رأى الفخر فى الحكمة النظرية وذكرنا أنها تمثل العقيدة فان الحكمة العملية تمثل الشريعة من وجهة نظره ، واستدل بقوله تعالى عن ابراهيم – عليه السلام – " وألحقنى بالصالحين " وقوله : على موسى الكليم " فاعبدنى " وعلى عيسى عليه السلام " وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا " وفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : " واستغفر

---

(١) سورة محمد آية رقم ١٩
(٢) سورة طه الآية رقم ١٤
(٣) سورة الشعراء الآية رقم ٨٣

لذ نبك " (١) .

والملاحظ أن فضيلة الحكمة عند الشيخ قد قسمها الى نظرية وعملية ، واستدل على كل منهما بظاهر النقل المنزل ، ثم انتهى الى أن : " الانسان اذا رأى الحِكَمَ والمعارف حاصلة فى قلبه ، ثم تأمل وتدبر وعرف أنه لم تحصل الا بإيتاء الله تعالى وتيسيره كان من أولى الألباب.

وفرّق بين من يرى الأسباب عادية ومن يراها عقلية ، وبين أن المذهب هو اعتبار العلاقة بين المسببات وأسبابها تحكمها العادة وليس العقل ، " وأن من أضاف هذه الأحوال — السالف ذكرها — الى نفسه واعتقد أنه هو السبب فى حصولها وتحصيلها كان من الظاهريين الذين عجزوا عن الانتقال من المسببات الى الأسباب " (٢)

وقال الامام الايجى — رحمه الله — الحكيم " ذو الحكمة وهو العلم بالأشياء على ماهى عليه والاتيان بالأفعال على ماينبغى " (٣) .

من ثم فان الحكمة فضيلة نظر اليها الشرع الشريف ودعا الناس الى تلمسها والقيام اليها على النحو الذى يقودهم لسعادة دنياهم وآخرتهم ، فلنرحل الى فضيلة أخرى علّنا نلتقى بها فى جولتنا المقبلة .

---

(١) الامام الفخر الرازى / مفاتيح الغيب م ٣ جـ ٦ ص ٢٦٩ بتصرف .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦٢٢
(٣) السيد الشريف الجرجانى : شرح المواقف فى علم الكلام / الموقف الخامس فى الالهيات تحقيق د / احمد المهدى ص ٣٦٥ مكتبة الأزهر.

الثانيـة : فضـيلة الشـجاعة :

الشجاعة بخلاف الجبن والتهور ، ولذلك عدها الأخلاقيون احـدى أمهات الفضائل ، وعرّفوها بأنها هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهـور والجبن ،بها يقدم على أمور ينبغى أن يقدم عليها ، كالقتال مع الكفـار[1] ومن ثم فهى هيئة لقوة وليست هى ذات القوة ، وفى ذات الوقت فانها تمثل دافعـا ووسيلة لصاحبها حين يقدم على أمور ينبغى الاقدام عليها .

فمثلا اغاثة الملهوف ، ومحاربة الأعداء ، والمحافظة على الديـن والأرض والمال والعرض كلها تحتاج مواقف محددة ، وتستلزم صورة واحدة ولاتوجد هذه الصورة الا فى الشجاعة ، ولذلك تعددت التعريفـات لها .

فمنهم من عرفها بأنها " شدة القلب عند البأس ، وهى اذا قيسـت بضديها كانت فضيلة وسطى بين رذيلتين كلاهما مهلك ، اذ أن الشجاعة وسط بين التهور والجبن ، ان التهور رذيلة لأنه يأخذ بصاحبه الـى البوار ، لأن صاحبه دائما مقدام بلامبرر ، مسـراع دون تعقل ، مندفـع فيما يجب فيه التأنى ، سفيه فى تصرفاته كلها ، ويكفيه أن التهور رذيلـة وأنها تعيش فى أعماقه ، وهو يعيش بين جنباتها .

---

(١) الجرجانى — التعريفات باب الشين ص ١١٠

والطرف الثانى هو الجبن وهو أيضا رذيلة بل لقد تواترت الأقوال محدثة عن الجبن باعتباره رذيلة مغرقة فيما وصفت به ، وكم من أمة جبن أفرادها فأذلهم خصومهم ، وأزالوا مجدهم وأوطانهم ، بل ربما أبادوهم ، ويكفى أن الجبان يموت فى كل يوم ألف مرة ، بينما الشجاع يموت فى العمر كله مرة .

ثم ان الجبان دونٌ خسيس ، والجبن ذلة ومهانة ، وصاحبها تيوث ، لايثور لعرضه وان انتهك ، ولا لدمه وان أهدر ، ولا دينه وان اعتدى عليه ، ولاوطنه وان جثم على صدره خصم لدود ، بل فوق ذلك فالجبان لايطالب بحقه اذا أخذ ، ولايعمل على استرداد ماله ان سلب ولايدافع عن دينه اذا امتهن ، ولا عن وطنه اذا غزاه مستعمر .

والجبن رذيلة وأى رذيلة يغذيها حب المال فى غير طاعة ، وينميها التعلق فى الدنيا ، ويحرسها الحرص على الحياة الدنيا ، وكأن الحياة فرصتهم الوحيدة ، أو أنها خلقت للجبناء وحدهم ، وتلك صفة تميز بها اليهود ومن على شاكلتهم ، وكل من يتصف بها فقد حمل سمات اليهود كلها ، ولعل الآيات القرآنية قد كشفت هذا النهج الغريب .

قال تعالى " قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت

أيديهم والله عليم بالظالمين • ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون" (١) •

لكن تلك الرذيلة التى تقابل الفضيلة ماهو جزاؤها ؟ الجواب : أن شدة التهالك على الحياة تؤدى الى الجبن واحتمال الضيم وتجعل الأمة التى تنتشر فيها هذه الرذيلة لاتفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة ، لقد تساوت أوجه الحياة أمامها بل الذليلة (٢) صارت لها المؤثل الذى ألفته ، من هنا كانت الشجاعة وسطا مقبولا بين طرفين كلاهما رذيلة ، بل عدت فى نفس الوقت فضيلة أخلاقية ، ومن أمهاتها على ماهى عبارة الامام الغزالى •

الثالثة : العفـــة :

العفة خصلة حميدة ، وصفة كريمة ، وخلق جميل ، ولذلك عرفوها بأنها " تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع" (٣) انها عملية تهذيب لقوة الشهوة ووضعها فى دائرة الشرع بحيث يكون هو الغاية عندها ، كما عرفوها بأنها : " هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذى هو افراط هذه القوة ، والخمود الذى هو تفريطها ، فالعفيف

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٩٤ ـ ٩٦

(٢) دكتور/ احمد السيد الكومى ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ـ قسم أول ص ٢٩٣ مطبعة قاصد خير •

(٣) دكتور/ زكى مبارك ـ الأخلاق عند الغزالى ص ١٦٩

من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة " (١) ٠

اذن العفة فى حد ذاتها صفة تقع فيها مباشرة الأمور فى حدود معينة ، انها حدود الشرع والمروءة ، وبالتالى تكون محمودة ، بل يمكن القول بأنها ذات المباشرة على الوجه المحمود شرعا ، وممارسة التوجيه المثالى للقوة الشهوية ، بحيث يقع الأمر موقع القبول الشرعى ، وصولا لغاية مثلى ، تقع فى دائرة ارضاء الله رب العالمين ٠

من ثم فقد امتدح الله أهل التعفف مهما كانت صفاتهم الأخرى التى ينظر الناس اليها نظرة أخرى ، أو يعتبرونها مقاييس يتفاضل الناس بها كالفقر والثراء ، مثلا ، فقد ضرب الله على هذه الاعتبارات ، وهدم تلك المقاييس ، وبين أن التعفف له مقياس واحد وان تعددت أشكاله ، قال تعالى : " للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا " (٢) وصفهم الله من الناحية المالية بأنهم فقراء ، وهذا لاعيب فيه ، لأن المال من عند الله وكثرة المال وقلته متعلق بأمر الرزق والرزق من عند الرزاق سبحانه وتعالى ، ثم بين أنهم قد أقعدتهم الظروف ، ووقفت بهم الأغيار ، فهم ليس بامكانهم السعى فى الأرض لظروف

---

(١) الشريف الجرجانى — التعريفات ص ١٣٢

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٧٣ ٠

المرض ، كما أنهم — رغم حاجتهم — لايفكرون فى المسألة خوف المذلة ، ثم انهم لو سألوا فبشىء من التورية وكثير من الحياء الذى غمرهم من الرأس حتى القدمين ، انهم ينظفون هيئاتهم رغم ضيق اليد ، يعنون بأجسادهم رغم الفقر ، تقف هاماتهم عالية بين الناس ، خفيضة عند الله .

وفوق ذلك كله فان مظاهرهم العامة تدع الجاهل فى حيرة ، انه بحكم جهله لايلتفت لشىء الا اذا كان بارزا أمام عينيه يكاد أن يأخذه من رأسه ولحيته ، أما أن يلتفت الى غير ذلك فليس بامكانه ، انه جاهل ، وهل بعد الجهل شىء .

لذلك فهو ينظر الى هؤلاء الفقراء المتعففين نظرته الى الأغنياء ، فلا يسأل عنهم ، ولايبحث ظروفهم ، ثم انهم لشدة تعففهم ربما غلب ظاهر أمرهم على كافة النواحى الأخرى ، ومن ثم طلب الله من المؤمنين الاحسان اليهم ، والاهتمام بهم ، وبين أنهم من أهل التعفف ، ولهم سمات خاصة يمكن لكل ذى لب التعرف عليهم من خلال سماتهم التى يتميزون بها ومن أبرزها أنهم لايسألون الناس الحافا فى سؤالهم ، وملاحقة لأهل الخير ومتابعة المحسنين منهم ، انهم لايفعلون ذلك خشية المسألة التى تأتى نكتة سوداء فى وجه صاحبها يوم القيامة .

وجاء الحديث الشريف عاقدا مقارنة بين السائلين والمتعففين ، وبين أن أهل التعفف يعينهم الله من فضله ، فنوه بأقدارهم ، ورفع منزلتهم ،

فعن حكيم بن حزام رضى الله عنه — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " اليد العليا خير من اليد السفلى . وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ماكان عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ".(١)

ولما كانت العفة بهذه المكانة ، والمتعففون فى هذا الشأو قد بلغوا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم السؤال فى مقابلة العفة ، وذلك ليعرف الناس جميعا قيمة العفة والمتعففين ، وقد قالوا قديما ، الضد يظهر حسنه الضد ، ففى الحديث الشريف " عن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . من سأل الناس تكثرا فانما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر " (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم ، محذرا من المسألة والطمع ، ومؤكدا العفة وأنها فضيلة جميلة وخصلة حميدة ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما . " أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى . وليس فى وجهه مزعة لحم " (٣) ، والمزعة هى القطعة من اللحم .

---

(١) رياض الصالحين باب القناعة والعفاف ، والحديث متفق عليه ، ولفظ مسلم أخصر من لفظ البخارى .
(٢) رياض الصالحين — باب القناعة والعفاف ، والحديث متفق عليه ولفظ مسلم أخصر من لفظ البخارى ، والحديث رواه مسلم .
(٣) المرجع السابق — نفس الباب .

وقال عليه السلام " من أصابته فاقة فأنزلها بالناس ، لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل " (١) .

لأن سؤال الناس فيه شكاية الله تعالى ، ومن ثم فماد ام صاحب الفاقة قد توجه بها الى غير الله فليكلوه أمره ان كانت لهم به حيلة ، ولن يكون بأمكانهم لأن الأمور تجرى بمقادير قدرها الله تعالى ، أما من يسلم الأمر لله ، ويرضى بقضائه فهو وحده القادر على دفع الضر ، ورفع الدرجة ، وتحويل المصائب منافع متى رضى العبد بما أجرى الله عليه .

والباحثون فى الأخلاق يطالعون الأسفار المطولة ، التى تتحدث عن العفة وتروى القصص التى تهيم فيها ، لكن يكفى البحث أن يسجل مكانه العفة وقدر المتعففين من خلال نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة على مامر ذكره ، وفيما مضى كفاية فى هذا المكان .

الرابعة : فضيلة العدل :

العدل ضد الظلم والحقد ، ومعرفة الظلم هى التى تشرح مفهوم العدل ، وتبين عنه أوضح بيان ، فالظلم من الظلام وسواء كان نفس الظلم ، أو الظالم ، فكلاهما نذير سوء وبشرى طغيان ، فالظلام يفقد المرء القدرة على معرفة ماتحت قدميه ، كما لايمكنه من التعرف على مايحيط به من عدو يتربص ، أو بئر قد بعد قعره ، كم يخبىء تحت جنحه ، وكم من أهوال برزت الى الوجود تحت ستاره .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن .

والظالم سائر فى طريق مظلم ، ودرب غير مأمون ، لايدفعه للسير فيه ، الا خلق فاسد ، وضمير خرب ، ووجدان قلق مضطرب ، وايمان لايجاوز الشفة الى الحلقوم ، انه لايبلغ القلب ، ولايصل الى الضمير الحى والنية الصادقة ، انه مجرد صور شكلية .

من هنا كان الظلم فى الدنيا ظلمات فى وجه صاحبه يعاقب عليه يوم القيامة ، فقال عليه السلام " اتقوا الظلم فانه ظلمات يوم القيامة " (١) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه جل وعلا فى الحديث القدسى المشهور : " ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلاتظالموا " (٢) . وغير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث القدسية والنبوية التى تحدثت عن الظلم والظالمين وأنواعهم وعاقبتهم ، من ثم فان العدل فضيلة وأى فضيلة ، لقد جاءت صفة لله تعالى ، فمن أسمائه الحسنى " العدل " فما هو العدل ؟

الجواب : ان العدل فى اللغة مصدر بمعنى العدالة ، وهو الاعتدال والاستقامة ، وهو الميل للحق " (٣) هذا فى اللغة فماذا عن تعريفه فى الاصطلاح ؟

---

(١) حديث صحيح .
(٢) جزء من حديث طويل - الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية .
(٣) التعريفات باب العين .

عرف العدل بعدة تعريفات اصطلاحية منها :

(١) العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الأفراط والتفريط ، وهذا التعريف يجعل العدل قريبا من تعريف الشجاعة من حيث أنها وسط بين طرفين ، ولكن المعنى منهما مختلف .

(٢) عرفه الامام الغزالي بأنه : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة ، وتحملهما على مقتضى الحكمة " (١) .

(٣) عرفه الفقهاء باسم ممارسة وأنه " من أجتنب الكبائر ، ولم يصر على الصغائر وغلب صوابه ، واجتنب الأفعال الخسيسة " ولكن هذا التعريف ينطبق على العدل الذى تقبل شهادته ، بخلاف غير العدل فانه ترد شهادته ، لأنهم عدوا من الأفعال الخسيسة الأكل فى الطريق ، والتبول فى الطريق ، وانحسار شعر الرأس ، وكشف غطائها ، مما عدوه صغائر تذهب بعدالة العدل فى الشهادة ، وليس بمقصود لنا ههنا .

التعريفات التى سلف ذكرها تمثل كلا من العدل الذى هو مصدر عدل بفتح العين وكسر الدال ، كما تشمل الثانى الذى يعنى المساواة ، وهو بفتح العين وسكون الدال " عدل " .

---

(١) د / زكى مبارك — الأخلاق عند الغزالى ص ١٦٩ .

وكذلك الذى تجرى فيه صيغ المبالغة ، والمصدر المنطلق الذى — تجرى به عبارات النحاة والصرفيين .

اذن العدل فضيلة خلقية تدفع صاحبها الى التزام الحق والتمسك بالموضوعية مع الحيدة فى الأحكام والآراء ، كما تسوق الى ترك الجور ، والظلم ، وتهتف بالانصياع لأوامر الشرع ، واجتناب نواهيه .

وربما كان العدل فضيلة تدنى من فضيلة أخرى ، بحيث تمثل الأولة ركيزة تكون الثانية مرتبة عليها وغاية لها ، فالعدل فضيلة ، والتقوى غاية ، والذى يقرب الى التقوى هو العدل ، وربما نستشهد له بقوله تعالى " ولايجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان " (١)

وكأن العفو والعدل كليهما يقرب المسافة بين العبد وتقواه لربه فيقول تعالى : " وأن تعفوا أقرب للتقوى " (٢) .

واذا كان العفو والعدل يقربان الى التقوى ، فليس المقصود تقريب مسافة ، ولكن تقريب وسيلة فالعدل يصرف الجور ، ويدفع الظلم ويغدو الى مكارم الأخلاق التى تمثل صورة التقوى فى نفس المؤمن ورصيدا ايمانيا فى أعماقه ، وكذلك العفو ، من ثم كان توجيه القرآن الكريم فى قوله تعالى:

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٢
(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٤٧

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون " (١) .

والعدل صفة تميز بها الأنبياء والمرسلون ، وتحلى بها من عباد الله الصالحون ، حتى صارت علما على بعضهم بحيث اذا ذكرت الكلمة عرف المقصود بها ، فاذا قلت الخليفة العادل فى أمة خير المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم السامع أنك تقصد عمر بن الخطاب كما اذا قلت خامس الراشدين فيفهم مباشرة أنك تريد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما .

وقد عنى كثير من الباحثين بفضيلة العدل الخلقية ، حتى اعتبرها الامام الغزالى جملة الفضائل ، وحسبها فضيلة وفضلا ، أن المولى العلى القدير . سمى نفسه بها فمن أسمائه الحسنى العدل ، والعدل لايقبح منه ما يفعل فهو صفة سلبية " (٢) . لأن فعله حسن كله كمال كله " فتبارك الله أحسن الخالقين " .

وصفة العدل . بجانب أنها فضيلة ، فانها تطبيق عام لحدود الله ، عقوبات وعلاجات ، يقوم بها من تمكنوا بأنفسهم منها وصرفهم الحاكم المسلم اليها . وبالتالى كانوا قضاة لله فى خلقه ولعل هذا ماعناه الحديث

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨

(٢) السيد الشريف على بن محمد الجرجانى شرح المواقف فى علم الكلام ، الموقف الخامس ص ٣٦٣ تحقيق د / احمد المهدى مكتبة الأزهر .

الشريف بقوله " قاض فى الجنة . وقاضيان فى النار " (١) .

والعدول . من تقبل شهادتهم . فهم أهل مروءة وقوامية " ياأيها الذين آمنو شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أواخران من غيركم ان أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لانشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ولانكتم شهادة الله إنا اذًا لمن الآثمين " (٢) والعدول عاملون بالحديث النبوى الشريف بما مكنهم الله من سلامة قلوب ومكانة صدور . والعدل فضيلة بقدر ماتحمل من مدلولات .

(تم بحمد الله)

مع أطيب التمنيات بالنجاح الباهر !

---

(١) حديث شريف .
(٢) سورة المائدة الآية رقم ١٠٦ .

الخاتمة

((الخاتمـــة))

أجل تعثر اليراع أو نجا ، واختلط المنهج أو صفا ، لكـــن الذى لايمكن تجاهله ، هو أن هذا الكتاب الذى بين يديك لايمثل الا مقدمة واحدة من مقدمات طوال ، فى هذا الفن الدقيق المورد ، الكثير الاختلاط .

فمازال الطريق طويلا ، تتخلله مراحل متعددة ، فمن فواصـل العـلوم تعرف الفوارق ، ومن المناهج تتضح المسائل ، ومن طـرق المعالجة تبدو الموضوعات التى يتناولها كل فن من الفنون ، أو علم من العلوم ، وسيظل الأمر هكذا مادامت النوايا الصادقة قائمة ، والرغبة الأكيدة مستمرة .

بيد أن هذا الكتاب قد شغل بالفرق بين التصوف وعلمـــه ، والصوفية والمنتسبين اليهم ، وأبان عن أصالة التصوف من ناحيـــة اللغة والموضوعات والأدلة ، وأنها جميعا اسلامية ، مارسها السلف الصالح ، والصحابة الأجلاء ، وسار عليها التابعون ، وكانوا زهادا متصوفة .

كما عنى بالملاحظة الجديرة بالتركيز عليها وهى أن الصوفـــى انسان يوشك أن يصير ملكا ، أما المتصوف فهو انسان صار شيطانــا

انه يدعى ما ليس له ، ويقصد الاساءة لكل جميل ، انه دعى نسب لغير أهله ، وفاجر جلس مع أهل التقوى ، وصعلوك جاء في ركب ملوك .

ثم ان التصوف الاسلامى جدير باعادة النظر اليه ، والاهتمام به ، وتجلية كافة جوانبه ، من خلال عقول صحيحة ، ونفوس غير كسيحة ، وواقع بعيد عن الأمانى الكاذبة ، وتخلية مسائله وقضاياه عن كل دخيل ، والقذف فى وجوه أهل الاستشراق — ومن لايحسنون القراءة العلمية بطريقة فنية — بكل دليل شرعى ، على أن التصوف الاسلامى أصيل فى لغته ، أصيل فى سنده ، تليد فى عراقته ، بعيد عن زيف المبطلين .

ولئن كان هذا الكتاب لم يستغرق الا ما مر ذكره فحسبه ، لكنى — ان شاء الله تعالى — على مواصلة السير فى نفس الاتجاه — بيان الأصيل فى التصوف من الدخيل ، موضحا متى كانت نشأة التصوف ونوعا من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام .

كما سأتجه الى الحديث عن المصادر التى استقى التصوف الاسلامى منها ، والأخرى التى حملت الدعى الى التصوف ، وبيان

منزلتها من الناحية العلمية والدينية ، حتى يبلغ القول مداه ، ان التصوف الاسلامى صحيح الانتساب الى القرآن الكريم ، وسنة النبى الأمين ، وفعل الصحابة وسلوك التابعين .

وان الاصطلاحات التى حاول المستشرقون ادخالها الى ميدان الدراسات الروحية فى الاسلام ، لم تنل منه لأنها جاءت مفرغة من مضامينها فى لغتها ، ثم حملت المعانى التى أريدت لها فى اللغة المنقولة اليها ، حتى أنها فقدت كل اتصال سابق بها ، وعاشت كأنها وليدة يومها .

فان تكن مسألة المصدر قد كشفت عورات المستشرقين ، وانصاف المثقفين ، وردت شبهات المعترضين ، فحسبى أنى فزت بها ورضوان رب العالمين ، حتى يعرف الجميع أن النقل عن المستشرقين تصرف غير أمين ، مهما حسنت فيهم النوايا ، لأنهم ما تخلوا عن ثقافتهم التى ارتضعوها صغارا ، وعنصريتهم التى تخيأوا القيام بها كبارا .

على أنى لا ازعم بلوغ الكمال أو مقاربته ، بل أنى لعلى يقين من وجود ثغرات فيما قلت ، لكن يكفينى سلامة القصد ، ونيل الهدف وتزكية الغاية ، واصطناع الوسيلة ، ورجاء الأجر من رب العالمين .

" ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا " .

المؤلف
محمد الغزالى

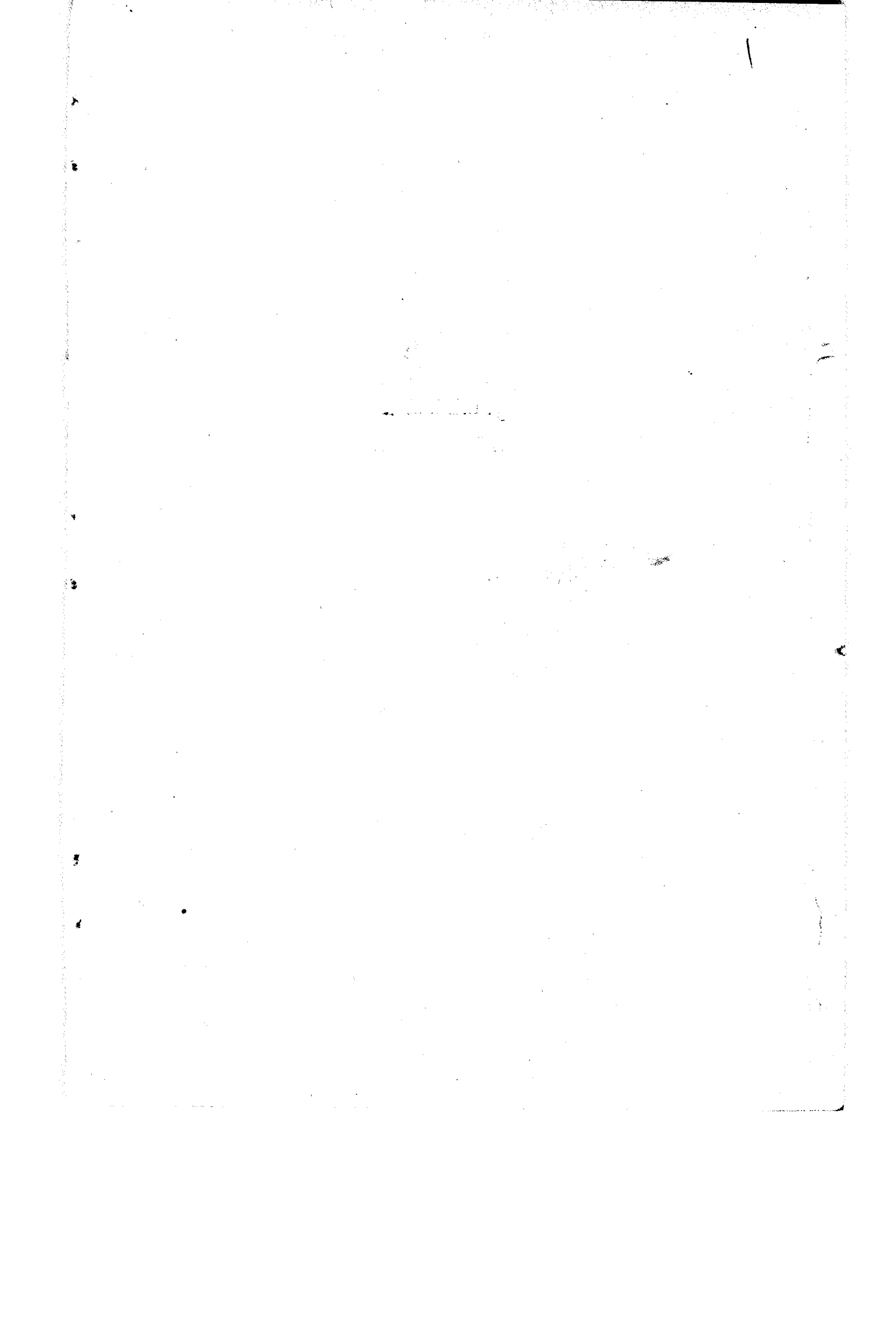
وبعـــــد ؛

عزيزى المطالع الكريم :

ها أنت قد عزفت معى على وتر الألحان نغما ، ربما طاب لـــك الاستمرار فيـــه ، وربما قررت الرجوع عنه ، وها أنت قد طفت معى شواطئ فكرية ، كان الملاح مجهدا ، والمجداف ضعيفـــا ، والرياح شديدة ، والموج عاصف ، وقد رفعنا أكف الضراعـــة أن ينجينا الله ، فهل ترغب فى مواصلة الرحلة ، أم تستنكف ؟ أمـــا أنا فمازلت أردد قول الحق العلام " وقل اعملوا فسيرى اللــــه عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الى عالم الغيب والشـــهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " .

والحمد للـــه رب العالميـــــن ؛

((المصـــــادر))



((المصادر))

أولا : القرآن الكريم وعلومه :

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ حاشية الصاوى على الجلالين / طبعة دار الفكر .
٣ ـ تفسير سورة الأنعام / دكتور أحمد الكومى ، دكتور/ محمد سيد طنطاوى سنة ١٩٧٢م .
٤ ـ الفتوحات الالهية " حاشية الجمل " .
٥ ـ التفسير والمفسرون ـ د / محمد حسين الذهبى .
٦ ـ أسباب النزول وبهامشه الناسخ والمنسوخ .
٧ ـ تفسير القرآن الكريم ـ لابن كثير .
٨ ـ لطائف الاشارات / للقشيرى .
٩ ـ تنوير الأذهان ـ للشيخ اسماعيل البروسوى .
١٠ـ الكشاف ـ الامام الزمخشرى ط الريان .
١١ـ مفاتيح الغيب ـ الامام الفخر الرازى ط الغد العربى .
١٢ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن ـ ط الحلبى / الشيخ / محمد عبد العظيم الزرقانى .

ثانيا : السنة النبوية وعلومها والتراجم :

١٣ـ صحيح الامام البخارى .
١٤ـ صحيح الامام مسلم .

١٥- سـنن البيهقـي .
١٦- سـنن الترمذي .
١٧- الجامع الصحيح / للامام الترمذي.
١٨- الضعفاء / للكبيـر .
١٩- سـنن ابن ماجـه .
٢٠- كشف الخفاء ومزيل الالتباس / الامام العجلوني .
٢١- الكامل في الضعفاء / ابن عدي .
٢٢- السنن الكبرى / الامام البيهقي .
٢٣- مجمع الزوائد - الامام الهيثمي .
٢٤- اتحاف السادة المتقين - للامام الزبيدي .
٢٥- الاكتساب في الرزق المستطاب / الامام محمد الشيباني .
٢٦- الأذكـار / الامام النووي .
٢٧- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد / ط المدني .
٢٨- الجامع الصغير / الامام الترمذي .
٢٩- السنن الكبرى / الامام البيهقي .
٣٠- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامـع الكلم .
٣١- المطالب العالية / للامام ابن حجـر .
٣٢- سير اعلام النبلاء للذهبي .
٣٣- اتحاف السادة المتقين للزبيدي .

ثالثا : المعاجم والدوريات والرسائل العلمية :

٣٤– القاموس المحيط
٣٥– شرح القاموس المحيط
٣٦– لسان العرب .
٣٧– المعجم الوجيز .
٣٨– مختار الصحاح .
٣٩– المنجد في اللغة والأعلام / ط دار الشرق بيروت .
٤٠– أساس البلاغة / للزمخشري / دار الفكر بيروت .
٤١– التعريفات / للجرجاني / ط الحلبي .
٤٢– كشاف اصطلاحات الفنون / التهانوي .
٤٣– مجلة الرسالة / العدد ٩٢٥ مارس ١٩٩١م .
٤٤– بيان للناس / جـ ٢ مطبعة الجامع الأزهر .
٤٥– مجلة المنار .
٤٦– عبد الرؤف المناوي وتصوفه / رسالة دكتوراه / الدكتورة/ فردوس أبو المعاطي – كلية البنات جامعة عين شمس ١٩٩٣

رابعا : مصادر عامة :

(أ)

– ابن تيمية / شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم .
٤٧– التصوف / المجلد ١٠ من مجموعة الفتاوى .

٤٨ـ علم السلوك / من مجموع الفتاوى / مجلد ١١
٤٩ـ مجموع الفتاوى / مفصل الاعتقاد / مجلد ٤
٥٠ـ التحفة العراقية فى الأعمال القلبية .

ـ ابن مسكويه

٥١ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق / تحقيق ابن الخطيب

ـ ابن الوزير الصنعانى

٥٢ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان / مطبعة المعاهد / ١٣٤٩هـ .

ـ ابن حمزة / الامام سعد الدين ابن سعد

٥٣ـ الجواب الظريف عن السؤال فى فن التصريف ـ ط أولى ١٣٣٢هـ المطبعة الجمالية .

ـ ابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ

٥٤ـ تلبيس أبليس / تحقيق السيد العربى ـ مكتبة الايمان .
٥٥ـ صفة الصفوة ط أولى حيدر أباد الهند سنة ١٣٥٥هـ .

ـ ابن هشام

٥٦ـ سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم جـ ١

ـ ابن مالك .

٥٧ـ ألفية ابن مالك ـ مطبوع ضمن مجموع مهمات المتون .

ـ ابن عقيل .

٥٨ـ شرح ابن عقيل / النسخة ذات الحاشية .

— ابن خلدون .

٥٩ — شفاء السائل لتهذيب المسائل / تحقيق محمد بن تاديت الطنجي — أنقرة ١٩٥٧م .

٦٠ — المقدمـــة .

— ابن عســاكر .

٦١ — تاريخ ابن عساكر .

— ابن عجيبـة / الامام احمد بن عجيبة الحسنى .

٦٢ — الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية .

— ابراهيم / الأستاذ الدكتور / الدسوقى محمد

٦٣ — التصوف والأخلاق / الدار الاسلامية للطباعة والنشر .

— أبو نعيـــم

٦٤ — حليـــة الأوليـــاء .

— أبو عبد الرحمن الســلمى

٦٥ — طبقات الصوفية / تحقيق الأستاذ / نور الدين شريبه ١٩٦٩م

٦٦ — الأربعين فى التصوف .

— الأنصارى / شيخ الاسلام / زكريـا .

٦٧ — الفتوحات الالهية فى نفع أرواح الذوات الانسانية — طبعة العاصمة ١٩٧٦م .

— أيوب — الأستاذ / حســن .

٦٨ — تبسيط العقائد الاسلامية / دار التراث العربى ط ١٩٨٦م

— امبابى — الدكتور / محمد مصطفى

٦٩— الحركة الفقهية الاسلامية / مطبعة الساعى ١٩٨٤م ٠

(ب)

— بركة / الدكتور / عبد الفتاح

٧٠— فى التصوف والأخلاق / ط ٣ عالم الفكر سنة ١٩٨٣م ٠

— البقاعى / الامام بدر الدين

٧١— تحذير العباد من أهل العناد / تحقيق عبد الرحمن الوكيل طبعة أولى ١٣٧٢ هـ ٠

— برجسون — الأستاذ / هنرى ٠

٧٢— التطور الخالق / ترجمة الدكتور / محمود قاسم — الهيئة المصرية عام ١٩٨٤م ٠

(ج)

— الجيلانى / الامام عبد القادر

٧٣— فتوح الغيب ٠

— جعفر / الدكتور محمد كمال

٧٤ — فى الفلسفة والأخلاق ٠

— الجرجانى — الامام / السيد الشريف

٧٥— شرح المواقف فى علم الكلام — تحقيق د / أحمد المهدى — مكتبة الأزهر الشريف ٠

(ح)

- حجاج - الدكتور / محمد فوقي ، وآخر

٧٦- من قضايا التصـــوف .

٧٧- مواقف من التصوف الاسلامى / دار الطباعة المحمديـــة طبعة أولى ١٩٨٤م .

٧٨- قضايا هامة في التصوف - ومعه زميله الدكتور/ محمد أحمد مصطفى .

- حـــلمى - الدكتور / محمد مصطفى

٧٩- ابن الفارض والحب الالهى / ط دار المعارف بمصر ١٩٧١

الحـــق - الامام الأكبر / جاد الحق على جاد الحق .

٨٠- التطرف الدينى وأبعاده / مطبعة أنصار السنة المحمدية .

(خ)

- الخولـــى / الاستاذ / الشيخ أمين

٨١ - من هدى القرآن / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م

- خضـــير / الدكتور / طه عبد السلام

٨٢ - مباحث فى علم الأخـــــلاق .

(د)

- دراز / الدكتور / محمد عبد الله

٨٣ - مدخل الى القرآن الكريم .

(ر)

— رياض / الأستاذ / مجدى محمـــــد

٨٤ — الفلسفة الخلقية عند الأشاعرة / الهيئة المصرية للكتـــــاب ١٩٩٣م .

— الراضـــى / الشيخ حســـــن

٨٥ — الاعلان بعدم تحريم الدخان .

(ز)

— زقزوق / الدكتور / محمـــود حمدى

٨٦ — مقدمة فى علم الأخلاق / ط ٤ / الدار الاسلامية للطباعـة والنشر سنة ١٩٨٤م .

(س)

— الســـلمى / الشيخ عبد الرحمـــن

٨٧ — رسالة الملامتية وغلطات الصوفية / مخطوط دار الكتب تحت رقم ٢٣٧ تصوف تيمور ، وأخرى بتحقيق الدكتور / أبو العلا عفيفـــى .

— الســـبكى / الشيخ محمود أمين خطاب

٨٨ — الديـــن الخالـــص .

— الســـهروردى .

٨٩ — عوارف المعـــــارف .

– سيد الأهل / الدكتور عبد العزيز
٩٠– بين الشريعة والحقيقة / طبعة المجلس الأعلى للشـــئون الاسلامية ١٩٨٠م .

(ش)

– الشــافعى / الامام محمد نورى
٩١– نور الظلام / ط الحلبى ١٩٣٦م .

– الشعرانى / الشيخ عبد الوهاب .
٩٢– لواقح الأنوار فى ذكر طبقات الأخيار .

– شـــيراك / دكتور / هارلد
٩٣– هل لك فى سيكارة / دار الشرق بيروت .

(ط)

– الطوســـى / الامام
٩٤ – اللمـــــع .

– الطويــــل / الدكتور / توفيق
٩٥ – مدخل الى الفلســــفة .

– طعيمــــة / الدكتور / صابر عبد الرحمن
٩٦ – الصوفية معتقدا ومسلكا .

(ظ)

- ظهير / الاستاذ / احسان البهى
٩٧- التصوف المنشأ والمصدر / باكستان ١٩٨٦م .

(ع)

- العبد / الدكتور / عبد اللطيف محمد
٩٨- دراسات فى الفكر الاسلامى .

- عون / دكتور / فيصل بدير ، سعيد رأفت
٩٩- الفلسفة الخلقية على ضوء الاسلام ١٩٩٢م .

- عبد الخالق - الاستاذ / عبد الرحمن
١٠٠- فضائح الصوفية - طبعة الرياض .

- العمريطى / شيخ الاسلام / شرف الدين يحيى ت٩٨٩هـ
١٠١- نظم الأجرومية / مطبوع ضمن مجموع مهمات المتون / طبعة البابى الحلبى .

- عفيفى - الاستاذ / الدكتور أبو العلا
١٠٢- رسالة الملامتية والصوفية .

- عابد / نفيسه
١٠٣- أصحاب الكرامات / المطبعة الفنية ١٩٨٧م .

(غ)

– الغزالى / شيخ الاسلام / محمد محمد أبو حامد

١٠٤ – احياء علوم الدين .

– الغزالى / الدكتور / محمد حسينى موسى محمد

١٠٥ – رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ط ٢ ١٩٩٦م مطبعة الهدى .

١٠٦ – حفيف الأفنان فى الملل والنحل والأديان / مطبعة الهدى بالزقازيق ط أولى ١٩٨٦م .

١٠٧ – غدوة المشتاق فى ربوع الأخلاق / مطبعة الشروق ١٩٩٧م

١٠٨ – لماذا انتشر الاسلام / ط أولى كونتننتال ١٩٨٧م .

– غلاب / الدكتور / محمد

١٠٩ – التصوف المقارن .

– غنى / قاسم

١١٠ – تاريخ التصوف فى الاسلام .

(ق)

– القشيرى / الامام

١١١ – الرسالة القشيرية / ط صبيح وبهامشها هوامش الشيخ / زكريا الأنصارى .

(ك)

— كامل / الاستاذ / فؤاد

١١٢ — مدخل الى الفلسفة والدين ودراسات أخرى /الهيئة المصرية ١٩٨٤م .

— الكلاباذى / الامام

١١٣ — التعرف لمذهب أهل التصوف .

— كرســـى / دكتور / دانيال

١١٤ — الدخينة فى نظر طبيب / مكتبة المعارف بالرياض .

(م)

— مبارك / الدكتور / زكـــى

١١٥ — الأخلاق عند الغزالى / ط الشـــعب .

— محمود / عبد الرحمن حســـن .

١١٦ — مقدمة الفتوحات الالهيـــة .

— منيــع / الشيخ عبد الله بن سلمان بن منيع .

١١٧ — حوار مع المالكى / مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٩٨٣م .

— مراد / الأستاذ / عبد الحى العمروى عبد الكريم

١١٨ — التحذير من الاغترار بما جاء فى كتاب الحوار / ط ١

١١٩ — تذكرة الأوليـــاء .

— مدكور / الدكتور / ابراهيم وآخر .

١٢٠ — دروس في تاريخ الفلسـفة .

— مزروعة / الدكتور / محمود محمد

١٢١ — دراسات في الملل والنحل جـ١ مطبعة العاصمة ١٩٧١

— المنوفى / السيد محمود أبو الفيض

١٢٢ — التصوف الاسلامى الخالص / دار نهضة مصر .

١٢٣ — تهافت الفلسفة عن درك الحقيقة المطلقة / دار نهضة مصر سنة ١٩٧٠م .

— مكى / الشيخ حافظ أحمد .

١٢٤ — معارج القبول بشرح سلم الوصول الى علم الأصول فـى التوحيد جـ ١ .

(ن)

— النشـرتى / الأستاذ / حمزة وآخرون .

١٢٥ — سلسلة الفقه على المذاهب الأربعة ط الغد العربى .

— النشـار / الأستاذ / الدكتور / على سـامى

١٢٦ — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام / طبعة ٨ / دار المعارف .

— النابلسى / الشيخ عبدالغنى بن اسماعيل

١٢٧ — الصلح بين الأخوان فى اباحة الدخان / المكتبة السلفية بدمشق سنة ١٣٤٣ هـ .

— نيكولسون

١٢٨ — فى التصوف الاسلامى وتاريخه / ترجمة لجنة التاليف سنة ١٩٦٩م .

(هـ)

— الهجويرى / الامام

١٢٩ — كشف المحجوب .

— هاشم / الاستاذ / يوسف السيد الرفاعى

١٣٠ — الرد المحكم المنيع / مطبعة السعادة ط ٢ سنة ١٩٨٥

— هراس / الدكتور / محمد خليل .

١٣١ — شرح العقيدة الواسطية طبعة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

xxxxxxxxxxxxxxxxx

الفهرس

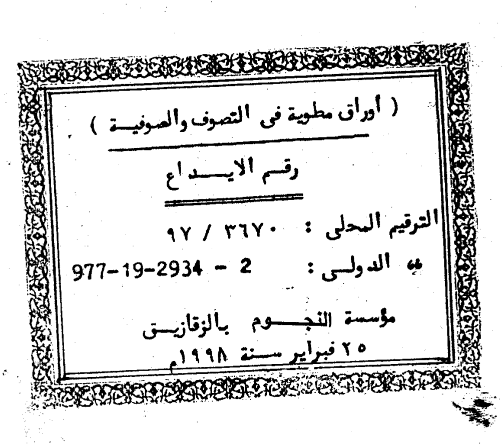
((الفهرس))

((تابع الفهرس))

((تابع الفهـــرس))

رابعا: الأخلاق

والله ولى التوفيـــق



(أوراق مطوية فى التصوف والصوفية)

رقم الايداع

الترقيم المحلى : ٣٦٧٠ / ٩٧

الدولى : 2 - 2934-19-977

مؤسسة النجوم بالزقازيق

٢٥ فبراير سنة ١٩٩٨م